أذكروا الله

تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة

وضعه بالفرنسيّة

الأب الياس زحلاوي

نقله إلى العربيّة

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسيّة

اذكروا الله

تأمّلاتٌ مِن وَحْيِ رَسَائِل الصّوفانيّة

طبعة ثانية

١٩٩٩

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية
جونيه شارع القديس بولس - ص.ب ١٢٥
هاتف ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٣٠٥٤ - فاكس: ٠٩/٩١٨٤٤٧
بيروت - شارع لبنان - هاتف ٠١/٤٤٨٨٠٦
زحلة - الحمراء بلازا - هاتف ٠٨/٨١٢٨٠٧

اذكروا الله

تأمّلاتٌ مِن وَحْي رَسائِل الصّوفانيّة

وَضَعَهُ بالفرنسيّة
الأب الياس زحلاوي

نقلَه إلى العربيّة
أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسيّة

الفهرس

مقدّمة ٧

الجزء الأوّل

الظهورات والانخطافات ١٣

الجزء الثاني

إشعاع الصوفانيّة ١٢٥

الجزء الثاني

إشعاع الصوفانيّة ١٢٥

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان

مقدّمة

تعدَّدتْ، في السَّنوات الأخيرة، إشاراتُ السماء الحسِّيَّة الى المسيحيِّين في العالم، فالعذراء تظهر في شتّى بقاع المسكونة، والزيتُ ينسكب من صُوَر لها ولابنها في مُختلف الأرجاء، والرسائلُ الداعيةُ الى التَّوبة والصَّلاة والوحدة والمحبّة والإيمان تتوالى تترى.

وفي مطلع شهر كانون الأوَّل من عام ١٩٨٢، أنبأ الأب الياس زحلاوي مئات المؤمنين الذين اكتظّت بهم كنيسة سيّدة دمشق، أثناء عظته المسائيّة، أنّ السَّماء قد أشرعتْ نافذةً على مدينتهم وبلادهم، من خلال بيتٍ متواضعٍ في حيّ الصُّوفانيّة الشَّعبيّ.

ويا لها من أيّام غُرٍّ شهدَتْها دمشق، آنذاك، في مُستهلّ الظاهرة، انحفرت ذكراها في صميم أفئدتنا، وخلّفت في أغوار كياننا، أثرًا متوهّجًا لن يمّحي! لقد خُيّل إلينا أنّ أحداث الجليل، في العقد الثالث الميلاديّ، وأحداث «أعمال الرسل»، قد عادت تتكرّر أمام أبصارنا المبهورة، وأذهاننا المسحورة، ونفوسِنا المضطرمة بإيمانٍ متجدّد.

جماهيرُ كثيفة، من كلّ مدينةٍ وقرية، من كلّ دينٍ وطائفةٍ وملّة، كانتْ تبدأُ تتراصُّ منذ قبل الفجر، أمام البيت الصغير، الذي اختارتْه العذراء في الصوفانيّة مقرًّا لها، ويظلّ سيلهم يتدفّق حتّى أواخر الليل، والجميع متلهّفون الى رؤية المكان الذي زارتْهُ الأُمّ السَّماويّة، والاستحمام بعبير حُضورها العُلْويّ الذي أَفْعَمَ الأجواء. وكم مَن وفدوا يلتمسون الشفاء بالادِّهان بزيت العذراء، وكم مِنْ مُقعَدين أُدخلوا على الأكفّ والمحفّات، وقفلوا الى بيوتهم يسيرون على أقدامهم، وهم يكادون لا يُصدِّقون! وكم مَنْ جاء متّكئًا على العكاكيز، فتركها في فناء الدار، إذ لم تَعُدْ به إليها حاجة، ومضى يطفر طفرًا، جَذَلاً وحبورًا! ومِنَ المرضى من كانوا يستلقون، الواحد تلو الآخر، على سرير العروس، التي اختارتها العذراء وسيطةً لها، بحيث لا يَدّعون لها فسحةً لنومٍ أو لراحةٍ أو لطعامٍ هانئ.

وكم مَنْ جاء يحمل هَمًّا ينخر ذهنَه، وسَقَمًا تنوء به نفسُه، فتخفَّف منها، بين يدي الأُمّ السَّماويّة، وعادَ رشيقًا، يتوثّب أَمَلاً وطمأنينة!

لقد وافَتْنا العذراء بذاتها، كي تُؤكّد لنا أنّها أُمُّنا التي لم تتخلَّ عنّا، ولم تنسَنا، وأنّ ابنَها وإلهها أبٌ لنا رَؤُوفٌ بنا، حريصٌ على خلاصنا، مع كلّ ما يتحمّله من إساآتنا.

جاءتْنا العذراءُ، بذاتها، كي تثبّتَنا في إيماننا البسيط، الملتصق بأعماق كياننا، فنصمد في وجه الرِّيَب التي تحاصِرُنا، ونواجه بثِقَةٍ أضاليل عالَمٍ غرَّه علمُه وإنجازاته، فتوهَّم أنّه بات في غِنًى عن الله، ونصَّب من العِلم، والمال، والمتعة، أصنامًا يعبدها، دون الخالق.

وكم نحن في حاجةٍ الى وقوفكِ بجانبنا، يا أُمَّنا، كي نظلَّ أوفياءَ لإيماننا، وكي تبقى جذوته مضطرمةً في هذه البقعة من العالم، التي حظيتْ برؤية المسيحيّة تولد وتترعرع على أديمها، ومنها تنطلق الى العالم الفسيح، في حين خمَدتْ، واندثرتْ في بقاعٍ مجاورة، كانت هي أيضاً للمسيحيّة مُهودًا ومرابعَ، ومراكز انطلاق!

كم نحن في عوزٍ الى إزركِ وسندكِ، يا أُمَّنا، كي نصُونَ هذه الوديعة الغالية، التي ناضل أجدادنا في سبيل الحفاظ عليها، نضالَ الأبطال، ولم يضنّوا لا بأرواحهم، ولا بدمائهم، ولا بهنائهم، حتّى سلّمونا إيّاها، كاملةً، ناصعةً!

يسوع قال: «بثباتكم تُنقذون أنفسكم». فاعضدينا كي نثبت ونخلص!

بحنانٍ وحزم، قالت لنا العذراء: «لا تخافوا، أنا معكم!». ودرءًا لكلّ شكٍّ قد يظلُّ يتسلّل الى صدورنا، شفت في الكثيرين أوصابَ النفس والجسد، شفاءً عجيبًا، وأفاضت علينا زيتها المقدّس بسخاء.

وعلى نحو ما جرى في بيت لحم، آمن البسطاءُ، والمتواضعون، وجميع الذين أَلِفوا أن يُذعنوا للحقّ إذا ما عاينوه، كما آمن علماءُ جاؤوا من أقاصي المسكونة، مُستهدين بالنجم الذي توقّف فوق بيت الصُّوفانيّة، في حين أصرَّ على الرفْض بعضُ علماء الناموس والفرّيسيّين، وعوضاً عن تكليف أنفسهم عناء المثول لمشاهدة ما يجري على بعد خطواتٍ منهم، راحوا يختلقون التخرُّصات المُشينة، مشهّرين بالحَدَث الجَلَل، الذي أَبَوْا التحقّق منه.

وكان الأب الياس زحلاوي من أوائل الذين عاينوا فآمنوا؛ وهو، وإن لم يكن، بفطرته وتربيته، شَغوفًا بالظواهر الخارقة، غير الطبيعيّة، إلاّ أنّه استشفّ، عبْر رسائل الصُّوفانيّة العامّة، وعبر رسائل أخرى خُصَّ بها شخصيًّا، صوتَ السماء، فانقاد له، من غير تحفّظٍ ولا تردُّد. وقد لمس لدى الذين اصطفتهم السّماء وسيطاً لتبليغ رسائلها، واختارت بيتَهم مقرًّا لها، كلّ الخصال التي هو كَلِفٌ بها، من صدقٍ، وبساطةٍ، وعفويّةٍ، ومجّانيّة مُطلقة، فانتصب الى جانبهم، مدافعًا جريئًا، لا يخشى غضبة رئيس، ولا تهزّه شائعاتٌ دنيئة.

والى جانب الأب زحلاوي وقف كاهنٌ آخر، يضارعه غيرةً، وتقوى، واستقامةً وموضوعيّة، هو الأب يوسف معلولي؛ ومن تعاونهما انبثق فريق شهادةٍ فذّ، يتابع بحرصٍ وتبصُّر، مسيرة الحدث الفريد، ويوثّق، بدقّةٍ وأمانةٍ، كلّ ما يتعلّق به.

وقد كان لوجود هَذَين الكاهنَيْن النادريْ المثال، في الصُّوفانيّة، أثرٌ بالغ، فقد تتلمذت على أيديهما، واسترشدتْ بتوجيهاتهما، واستلهمتْ مثالهما أجيالٌ متعاقبة من شبّان دمشق، والجميع يشهدون لهما، معًا، بالصِّدْق والمصداقيّة، والنزاهة المطلقة، ورجاحة الرأي، وسداد الحكم.

وفي حين التصق الأب معلولي بالصُّوفانيّة، كي يُواكب الحَدَث خُطوةً فخُطوة، ولحظةً فلحظة، وكي يُنظِّم الصَّلاة، ويُرشد الى عيش روح رسائل يسوع والعذراء، اضطلع الأب زحلاوي بمهمّة الرسول الذي آلى على نفسه التعريف بالصُّوفانيّة ورسائلها، في داخل البلاد، وفي العالم الواسع، فراح يُلقي المحاضرات، والأحاديث المستفيضة، عن الصُّوفانيّة، بلا كَلَل ولاهوادة، حيثما وُجِدَ راغبٌ في الاستماع والاطّلاع. وقد قادته جولاته الإعلاميّة كرّاتٍ وكرّات، الى مختلف المدن الأوروبية والأميركيّة والكنديّة، فضلاً عن مدن سوريّة ولبنان ومصر.

وفي عام ١٩٩٠ أصدر كتابًا وثيقة، دوّن فيه أحداث الصُّوفانيّة وأصداءها، يومًا فيومًا، منذ بدئها حتّى تاريخ إصدار الكتاب الذي تجاوب معه القُرّاء تجاوبًا تخطّى كلّ توقّع، ولاسيّمَا وأن الأستاذ أنطون مقدسي قد ألحق بهذا الكتاب تأمُّلاتٍ وخواطرَ، من وَحْي الصُّوفانيّة ورسائلها، هي من أروع ما فاض به قلمُه المُبْدع.

وأبدى عددٌ من الأوربيّين رغبةً في الاطّلاع على ذلك الكتاب الوثيقة، فاستجاب الأب زحلاوي لتلك الرغبة، وترجم بنفسه الكتابَ الى الفرنسيّة، وأثناء إقامته في فرنسا، من أجل إعداد الترجمة وطبعها، طُلب منه أن يُلحق بها تعليقاته حول رسائل الصُّوفانيّة. وإذ لم يكن له من الوقت متّسعٌ للإكباب على وضع كتابٍ بهذا الشأن، اقتصر على الإدلاء بخمسة أحاديث، خصّص لكلٍّ منها ساعتَيْن، وكانت تقوم بالتقاطها وتسجيلها، صحفيّة فرنسيّة. ومن هذه الأحاديث، أو بالأحرى، من بعضها، صدر كتابٌ بالفرنسيّة بعنوان «أذكروا الله»[1].

لم يكن من العسير على الأب زحلاوي الإدلاء بأحاديث عن الصُّوفانيّة، في زحمة انشغاله، فهو قد طالما أشبع تلك الرسائل تأمُّلاً، بل قد عاشها بكلّ جوارحه، فامتزجت معانيها بذهنه ودمه، وتغلغلت حتى أغوار كيانه.

---

(١) PÈRE ÉLIAS ZAHLAOUI,
En collaboration avec Bernadette Dubois,
SOUVENEZ – VOUS DE DIEU,
Éditions O. E. I. L., PARIS, 1991.

ولا عَجَب، بالتّالي، إن جاء حديثُه عنها، مع أنّه مرتجَلٌ، يتدفّق عفويّةً، وطلاوةً، وانسيابًا، فلكأنّك تستمع، وأنت تقرؤه، توثُّب مياه نبعٍ ضاقَ قلبُ الصّخر عن حبسها، فتفجّرت جيّاشةً، صافيةً، طليقة.

وما أكثر ما تطالعك تلك الصفحات بشراراتٍ متوهّجة، توحي بفسحاتٍ سماويّة لا يُسبَر لها غَوْر، يسرح وراءها الخيال في تأمّلات لا تنتهي!

لقد خُيِّل اليّ، وأنا أُطالع بعض صفحات هذا الكتاب أنّني أقرأ قصائد من عيون شعر «شارل بيغي». وقد انتابني هذا الشّعور، على نحو خاصّ، وأنا أُطالع الفصل الأخير الذي به توّج الأب زحلاوي كتابه، وعنوانه: «الحبُّ الذي أكنُّه للكنيسة». وكم كانت دهشتي بالغةً وسعيدةً، عندما اطّلعتُ على رسالةٍ بعثَ بها كاهنٌ فرنسيٌّ الى الأب زحلاوي، يشاركني فيها نفس الانطباع. ويُضيف ذلك المراسل، واصفًا بعض فَقَرات هذا الكتاب بقوله أنّها: «هَطْلُ نجوم، ومعزوفةٌ موسيقيّة، بل قصيدةٌ شعريّة، بحيثُ يُخيَّل لقارئ بعض الصفحات أنّه يطالع قصائد لبيغي... مثل هذا القَدْر من الجمال المتألّق لا يُمكن أن ينبعث إلاّ من مريم، عبر إيقونتها السّاجية، القريبة من قلوبنا، المتدفّقة حنان أُمٍّ حيالَ «أولادها»، ومن خلال ابنها المنتصب مستقيمًا وكبيرًا، والذي قال فيه الأب زحلاوي: «إنّه يُريدنا كبارًا، رغم إصرارنا على أن نظلّ صغارًا».

تلك واحدةٌ من عشرات الرسائل القادمة من أوروبا وكندا، وكلُّها إشادةٌ بذلك الكتاب، وبتأثيره الرُّوحيّ البليغ.

إزاء هذا الإعجاب الشّامل، وفي أعقاب ما أشاعهُ فيَّ الكتاب من دهشةٍ وسِحْر، استقرَّ في يقيني أنّه من الحرام أن يظلّ قُرّاء العربيّة محرومين من متعة هذا الأثَر القيِّم، بل هذا الكنز النفيس. وهم به أحرى.

وكم تمنّيتُ لو توفّر للأب زحلاوي فسحةٌ من وقت كي يترجم مؤلّفهُ هذا، أو بالأحرى أن يُعيد كتابتَه باللُّغة العربيّة، فهو سواء كتب بالفرنسيّة أو بالعربيّة، صاحب أسلوب فريد، يحمل طابعه الذي لا يُجارى، ينبض بسحر حضوره، ويُخلّف أثرًا بعيد الوقع في النّفوس. وإنّي لواثقٌ أنّه لو فعل ذلك، لأغنى كتابه بالكثير ممّا حُذِف منه، أو ممّا لم يتّسع له الوقتُ للاستفاضة فيه. فكم من جواهرَ نادرة ما زالت كامنةً في رسائل الصُّوفانيّة، وكم هي تبعث من وَمَضات ساحرات ما انفكّتْ تنتظر من يجلو أسرارها!

منَ المُحقَّق أنّ رسائل الصُّوفانيّة لا تنطوي على أيّ تعليم جديد، بل هي تذكيرٌ ببعض ما جاء في الإنجيل، وَرَدَ على لسان يسوع وأُمّه، ليرشدانا الى كيفيّة عيش الإنجيل الآن، وهنا،

حيثُ نحن. وتلك هي ميزة هذه الرسائل الفريدة السّامية. إنّها الإنجيل يُكتب من جديد في أرضنا وزماننا، فيُجيب على تساؤلاتنا الحارقة، ويبدّد ما يكتنفنا من ظُلُمات، ويومئ الى ما يتوجبّ علينا فعله، كي نعيش مسيحيّتنا اليومَ، وفي الواقع الذي وضعنا فيه الربّ. فميزة الإنجيل أنّه الكتاب الوحيد الدائم المعاصرة، والأبديّ الجدّة، الذي نجد فيه كلَّ حقبةٍ، وفي كلّ مكان، طريق الحقّ والحياة.

ومن المعروف عن الأب زحلاوي أنّه جعل من الإنجيل نسيج حياته ومادّتها، تلك الحياة التي وَقْفَها على الشهادة، مع كلّ ما يُرافق الشهادة من اضطهادٍ ومضايقاتٍ أحيانًا كثيرة. ومن ثَمَّ فقد انفرد بنَمَطٍ من الوعظ يتدفّق من ذهنٍ وقلبٍ يعيشان الإنجيل بكلّ جوارحهما وطاقاتها، فإذا به وعظٌ حيٌّ عن إنجيلٍ حيّ، الإنجيل كما يتعيّن على إنسان اليوم أن يعيشه اليوم. ولا بِدْعَ إن سَحَرَ هذا الوعظُ أبناءنا الشباب، فغدتْ كنيسة سيّدة دمشق تغصُّ بهم وبذويهم، كُلّما وَقَف فيها الأب زحلاوي واعظاً. وكم كان خاطئًا ومُحْزِنًا، القرارُ الذي حال وما انفكّ يحول دون استمراره في هذا الوعظ، ممّا حرم طائفةً عريضةً من شبّاننا من الغذاء الروحيّ الوحيد الذي كان يتسنّى لهم الظفر به، وسط إهمالٍ ولا مبالاةٍ مأساويَّيْن.

أمّا وقد آل لي شرف ترجمة هذا الكتاب، فرجائي أن تعوّض هذه الترجمة جمهور الأب زحلاوي ولو جزءاً يسيرًا ممّا فقدوه من وعظه، الذي آمل أن تُتاح لهم من جديد، وفي أدنى موعد، فرصة الاستماع اليه، والإفادة من تأثيره البليغ. ولا سيّمَا وقد أَضْفَتْ عليه أنوارُ الصُّوفانيّة ورسائلها مزيدًا من الألَق، وإنجيليّةً أعمق، وتمرُّسًا أشدَّ «بكلمة الوحدة والمحبّة والسّلام».

أديب مصلح

الجزء الأول

الظهورات والانحطافات

رسائل الظهورات

١ – الظهور الثاني: السبت ١٩٨٢/١٢/١٨ الساعة: ١١،٣٧ ليلاً

«أبنائي،

١ – أذكروا الله، لأن الله معنا.

٢ – أنتم تعرفون كلّ شيء، ولا تعرفونَ شيئًا. معرفتكم معرفةٌ ناقصة، لكن سيأتي اليوم الذي فيه تعرفون كلّ شيء، مثل معرفةِ الله لي.

٣ – إفعلوا الخيرَ لفاعلي الشرّ، ولا تعامِلوا أحدًا بالسوء.

٤ – أعطيتُكم زيتًا أكثرَ مما طلبتم، وسأعطيكم ما هو أقوى من الزيت بكثير.

٥ – توبوا وآمنوا، واذكروني في سروركم.

٦ – بشّروا بابني عمانوئيل. من بشّرَ خلُص، ومن لم يبشّر، بإيمانه باطل.

٧ – أحبّوا بعضكُم بعضاً.

٨ – لا أطلبُ مالاً يُعطى للكنائس، ولا مالاً يُوزَّع على الفقراء، أطلبُ المحبّة. الذين يوزّعون مالَهم على الفقراء والكنائس. ولَيس فيهم محبّة، فهُم ليسوا بشيء.

٩ – سأزورُ البيوت أكثر لأن الذين يذهبونَ إلى الكنيسة، أحيانًا لا يذهبون للصلاة.

١٠ – أنا لا أطلب أن تُشيّدوا لي كنيسة، بل مزارًا.

١١ – أعطوا. لا تحرموا أحدًا ممن يطلبون النجدة».

الظهور الثاني – الرسالة الأولى

السبت ١٨ / ١٢ / ١٩٨٢

يتجلّى البُعد الحقّ لظاهرة الصوفانيّة، منذ الرسالة الأُولى التي بلّغتْها العذراء في أثناء ظهورها الثاني.

أقول الرسالة الأُولى والظهور الثاني، لأنّ ميرنا، لدى الظهور الأوّل، استولى عليها ذُعرٌ من الشدّة بحيث ولّتْ هاربةً، وخُيِّل الى سِلْفتها هيلين أنّها أُصيبت بمسّ جنون، فانهالت عليها صَفْعًا. وبالطبع لم تُدلِ السيّدة العذراء بأيّ رسالةٍ لميرنا، آنذاك.

إلاّ أنها عادت فظهرت لها، بعد ثلاثة أيّام، في ليلة ١٨ كانون الأوّل ١٩٨٢. وكانت ميرنا قد تأهّبت، بالصلاة، لاستقبالها، وحينئذٍ بلّغتها العذراء مريم هذه الرسالة، التي يُمثِّل مضمونها برنامجًا، أو، أقلّهُ، أحد أوجه هذا البرنامج المتعدّد الجوانب. إنّ هذه الرسالة تنطوي على موجزٍ لمغزى أحداث الصوفانيّة بجملتها. وحسبي تلاوة نصّها، حرفيًّا، كي تبرز عناصرها الرئيسة، ويتّضح أنّ هذه الرسالة هي، حقًّا، برنامج قائم بذاته:

«أبنائي،

أذكروا الله، لأنّ الله معنا.

أنتم تعرفون كلّ شيء، ولا تعرفون شيئًا. معرفتكم معرفةٌ ناقصة، لكن سيأتي اليوم الذي فيه تعرفون كلّ شيءٍ، مثل معرفة الله لي.

إفعلوا الخير لفاعلي الشرّ، ولا تعاملوا أحدًا بالسوء.

أعطيتكم زيتًا أكثر ممّا طلبتم، وسأعطيكم ما هو أقوى من الزيت بكثير.

توبوا وآمنوا، واذكروني في سروركم.

بشّروا بابني عمّانوئيل. من بشّر خلُص، ومن لم يُبَشِّر، فإيمانه باطل.

أحبّوا بعضُكم بعضاً.

لا أطلب مالاً يُعطى للكنائس، ولا مالاً يوزّع على الفقراء، أطلبُ المحبّة. الذين يوزّعون مالهم على الفقراء والكنائس، وليس فيهم محبّة، فهم ليسوا بشيء

سأزورُ البيوتَ أكثر، لأنّ الذين يذهبون الى الكنيسة، أحيانًا لا يذهبون للصلاة.

أنا لا أطلبُ أن تشيّدوا لي كنيسة، بل مزارًا.

أعطوا. لا تحرموا أحدًا ممّن يطلبون النجدة».

إنّه منهاج كامل: الله، الله معنا.

توبوا الى الله، فهو معنا.

شئنا أم أبينا، إنّه معنا.

إنّه العمانوئيل.

ثمّ إنّ ما يدمغ الإنسان هو معرفته

والإنسان، باسم المعرفة، غالبًا ما توهَّمَ أنّه في غنى عن الله، وها هي ذي العذراء تؤكّد لنا أنّنا، فعلاً، نعرف،

لا بل نظنّ أنّنا نعرف كلّ شيء.

ولكنّنا، في واقع الأمر، لا نعرف شيئًا.

في ما يتعلّق بالعالم المادّيّ، نحن ندرك أمورًا كثيرة، ولكنّنا ما زلنا نجهل أمورًا كثيرةً أخرى.

بيد أنّنا، في ما يتعلّق بالعالم الآخر، لا نعلم سوى ما كشفه الله لنا، على حدّ قول القدّيس يوحنّا.

ولذلك كرّرت العذراء عبارةً كانت قد قيلتْ لألفيّ سنةٍ خلتْ: «سيأتي اليوم الذي فيه تعرفون كلّ شيء، مثل معرفة الله لي». هذا ما كان قاله القدّيس بولس (١ كو ١٣ : ١٢). وإذن، فاكتمال معرفتنا إنّما سيتحقّق في العالم الآخر.

ثالثًا: ما الذي يتعيّن علينا عمله، في هذه الدنيا؟

قابلوا فاعلي الشرّ بفعل الخير.

الشرّ مُنتشر في العالم كلّه.

ولئن كان ثمّة ما يُميّز المسيحيّ، فهو أنّه، على حدّ قول القدّيس بولس (روما ١٢ : ٢١) بالخير يقهر الشرّ.

وها هي ذي العذراء تقول لنا: «إفعلوا الخير لفاعلي الشرّ، ولا تعاملوا أحدًا بالسوء».

قد نجد ألوف المبرّرات لإلحاق الضرر بالآخرين، ولكن العذراء تنذرنا: «كفى، لا إضرار بأحد».

«أعطيتكم زيتًا، وسأُعطيكم ما هو أقوى من الزيت بكثير».

وفي الواقع، قد اتّضح لنا، فيما بعد، أنّ الزيت لم يكن سوى طُعْم، كذاك الذي في طرف الشصّ يجتذب السمكة. ولقد اصطادنا به الله، كي يقودنا، بتؤدةٍ، الى ما هو أجمل بكثير.

فهو كان من وراء الزيت.

هو، حبّه، حضوره معنا.

وعاقبة هذا الحبّ وذاك الحضور: المحبّة التي يجب أن نتبادلها فيما بيننا.

ولا تلبث العذراء أن تؤكّد على التوبة: «توبوا، وآمنوا».

ففي سبيل مواجهة الله، لا بدّ من التوبة

«آمنوا، واذكروني في سروركم».

قولٌ بعيد المرمى، فالمرء، عمومًا، لا يفزع الى الله، إلاّ عندما ينتابه ضيق، ويستبدّ به الاضطراب.

أمّا في سروره، فلا يحفل بالله

ولكن «اذكروني في سروركم».

فإن نحن، حقًّا، ذكرنا الله في سرورنا، غدا فرحُنا مختلفًا عن ذاك الذي يُتيح لنا العالم أن ننعم به، بات أوفر نقاءً، وسلامةً، وتحريرًا، ودفعًا الى المحبّة.

العذراء، إذن، لا تتوخّى مجرّد ذكرى خاطفة.

فعندنا، ذكر الله هو، في المقام الأوّل، التفكير فيه وتمجيده، والإشادة بعظمته وحبّه.

هو العيش في حضوره.

ثمّ إنّ العذراء، بعد دعوتنا الى العودة الى الله، والى الاتّضاع في مجال المعرفة، والى واجب عمل الخير، والإقلاع عن الشرّ، بعد دعوتنا الى التوبة والإيمان، وذكر الله في سرورنا،

تُعيد الى أذهاننا أمرًا جوهريًّا: «بَشّروا، بشّروا بابني عمّانوئيل».

وتُضيف: «من بشّر خلص، ومن لم يُبشّر فإيمانه باطل».

فبشارتي اليوم أن أشهد ليسوع المصلوب، أين وأنّى كنت.

ثمّة موجةٌ من الإلحاد والتعصُّب تجتاح المنطقة. فالشباب يجنح أكثرَ فأكثرَ نحو الإلحاد أو نحوَ التزمُّت الدّينيّ الذي لا مُبرِّر له.

لقد عاشت كنيستنا على مواقع مكتسبة. أفهي تفقدها الآن شيئًا فشيئًا؟ ربّما. ربّما إن فكرة الإيمان بالاله الواحد صارت موضوعًا ملتبسًا، ونكاد نقول انها مشوَّهة.

فبشارتي تقوم، أقلّه، على استعادة مواقعي المُهدَّدة والمُهشَّمة.

وتُذكِّرنا عبارة العذراء بما قاله لنا يسوع لألفَيْ سنة خلتْ: «اذهبوا وبشّروا».

فمبرِّر وجودي كمسيحيٍّ هو أن أعيش مسيحيَّتي كاملة إذا أمكن، في عالم يتأرجح بين الإلحاد والإيمان، بين التعصُّب والتحلُّل من القيم الاخلاقيّة.

وفورًا، بعد ذلك، تدعونا العذراء الى المحبّة المتبادلة: «أحبّوا بعضكم بعضاً».

إنّها لم تحدّد «أنتم المسيحيّين»، بل اقتصرتْ على القول: «أحبّوا بعضكم بعضاً».

ثمّ تتعرّض، في الحال، لقضيّةٍ ما انفكّت سبب أوصاب الكنيسة منذ ألفي سنة حتى الآن، ألا وهي المال.

فالعذراء، منذ رسالتها الأُولى تقول: «لا أطلب مالاً... أطلب المحبّة».

غالبًا ما يكون المالُ بابًا للهروب، ومبرّرًا لضربٍ من الزَّوَغان بعيدًا عن الله، بحيث نمنُّ عليه ببعض مالٍ، ونواصل حياتنا على هوانا.

ولكنَّ العذراء تقول: «لا، دعوا المال جانبًا».

وفي هذا المضمار، نرى كيف استجاب نقولا وميرنا لطلب العذراء، بفضل حسّهما البسيط بالمجانيّة، حسٍّ كان تلقائيًّا منذ مستهلّ الظاهرة، وما حادا عنه قطّ، حتّى الآن، برفضهما القاطع المطلق لكلّ ما يُسمّى مالاً.

«أطلب المحبّة».

فالله محبّة، ولا يتوخّى شيئًا سوى المحبّة.

والعذراء القدّيسة، أُمّ الله، وأُمّ يسوع، لا تريد سوى المحبّة وهذا ما أعلنته لنا منذ منهاجها الأوّل، منذ رسالتها الأولى.

ثمّ قالت العذراء: «سأزور البيوت أكثر».

من يحبّ هو الذي يزور الآخر.

من يحبّ يتعرّف الى الآخر، يزوره، يواسيه.

فبالتجسّد زار الله الانسان، أحبّه، فأتى إليه وسكن فيه.

وها هي ذي العذراء ما برحتْ تُحبُّ البشَر.

أوليستْ أُمّ يسوع؟

ها هي ذي تزورنا وتعيش بيننا.

هذه العبارة استَغْلقتْ على أفهامنا، بادئ الأمر. فكيف ستزورنا العذراء؟

ولكن، مذ شرع الزيت يرشح من صُوَرٍ عديدة، مأخوذة عن إيقونة الصوفانيّة، في بيوت مسيحيّين ومسلمين في دمشق، ثمّ في كلّ مكانٍ تقريبًا؛ ومذ أخذ الناس يُصَلّون أمام الصورة التي ظلفروا بها، منذئذٍ تبيّن لنا، حقًّا، أنّ العذراء قد بدأتْ تزورنا على نحو ملموس.

فالله لا يُلقي الكلام على عواهنه.

ثمَّ إنّ العذراء قد ارتأت أنّ خطرًا جسيمًا سيكمن في محاولة إشادة كنيسةٍ فخمة، على نحو ما يجري في كلّ مكان، إذ قد يؤدّي ذلك الى الاهتمام بالحصول على المال للبناء، وإغفال الإنسان، الذي هو هيكل الله، والذي يعلو، في نظر الله، على كلّ مادّيّ.

ولذلك قالت لنا العذراء: «أنا لا أطلب أن تشيّدوا لي كنيسةً، بل مزارًا».

وفي أحد الانخطافات أوضحت أنّ إشادة مكان الصلاة هذا سيتمّ بانتزاع حجر من قوس باب البيت الخارجيّ، وبوضع إيقونة العذراء مكانه، مع كلمة شكرٍ ليسوع. وهذا ما تمّ فعلاً، وقد أغلق ذلك الحيّز الصغير بواجهةٍ زجاجيّة، وأودع فيه سراجٌ صغير، يظلّ موقدًا ليلَ نهار، بحيث غالبًا ما يتوقّف المارّة، فيُصلّون أمام تلك الإيقونة، بل إنّهم أحيانًا، يركعون، للصلاة، على الرصيف. وكثيرًا ما شاهدتُ بنفسي، أُناسًا جاثين على الرصيف، ومنهم شبّان، كانوا مارّين، ليلاً، ووجدوا باب البيت مغلقًا. لقد كانوا يصلّون، راكعين، على الرصيف. لقد صار الرصيف المجاور لبيت العذراء، هو أيضاً، مكانًا للصلاة.

وتنهي العذراء رسالتها بالقول: «أعطوا. لا تحرموا أحدًا ممّن يطلبون النجدة».

إنّ الله عطاءٌ، وإنْ لم يكن عطاءً، فما عساه يكون؟ ولا بدّ للمرء أن يُعطي كي يكون حقًّا ابن الله.

وهذا ما أدركَته ميرنا ونقولا منذ اللّحظة الأُولى. فأبواب بيتها مفتوحة باستمرار، ولا يرفضان سؤالاً. فإذا ما أتى طارق في أيّة ساعة من الليل، يفتحان ويهبان ما يستطيعان إعطاءه. يهبان ترحيبها في صبرٍ وبسمة مُذهلَيْن، وفي امّحاءٍ تامّ

لا ادّعاء فيه ولا أثر للكبرياء. يقودان الزائر الى الإيقونة ويتواريان. فالعذراء هي صاحبة البيت.

ترون، إذن، أنّه، حتّى منذ هٰذه الرسالة الأُولى، يبرز منهاج ينطوي، في نظري، على مغزى أحداث الصوفانيّة. بالطبع، توالت، بعد ذلك، الرسائل، وكانت تجسيدًا لهذا المغزى: فيسوع يطالب بوحدة كنسيته، والعذراء تطالب بوحدة جسد ابنها، وذلك في عباراتٍ مؤثّرة.

كان الربّ يذكّر أنّه صُلب حبًّا بالبشر، ويطلب من المؤمنين أن يحملوا صليبه، في صبرٍ وحبّ. وقد أكّد أنْ لا خلاص في معزلٍ عن الصليب، وأنّ الكنيسة هي ملكوته على الأرض. هذه الكنيسة، أيّةً كانت، بكلّ سلبيّاتها وإيجابيّاتها، إنّما هي ملكوته على الأرض.

لقد تقبّل الربّ الإنسان، على علاّته، وجعل منه هيكلاً له، وبهذه العجينة البشريّة بنى كنيسته، وقال لها: «إحمليني الى البشر أجمعين، عبر جميع الأزمنة».

وعندما قال الربّ، بلسان العذراء القدّيسة، أوّلاً، ثمّ بنفسه، كرّتين متتاليتَيْن: «الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض، من قسمّها فقد أخطأ، ومن فرح بتقسيمها فقد أخطأ»،

بقوله هذا كان يعيد الى أذهاننا أمرًا جوهريًّا: وهو أنّ الكنيسة هي ملكوت الله، هي الله ذاته، حاضرًا على الأرض.

وفي هذا يكمن أحد معاني الصوفانيّة.

قبل التصدّي للرسالة الثانية، أودّ أن أُضيف شيئًا بخصوص المقطع الثاني من رسالة العذراء الأولى حيث قالت: «أنتم تعرفون كلّ شيء ولا تعرفون شيئًا. معرفتكم معرفة ناقصة».

وأودّ أن أُشير بهٰذا الشأن الى ما يلي:

تعترف العذراء بأنّ الإنسان يملك بعضاً من العلم، بعضاً من المعرفة. والمعرفة تشرّف الإنسان، لأنّها لا بُدَّ وأن تفضي به، في نهاية المطاف، إذا كان مخلصاً لرسالة المعرفة، الى الله تعالى، مصدر كلّ علمٍ ومعرفة.

وتضيف، في بساطةٍ متناهية: «كونوا متواضعين في معرفتكم، فمها عرفتم، أنتم، في حقيقة الأمر، لا تعرفون شيئًا»، ولا سيّمَا فيا يتعلّق بالآخرة.

وفي الواقع، ماذا نعرف نحن؟

عندما تتناهى إليّ ترّهات، على ألسنة لاهوتيّين، أو من خلال مؤلّفاتهم، تدّعي أن لا وجود لإبليس أو للملائكة، وعندما يخبرني شبّان: «الكاهن الفلاني قال لنا كذا» أجيب: «ولكن من ذا الذي كان في العالم الآخر، فيكون أهلاً ليؤكّد ما فيه، مَنْ، خلا يسوع؟»

إنّ مرجع معرفتنا، نحن، هو يسوع.

الإنجيل يُطلعنا، ونحن نعلم أنّ ما من إنسان عاد من العالم الآخر كي يكشف لنا عمّا فيه، سوى يسوع.

وهو قد علّمنا بعض الأمور.

وليس من شأن ذهننا الواهن أن يبتّ في أمرها.

ان يسوعًا يكشف لنا في رسائله بعضاً ممّا نجهل، وما سنعرفه يومًا، كما تعدنا العذراء، على حدّ ما سبق للقدّيس بولس أن وعدنا، بأنّ معرفتنا ستكون كمعرفة الله: «ستعرفون كلّ شيء، مثل معرفة الله لي».

إنّه وعدٌ بترقية الإنسان الى مقام يستعصي على كلّ تخيُّل.

إنّ الله يعدنا بأنّنا سنعظم جدًّا، لأنّه، هو، في منتهى العظمة، وقادر أن يعظّمنا.

ولن يكون لنا أيُّ دورٍ في بلوغ هذه العظمة، إطلاقًا.

ومن ثمّ تدعونا العذراء الى التماس المعرفة، والتوغّل فيها، على أن نظلّ، في التماسها، متواضعين، ومُقرّين بأنّ الحقيقة الكاملة تكمن في الله وحده، وأنّه، وحده، قادرٌ على منحنا تلك المعرفة.

وأنّه سيهبنا إيّاها كاملة، عندما نفضي الى «الجانب الآخر» إن صحّ التعبير.

ولكن، ما دمنا هنا يقول لنا: «اجتهدوا، كثّفوا معارفكم، ولكن اعلموا أنّكم ستظلّون، أبدًا، دون المعرفة الكاملة».

إنّ ذلك ينطبق، بخاصّة، علينا نحن العرب، فقد عانينا كثيرًا في السابق، ونُعاني اليوم من هيمنةٍ في جميع المجالات، بحيث خُيّل إلينا، في وقتٍ ما، أن لا خلاص لنا إلاّ في العلم، وما برح الكثيرون يذهبون، في تفكيرهم، هذا المذهب، لقناعتهم بأنْ لا وجودَ لشيءٍ خارج العلم؛ ومن ثمَّ فهم يقولون، في أنفسهم: فلندّخر علمًا، ولنزدد معرفةً، فنحلّ جميع مشكلاتنا.

ولكن ليس هذا هو السبيل لحلّ مشكلاتنا جميعها.

لا.

فلنحذرْ من تنصيب العلم إلهًا جديدًا.

وحده الله لا إله إلاّ هو.

إن العلم وجهٌ من أوجه هذه المعرفة، يحلّ هو والتِّقْنية العديدَ من مشكلاتنا.

ولكن، أهو طريقنا الى الخلاص، كما يعتقد البعض؟

ولكن البشر قد صاغوا الكثير الكثير من الآلهة، بحيث غالبًا ما انتهوا، للأسف، الى اعتبار الله الحقّ، غير موجود، أو عدّوه، الى حدٍّ ما، إلهًا آخر، كواحدٍ من آلهة العلم، وآلهة التقنية.

وحاشا لله أن يكون كذلك.

ولذلك تستهلّ العذراء رسالتها بالقول: «أُذكروا الله»

وليس ذكر الله مجرّد تذكّر وجوده.

بل هو تمجيده، والاعتراف به، والاستكانة، بتواضعٍ، إليه، والتماس نعمته، والعيش في حضوره.

٢ – الظهور الثالث: السبت ٨ كانون الثاني ١٩٨٣ الساعة: ١١،٣٧ ليلاً

كانت العذراء تبكي.

قالت لميرنا: «معليش».

فيما كانت ميرنا أيضاً تبكي وهي تصرخ: «العدرا عمتبكي».

أخيرًا انسحبت العذراء، وقبل أن تغيب عن عيني ميرنا، ابتسمت ابتسامة رقيقة.

الظهور الثالث – الرسالة الثانية
السبت ٨ / ١ / ١٩٨٣

تبدو الرسالة الثانية، المبلَّغة أثناء الظهور الثالث، على جانبٍ كبير من الغرابة، وإليكم نصّها:

«كانت العذراء تبكي. قالت لميرنا باللهجة العامّيّة: «معليش».

«معليش»، عبارة تُسمَع كلَّ يوم مئات المرّات. فإذا سئل إنسانٌ في ضيق، «كيف حالك!» أجاب: «معليش»، أي إنّها أزمة وستمرّ فيما كانت ميرنا أيضاً تبكي، وهي تصرخ: «العدرا عمتبكي». «أخيرًا انسحبت العذراء، وقبل أن تغيب عن عيني ميرنا، ابتسمت ابتسامة رقيقة».

هذا ما روته لنا ميرنا. وهي لم تعِ أنّها لدى رؤيتها العذراء كانت تصيح بصوتٍ عالٍ: «العدرا عمتبكي»، فيما كانت هي أيضاً، بدورها، تبكي.

هذه الرسالة تبدو مدهشة.

فلمَ قالت العذراء «معليش»، عشيّة نقل الإيقونة الى الكنيسة؟[1] مع أنّ النقل تمّ بأمر البطريرك هزيم، وبرضى آل نظّور.

كان نقولا راغبًا في ألاّ تنقل الصورة الى الكنيسة الأورثوذكسيّة المجاورة فحسب، بل أن تتنقّل بين مختلف الكنائس، على التوالي. وكنت أنا من أقنعه بالخضوع لرغبة البطريرك، متذرِّعًا بالحجج التالية: «يا نقولا، أوّلاً إنّ الكنيسة هي

(١) بناءً على رغبة البطريركيّة الأُرثوذكسيّة، نُقِلتْ الإيقونة، في احتفالٍ رسميٍّ إلى كنيسة الصليب المقدّس الأُرثوذكسيّة، غداة هذا الظهور الثالث. وبعد فترة وجيزة، أي بعد ظهر يوم الاثنين ٢١ / ٢/ ١٩٨٣، أُعيدت في كتمانٍ تامّ إلى منزل ميرنا ونقولا.

التي تجعلنا نعْرف يسوع ومريم. والكنيسة، فيما يتعلّق بك، هي الكنيسة الأورثوذكسيّة، ممثّلة في البطريرك.

وإذن فما يقال لك باسم السلطة الكنسية، عليك أن تخضع له، كما لو كان صادرًا عن الربّ، إلى أن يثبت العكس.

فالكنيسة هي المكلّفة بوديعة الإنجيل والأسرار ورسالة يسوع إلينا.

وليس لأيٍّ منّا أن يُحدّد عقائده الدينية.

وأردفتُ قائلاً:

«ثانيًا إنَّ مُجرَّد نقل الإيقونة رسميًّا، إلى الكنيسة، وعرضها فيها، يمثّل اعترافًا بالواقع. فهو مكسب لنا تجاه الرأي العامّ.

«ثالثًا سيحرّركم ذلك بعض الشيء، وسيُتيح لكم التقاط أنفاسكم، فمن حقّكم، بعد خمسةٍ وأربعين يومًا قضيتموها، على أقدامكم، واقفين، ليلَ نهار، أن تظفروا بقسطٍ من الراحة.

«رابعًا، ربّما، من خلال إيقونة العذراء، الحاضرة في كنيسة أُرثوذكسيّة، ستنبعث صلاة مسكونيّة، كتلك التي انبعثت من منزلكم».

حيال هذه الحجج الأربع، أعلن نقولا: «كفى، أبتِ، إنّني موافق تمامًا» ونُقلت الصورة.

ولكن عشيّة نقلها، بكت العذراء.

ولم يُطلعني ميرنا ونقولا على تلك الحادثة إلاّ بعد مضيّ عدّة أيّام. وحينئذٍ قلت في نفسي: «الربّ والعذراء يعلمان ما نجهله نحن. فما الذي يُخفيه عنّا المستقبل؟ ألا فلنوكل الأمر للربّ والعذراء، ولنتدرّع بالصبر».

بيد أنّ تفسيرًا جزئيًّا قد أُعطي لنا، من خلال ما جرى، فيما بعد، أي من خلال إعادة الإيقونة الى منزل نقولا وميرنا، طيّ كتمانٍ تامّ، وما واكبه من تحفّظ اعتصمت به البطريركية الأُرثوذكسيّة، حتّى اليوم.

ولكن، في نهاية المطاف، كلّ شيء نعمة.

٣ – الظهور الرابع: الاثنين ٢١ شباط ١٩٨٣ الساعة: ٩،٣٠ ليلاً

أبنائي،

١ – الحكي بيني وبينكن، أنا رجعت لهون.

٢ – لا تشتموا المتكبرّين، عديمي التواضع.

٣ – المتواضع بينعطّش لملاحظات غيره، ليصلح نفسه من الخَلَل.

٤ – أمّا المتكبّر الفاسد، بيهمل، بثور، بعادي.

٥ – المُسامحة أفضل شي.

٦ – يللي بيدّعي البراءة والمحبّة أمام الناس، فهو نجس لدى الله.

٧ – طالبة مِنكن طلب: كلمة بترسخوها ببالكن بتردّدوها دومًا.

٨ – «الله بِخلّصني، يسوع بِنوّرني، الروح القدس حياتي، فأنا لا أخاف».
موهيك يا ابني يوسف؟

٩ – إحملوا، وسامحوا.

١٠ – إحملوا أقلّ بكثير ممّا حَمَلَ الآب.

الظهور الرابع – الرسالة الثالثة

الإثنين ٢١ / ٢ / ١٩٨٣

وأنتهي الآن الى الرسالة الثالثة التي تتمّم الثانية، والتي بُلِّغتْ بُعَيْدَ إعادة الإيقونة الى المنزل بطريقة مُبْهمة.

وكان نقولا قد تصدّى للكاهنين اللَّذَيْن جاءا بها، وقال لهما: «ما الذي فَعَلتْه العذراء حتّى تعاد على هذا النحو المشين؟...» ونشبت ملاسنة عنيفة، ثم انسحب الكاهنان.

وفي هذه الأثناء، كان الأب معلولي قد جاء أيضاً. ولكنّه لدى سماعه أصوات الشجار المنبعثة من الصالون، لبث في فناء الدار، ريثما انصرف الكاهنان، وحينئذٍ روى له نقولا ما جرى. فاستأذنه بالصلاة مع ميرنا، أمام الصورة، وقد تلوا معاً عشراً من المسبحة.

ورَفع الأب معلولي، في سرّه، الدعاء التالي الذي كشف عنه النقاب فيما بعد: «أيَّتها العذراء مريم، أنيرينا لكيلا نخطو خطوات متعثّرة تسيء الى منهاجك».

وبعد قليل رأى ميرنا تخرج، فأنهى صلاته وخرج بدوره، فقيل له: «إنّها على السطح»، فلحق بها، ووجدها راكعة يحيط بها أفراد الأسرة.

وبغتةً سمعها تتلفّظ بعبارات، وكأنّها لا تفعل سوى ترديد ما تسمع. وكانت الرسالة تُبَلَّغ باللهجة العربيّة العامّيّة، وتتألّف من جزئَيْن منفصلَيْن تماماً. وقد

احتفظنا بالجزء الأوّل طيّ الكتمان مدى سنتيْن، فقد كانت قسوة مؤدّاها واضحة، إذا كانت تقول:

«أبنائي

كما ترون، إنّها تستهلّ دائماً بلفظة «أبنائي»

«الحكي بيني وبينكن»، وكأنّها أمٌّ حاضرة تناجي أبناءها

«أنا رجعت لهون

«لا تشتموا المتكبّرين عديمي التواضع

«المتواضع بيتعطّش لملاحظات غيره، ليُصلح نفسه من الخَلَل

«أمّا المتكبّر الفاسد، بيهمل، بثور، بعادي.

«المسامحة أفضل شيء».

مهما تحلّى المرء بالمحبّة، وجهد في التدرُّع بها، وبالتّسامح، لا يسعه إلاّ أن يرى في هذه الأقوال عتابًا مريراً.

ولكنّ فيها، أيضاً، دعوة رائعة من العذراء الى تفادي الثورة، والمهاجمة، والإدانة، بل فيها دعوة الى المسامحة.

أمّا الجزء الثاني، فهو منهاج حياة، وهو أيضاً قد بُلِّغ باللهجة العربيّة العاميّة:

«طالبة منكن طلب»

إنّ الأُسلوب الذي جاءت فيه هذه العبارة يرمي قارئ النصّ في حيرة حيال العذراء، فهي تبدو وكأنّها تتوسّل أبناءها من أجل أمرٍ تودّ أن تراهم يفعلونه!

«طالبة منكن طلب»

وكأنّ مرؤوساً يتوسّل رئيسه.

«كلمة بِتْرسّخوها ببالكن، بتردّدوها دوماً: «الله بخلّصني، يسوع بنوّرني، الروح القدس حياتي، فأنا لا أخاف».

«مو هيك يا ابني يوسف؟»

ثمّة أمران غير اعتياديَّيْن:

أوّلاً الطريقة التي بها تطلب العذراء من أبنائها أن يرسّخوا في أذهانهم فكرة الله لا تخافوا البشر، فالله هو الحياة والنور، ولا تخشوا سواه، فهو الخلاص. وإذن، فلا تَدَعوه يغرب عن بالكم.

الأمر الثاني: «موهيك يا ابني يوسف؟»

لقد حَدَثَ ذلك في نفس الصباح الذي حُظِر عليّ فيه الاستمرار في الاختلاف الى الصوفانيّة؛ وكانت شخصيَّةٌ دينيّة رفيعة قد بلّغتني ذلك الحظر. ويبدو أنّ إشاعاتٍ قد راجت تدّعي أنّ الحكومة قد استخدمتني من أجل حبك قضيّة الصوفانيّة، بحيث تنصرف أذهان الناس عن مشاكل البلد. كان لابدّ من خيالٍ جامح لاكتشاف مثل تلك التخرّصات!

وقد أذعنتُ للأمر بقلبٍ ساكن ومجروح معاً، وأعلمتُ ميرنا ونقولا وأخي الأب يوسف معلولي بأنّني لن آتي، بعدُ، الى الصوفانيّة. وفي ذلك المساء، عندما قالت له العذراء: «مو هيك يا ابني يوسف؟»، أحسّ الأب معلولي أنّه معنيّ على نحوٍ ألصقه بالصوفانيّة بلا فكاك.

وإنّي لاعتبر أنّ هذه الرسالة الموجّهة الى الأب معلولي، قد مثّلتْ منعطفاً في تاريخ الحَدث، فالأب معلولي كاهن يقيم في دمشق منذ عام ١٩٤٠، في منأى عن كلّ شبهة. إنّه رجل يتمتّع بنزاهة واستقامةٍ لم أشهد قطّ مثلها، حقّاً.

ومن جهةٍ أخرى، فالأب معلولي، بالفطرة والتربية، كان دائماً ينفر من كلّ ما هو خارق، وقد عُهِد عنه مقاومته الصلبة للمظاهر «العجائبيّة» المتعدّدة التي حدثت في دمشق منذ عام ١٩٤٠.

بالإضافة الى ذلك، مع أنّي كنت أعرفه من قبل، إلاّ أنّني اكتشفت فيما بعد، أنّه، من حيث ثقافته اللاهوتيّة، يتجاوزني، حقّاً، شأواً بعيداً. ثمّ إنّه يتميّز بخصلةٍ حُرمتُ أنا منها. فأنا، بفضل ذاكرتي المنيعة، لم أكن أُدوّن شيئًا، بل كنت أختزن كلّ شيءٍ في ذاكرتي، أو كنتُ أظنّني أفعل ذلك. ولم ألحظ، آنذاك، أنّني لو اقتصرتُ على ذلك، لكنتُ، بعد فترةٍ من الزمن، قد فقدتُ الكثير من أمور

الصوفانيّة. أمّا الأب معلولي فإنّه، منذ اللحظة الأُولى، قد عُني بتدوين كلّ شيءٍ خطّيًّا، كلّ شيء، وبدقّة متناهية. وهكذا استطاع أن يكوّن مِلَفًّا قال عنه عالم نفسانيّ يُدرّس في جامعات بلجيكا وألمانيا والولايات المتّحدة: «لقد قدّمتُ الملفّ الذي أعدّه الأب معلولي، على أنّه أفضل ملفّ علميّ وقع بين يديّ». وذلك بفضل ملاحظاته التي دوّنها يوماً فيوماً، ودقيقةً فدقيقة، بل ثانية فثانية، وفي تلك الأثناء كنتُ ربّما أضعتُ الكثير.

وبالتالي فإنّ ابتعادي عن الصوفانيّة كان مفيداً لها، لأنّه سبّب حضور الأب معلولي، ذلك الكاهن النادر المثال.

وعندما سألتُه العذراء، من خلال الرسالة: «مو هيك يا ابني يوسف؟» إنّما هي كانت تبلّغه أمراً، لم ندركه آنذاك، إلاّ أنّه فسّره لنا فيما بعد، عندما كشف النقاب عن الصلاة التي تلاها في سرّه، قُبَيْل تبليغ العذراء لتلك الرسالة.

وإذن فرسالة الحادي والعشرين من شباط ١٩٨٣ هي التي ألصقتُ الأب معلولي بالصوفانيّة، وقد كان لحضوره فيها أثرٌ حاسم.

وأُورد، في هذا السياق مثالاً. ففي عام ١٩٨٤، كنت في بوسطن، في الولايات المتحدة، لدى صديقٍ لي من دمشق، هو أنطوان حورانيّة، وهو دكتور في علم الأدوية، وقد قضيتُ في ضيافته يومين. وفي المساء الأوّل دعا نفراً من الأصدقاء الدمشقيّين، مهاجرين شبّان، للأسف استقرّوا في الولايات المتّحدة. وقد أمضوا السهرة كلّها، وحتّى الساعة الثانية صباحاً، يستمعون لي، وأنا أتحدّث عن الصوفانيّة، وهم يُصغون كالأطفال.

وفي مرحلةٍ من حديثي سألني أحدهم، ولم أكن قد عرفتُه في دمشق، إلاّ أنّه كان من تلاميذ الأب معلولي: «أبتِ، هل يوجد كهنةٌ سواك يتابعون أحداث الصوفانيّة!». وقد أدركت مرماه؛ فحيالَ مثل تلك الأحداث الخارقة، قد يتساءل المستمع: «ألا يبالغ المتكلّم، أولا يحيد عن جادّة الصواب! أوَ ليس يروي خرّصات؟» لقد أدركتُ ذلك، فقلتُ له: «أجل، ثمّة الأب معلولي». فبَدَرَ عنه، تلقائيّاً، ردُّ الفعل الصريح التالي: «حسن، إن كان ثمّة الأب معلولي، فكفى»، أي ليس، بعدُ، مجال للريبة.

«إحملوا وسامحوا». دعوةٌ أُخرى الى الصفح والمسامحة.

«إحملوا أقلّ بكثير ممّا حمل الآب!»

إن لفظة «الآب» في العربيّة تعني الله الآب. في لحظتها، لم ندرك مرمى تلك العبارة. ولكن، فيما بعد، ومن خلال رسائل أُخرى، أدركنا ما رمتْ إليه العذراء، استنتاجاً ممّا أشارت إليه أثناء ظهورات لها في السَّاليت ومديوغوري، مثل قولها: «إنّ ذراع الربّ قد أخذت تثقل جدّاً، وإنّني أجد مشقّةً في ردّها».

وفي إحدى رسالتيْ لوس أنجلس، بتاريخ ١٨ / ٨ / ١٩٨٩، قالت العذراء لميرنا: «قولي لأبنائي أن يُكثروا من الصلاة، لأنّهم بحاجة الى الصلاة لإرضاء الآب».

أمّا في ٢١ شباط ١٩٨٣، فقد أفهمتنا أنّ الآب يحتمل الكثير الكثير وأنّنا، مهما احتملنا، نحن، فاحتمالنا لا يُعَدّ شيئًا، بالمقارنة مع ما يحتمل هو، بسببنا.

وهذا يقودنا مباشرة الى رسائل الساليت، ولورد، ومديوغوري، وكلّ مكان، أي إنّ الربّ يدعونا الى الصلاة.

وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٥، قال يسوع لميرنا، ولكن من غير أن يوضّح ما قالته العذراء، أو ما ألمحت إليه ثمّ أوضحته فيما بعد: «إذهبي الى الأرض التي عمّ فيها الفساد، وكوني بسلام الله»

إنّ قوله بأنّ الشرّ قد عمّ، يعني أنّ الربّ غير راضٍ.

٤ – الظهور الخامس: الخميس ٢٤ آذار ١٩٨٣ الساعة: ٩،٣٠ ليلاً

«أبنائي،

١ – مهمّتي انتهت.

٢ – في هذه الليلة، قال لي الملاك: مباركةٌ أنتِ في النساء. ولم أستطعْ أن أقولَ له إلا: «ها أنا أمةُ الرب».

٣ – أنا مسرورة.

٤ – أنا لا أستحق أن أقولَ لكم: مغفورةٌ زلاّتُكم. لكنّ الحي قالَها.

٥ – أسّسوا كنيسة، لم أقل: أبنوا كنيسةً.

٦ – الكنيسةُ التي تبنّاها يسوع، كنيسةٌ واحدة، لأن يسوع واحد.

٧ – الكنيسة هي ملكوتُ السمواتِ على الأرض. مَن قسَّمَها فقد أخطأ. ومَن فَرِح بتقسيمِها، فقد أخطأ.

٨ – بناها يسوع، كانت صغيرة، وعندما كَبُرت انقسمت، ومن قسَّمَها ليس فيهِ محبّة.

٩ – إجمعوا.

١٠ – أقولُ لكم: صلُّوا صلُّوا وصلُّوا.

١١ – ما أجملَ أبنائي راكعين، طالبين.

١٢ – لا تخافوا، أنا معكم.

١٣ – لا تتفرّقوا مثل تفريق الكبار.

١٤ – أنتم ستعلّمون الأجيالَ كلمةَ الوحدة والمحبة والإيمان.

١٥ – صلُّوا لساكني الأرض والسماء.

الظهور الخامس – الرسالة الرابعة

الخميس ٢٤ / ٣ / ١٩٨٣

ونننهي الآن الى رسالة ٢٤ آذار ١٩٨٣.

وهي تتوافق وحَدْساً شعبيًّا كان يتناقله الناس تلقائيّاً، ويرتكز على وحدة الكنيسة، والدعوة الى توحيدها.

كان كثيرون يتساءلون منذ فترة: «ولكن ما الذي تبتغيه العذراء ممّا تفعله؟ ألا تسعى الى توحيدنا؟»

وكانوا ينطلقون من هذا الواقع البسيط: ميرنا هي من طائفة الروم الكاثوليك، أمّا نقولا فمن طائفة الروم الأورثوذكس. ومن ثمَّ كانوا يستنتجون: «ربّما تتوخّى العذراء توحيدنا».

إنّه تفكير بسيط، ذو منطق مذهل. ولكنّه كان حدْساً يتوافق، فعلاً، ومشيئة الربّ.

وأودّ أن أُورد، في هذا السياق، مثال صديق لي من دمشق، هو أديب مصلح، وهو مثقّف، وتاجر، وإكليريكيّ سابق، يحدوه حبٌّ جمّ ليسوع والعذراء. له مؤلّفات عديدة يقوم بنشرها وتوزيعها مجّاناً، قائلاً: «ينبغي أن تطال كلمة الحقّ الجماهير.» وهو كثيراً ما يسافر، وكان قد تلقّى زيارة أصدقاء له إيطاليّين يتقنون الفرنسيّة، وروى لهم ما يحدث في الصوفانيّة، واصطحبهم إليها، فطلبوا منه مقالاً حول ذلك الحَدَث.

وقد عقد مقالاً من تسع صفحات، باللغة الفرنسيّة، يحمل تاريخ التاسع من شباط ١٩٨٣. تصوّروا: ٩ شباط، أي فترة طويلة قبل رسالة ٢٤ آذار هذه، ومع ذلك، فقد ختم مقاله بهذا القول: «ولكن، من خلال كلّ ما يجري في الصوفانيّة، وكلّ ما قد يجري مستقبلاً، ألا تسعى العذراء الى توحيد أبنائها؟ لا ريب أنّها لو تمكّنت من توحيدنا، لكانت تلك هي أُعجوبتها الكبرى».

لم تكن العذراء قد تطرّقتْ، في رسائلها السابقة الى الوحدة، إطلاقاً، ولكن كان، ثمّة، حدْس شعبيّ، يشهد عليه ذلك المقال الذي كتبه صديقٌ لي، رأى هو أيضاً، أنّ كلّ تلك العلامات كانت، ربّما، تشير الى إرادةٍ الهيّة بتوحيد الكنيسة.

ولقد كنتُ أنا نفسي، حاضراً لدى تبليغ رسالة ٢٤ آذار، ولا بُدَّ من القول أنَّ ظروف حضوري كانت غير طبيعيّة.

فقد كان ذلك خلال الفترة التي منعتُ فيها من الاختلاف الى الصوفانيّة، وقد خضعتُ لذلك الحظْر.

ولكن مساء ١٨ آذار، هتف لي نقولا قائلاً: «أرجوك، أبونا، تعالَ». وذهبتُ، فإذا بالزيت ينساب من الصورة، ولكن بغزارةٍ فائقة، والناس متراصّون، وكلّهم يصلّون، فرجعت في الغداة، وأبلغت بذلك أسقفي. وفي الغداة، أيضاً، كان الزيت ينساب، وينساب، وينساب، وكنّا نتساءل عن سبب ذلك التدفّق.

وجاءتني ميرنا سائلة: «أبونا، هل من عيدٍ، اليوم؟» أجبتُ: «على علمي، لا». فقالت: «غير ممكن».

في السابق، كان الزيت ينسكب بانتظام، بمناسبة بعض الأعياد، ولاسيّما أعياد يسوع ومريم، ثمّ بمناسبة أعياد بعض القدّيسين. وقد غرب عن بالي أن ١٩ آذار ذاك كان عيد القدّيس يوسف، وأنّه، أيضاً، في الكنيسة البيزنطيّة، عيد عذراء الأكاثستون، وهو عيد جميل جدّاً. كنتُ قد ذهلتُ تماماً عن ذلك، وبالتالي أجبتُ ميرنا: «لا أظنّ أنّ هناك، اليوم، عيداً». فغابت قليلاً ثمّ عادتْ وبيدها وُرَيْقةٌ انتزعتها من روزنامة، وهي تقول: «ولكن انظر، أبونا. إنّه عيد القدّيس يوسف، وعيد العذراء، اليوم، عيد الأكاثستون». فقلت: «آه، هو، أيضاً، عيد الأب معلولي، إذن».

وكان الأب معلولي هناك. فدنوتُ منه، وقلتُ له: «عيد سعيد! لقد وجدتُ العذراء أُسلوباً رائعاً كي تهنّئكَ بالعيد».

ثمّ انسحبتُ، وفاءً للوعد الذي قطعتُه للبطريرك، ولأُسقفي.

ومساء ٢٤ آذار، كنتُ أحضر مسرحيّة، في قاعة الكنيسة. وكنت قد وعدتُ مُخرجها بحضورها كاملةً، إذ كانت تلك الحفلة الأخيرة التي تُقدّم فيها. وأنا لي تجربةٌ موسيقيّة ومسرحيّة؛ وقد أَلّفت عدّة مسرحيّات، قامت بنشرها وزارة الثقافة، وقد مُثّلتْ في سوريّة وخارجَها. كنتُ، إذن، هاوي مسرح، وكنتُ، في تلك الليلة أحضر تلك المسرحيّة؛ وفيما كنتُ، أثناء استراحة، أتحادث مع المخرج وأشخاصٍ آخرين، جاء في صديق قائلاً: «أبونا، آل نظّور يريدونك».

وآل نظّور هم نقولا وعائلته. كان بوسعي أن أُجيب الرسول: «حسن، سآتي فيما بعد»، ولا سيّما وأنّني كنتُ قد وعدتُ المخرج بحضور التمثيليّة بكاملها. ولكن لست أدري ما الذي دفعني الى المضيّ في الحال. وتلقائيّاً التفتُّ نحو المُخرج واستأذنته: «سأغيب ربع ساعة ثمّ أعود». وانطلقتُ في سيّارة الصديق الذي جاء يبلّغني رغبة آل نظّور بالشخوص إليهم.

وفتح لي الباب شقيق نقولا الأكبر، وقال: «إنّهم على السطح»، فصعدتُ، في الحال، إليه. ولحظتُ، في العتمة، بضعة أشخاصٍ راكعين، فجثوتُ في مكانٍ خالٍ، وإذا بي مباشرة خلف ميرنا. ورسمت إشارة الصليب. ثمّ، عقب فترة قصيرة، سمعت ميرنا تردّد عبارات لم تكن، بالتأكيد، هي مصدرها. وإليكم ما كانت تقول:

«أبنائي،

مهمّتي انتهت

في هذه الليلة، قال لي الملاك: مباركة أنتِ في النساء. ولم أستطع أن أقول له إلاّ: ها أنا أمة الربّ

أنا مسرورة.

أنا لا أستحقّ أن أقول لكم: مغفورة زلاّتكم، لكنّ إلهي قالها.

أسّسوا كنيسة. لم أقل: ابنوا كنيسة

الكنيسة التي تبنّاها يسوع، كنيسةٌ واحدة، لأنّ يسوع واحد. الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض. من قسّمها فقد أخطأ. ومن فرح بتقسيمها، فقد أخطأ

بناها يسوع، كانت صغيرة، وعندما كبرت انقسمت؛ ومن قسّمها ليس فيه محبّة

إجمعوا

أقول لكم: صلُّوا، صلُّوا، صلُّوا

ما أجمل أبنائي راكعين، طالبين

لا تخافوا، أنا معكم

لا تتفرّقوا مثل تفريق الكبار

أنتم ستعلّمون الأجيالَ كلمة الوحدة، والمحبّة، والإيمان.

صلّوا لساكني الأرض والسماء»

هو الظهور الخامس، وهي رسالة الظهورات الرابعة.

كما ترون، تقف هنا العذراء موقف الخادمة

وهي، كعهدها، تستهلّ بندائها: «أبنائي»

إنّنا غالبًا ما نجنح الى نسيان أنّنا، حقّاً، أبناء الله والعذراء:

«أبنائي، مهمّتي انتهت».

وكأنّ العذراء قد جاءت كي تؤدّي مهمّةً وتنسحب

وتبقى هي المخلوق الخاضع للخالق

إنّها، مع كلّ العظمة التي أولاها إيّاها الربّ، تعرف حدودها.

إنّ مجرّد التفكير بالأمر يثير الدهشة

وقد أُصبنا، نحن، بالجزع، إذْ خيّل إلينا أنّ ظاهرة الصوفانيّة ربّما أوفت على نهايتها

«مهمّتي انتهت»

فربّما، كما جرى في لورد، حيث ظهرت العذراء لبرناديت، ثمّ غابت. إذن، الآن...

لقد اعترانا الحزن، رغم سعادتنا بتلقّي الرسالة

كان حزننا عميقاً لمجرّد تخيّل أنّ ذلك الجوّ، وتلك الحياة الجديدة التي عشناها مع الله ومريم، ومن خلال مريم، لن يكون لها، بعدُ، وجود

لقد شقّ علينا حتّى التفكير بأنّ كلّ ذلك قد ينتهي،

ومع أنّ الأب معلولي كان ينذرنا بأنّنا نعيش ما يشبه حلماً، أكثر منه واقعاً، كان من الشاقّ علينا تصوّر زوال ذلك الحلم.

وقد جاءت العذراء تذكّرنا بأنّها كانت في مهمّة، وأنّ مهمّتها أوفت على نهايتها بالطبع، ما ينتهي في عيني الله، لا ينتهي بنفس الطريقة، في أعيننا.

لقد أدّت العذراء رسالة، ولكنّها ستؤدّي، أيضاً، رسائل أُخرى. وقد تأكّد ذلك فيما بعد.

«في هذه الليلة، قال لي الملاك: مباركةٌ أنت في النساء»

في بعض نصوص الأناجيل بالعربيّة، هذه العبارة واردة على لسان الملاك، ولكنّها في ترجمات أُخرى حذفت عن لسان الملاك، وبقيت، فقط، على لسان اليصابات. ولذلك، مساء سمعت هذا النصّ هرعت الى الكنيسة كي أتأكّد، من كتاب الأناجيل الذي نستخدمه في القدّاس، إن كانت تلك العبارة واردة على لسان الملاك. وكنتُ نهباً لهاجس. فإن كانت الأناجيل التي بحوزتنا الآن لا تورد تلك العبارة على لسان الملاك، فسيتذرّع البعض بذلك الواقع كي يحتجّوا: «ترون أن ليس صحيحاً أنّ الملاك هو الذي قال ذلك للسّيدة العذراء؛ وإذن، فليست العذراء هي التي تتكلّم»

ترون كيف كان يتوجّب علينا أن نُبحر بين لججٍ عديدة، ونسعى الى استباق كلّ تأويل، وصدّ كلّ اتّهام

«ولم أستطع أن أقول له إلاّ: ها أنا أمة الربّ»

أيُّ تواضعٍ لدى العذراء

أيُّ تواضعٍ وأيّة بساطة

هل كان بوسعها أن تجيب بشيء آخر؟

«لم أستطع أن أقول إلاّ...». لاحظوا تركيب الجملة، ولفظة «إلاّ»

لقد هيمن عليها الشعور بتدفّق نِعَم الله عليها، بحيث عُقِد لسانها، ولم يعد بوسعها أن تقول إلاّ: «ها أنا أمة الربّ».

لا أريد الاستفاضة في التعليق على هذه العبارة، وإنّما أودّ التوقّف عند نقطة واحدة

فكم يجدر بالكنيسة، حالياً، أن تكون، حقّاً، خادمة، وأن تكفّ عن كونها سلطة! كم يخلق بها أن تتمثّل بالعذراء مريم، وأن تُقلع عن كونها سُلطة!

فهي لن تكون، حقّاً، كنيسة، أينما كانت، إلاّ يوم تُصبح خادمة،

وتشرع بخدمة الأصاغر، الأكثر تجرّداً، والأكثر فقراً،

وطالما هي كانت راغبةً في مغازلة السُّلطة، لن يكون بوسعها أن تكون خادمة.

سيكون هناك، أبداً، خُدّام في الكنيسة، لأنّها، هي الملكوت. فهكذا شاء ها الربّ أن تكون

ولكن المؤسَّسة، كمؤسَّسة، قد تتعرّض للتفسّخ والتعفّن، ما لم تغدُ الكنيسة خادمة.

ثمّ إنّ العذراء قد قالت: «أنا مسرورة»

إنّه يسعدنا دائماً أن نسمع من هو أكبر منّا يقول: «أنا مسرور»

وهذا يذكّرني بالكلمة المعزوّة الى نابوليون: «أيّها الجنود، أنا مسرور منكم». لستُ أدري إن هو قالها، حقّاً، أم لا. ولكن كانوا يعلّموننا، أثناء دراستنا لتاريخ

فرنسا، أنّ نابوليون كان يُفلح في استفزاز حميّة آلاف الجنود، بعباراتٍ من نمط: «أيّها الجنود، أنا مسرور منكم»

«أنا مسرورة»

ليس من يتلفّظ بهذا القول أيّة امرأةٍ، أو أيّة جارةٍ، أو أيّة راهبة، بل هي العذراء نفسها التي تقول لنا: «أنا مسرورة»

وإذن، كان قولها اعترافاً بجهدنا المتواضع الساعي الى الصلاة، والى الاستجابة لما كان يقتضيه منّا الربّ.

وفي الواقع، كنّا غالباً حائرين حول ما يتوجّب علينا فعله.

وإذ نذكر الآن بعض المبادرات، وبعض الأقوال، نُقرّ: «إنّه هو الذي كان يقودنا»

إنّ الربّ هو الذي كان يؤازرنا على الإدلاء بقولٍ ما، في حين كان من شأن حماقتنا، وربّما أنانيّتنا أو كبريائنا، دفعنا الى قول وفعل ما هو مناقض تماماً.

إنّه هو الذي وقانا من الانحراف عن جادّة الصواب، ومن الانزلاق، ومن التكبّر، وربّما من إجهاض الرسالة كلّها.

ولا يسعنا سوى الإقرار مجدّداً بأنّه لم يكن لنا في الأمر يدٌ ولا فضل.

«أنا مسرورة!»

ثمّ هي تقول لنا قولاً مدهشاً:

«أنا لا استحقّ أن أقول لكم مغفورةٌ زلّاتكم، ولكن إلهي قالها»

إزاء الله، كلّ إنسانٍ يتمتّع بشيء من التبصُّر يجد نفسه دائماً مذنباً، ومهما حاول التواري والهروب، وتبرير الذات، والتماس تبرير الآخرين، إلاّ أنّه، في أعماقه، يدرك أنّه مذنب.

وهو، حيالَ هذا الشعور بالذنب، في حاجةٍ الى اليقين بأنّه قد نال الصفح وأنّ الذي صفح عنه هو الذي يملك أن يصفح.

قد يصفح الناس، ولكنّهم لا يدركون عمق الجرح فينا،

قد يوهموننا بأنّهم صفحوا،

ولكن حسبُ المرء، حتّى وهو في حالة الوهم، أن يُلقي ولو نظرةً خاطفة على أعماقه كي يتبيّن دائماً أن جرح الخطيئة لا ينفكّ ينزّ.

ومن ثمّ كنّا سعداء بعلمنا أنّنا قد ظفرنا بالغفران، ولو لم نمرّ عبر سرّ التوبة.

قد يبدو هذا النصّ ثغرةً مشرعةً في سرّ التوبة.

إنّ الربّ هو الذي يغفر، ولقد شاء، من خلال الكنيسة، أن يغفر بواسطة سرّ التوبة، ولكنّه لو شاء، كما في الإنجيل، أن يقول: «مغفورةٌ لكم زلّاتكم»، فمن الذي يمنعه؟

وإذن، قد غمرنا الفرح والعزاء لعلمنا بأنّنا قد نلنا الغفران، رغم كلّ أخطائنا، ووهننا، وربّما رغم كلّ حماقاتنا التي ارتكبناها بسبب الصوفانيّة، أو في حقّ الصوفانيّة وليست مريم التي تغفر لنا، بل إلهها.

هي، أمّ الله، تعلم أنّها مخلوقة، وأنّ الله هو أبداً الله، وأن لا إله الا الله.

وإنّه لمدهشٌ سماع العذراء تتكلّم، في مثل تلك البساطة، عن حقائق بذلك العمق وذلك الشمول، وبتلك الخطورة الجوهريّة.

ثمّ ترِدُ عبارةٌ لستُ أُخفي أنّها قد هزّتني، شخصيًّا، هزًّا شديداً:

«أسّسوا كنيسة، لم أقل ابنوا كنيسة»

من المحقّق أنها تعرف حقيقتنا،

تعرفنا بكلّ ما ننطوي عليه من عجزٍ، ووهنٍ، وتعرّضٍ للتجارب

«أسّسوا كنيسة»

للوهلة الأُولى قد يستثير هذا القول ردّ فعل، وقد لا يكفّ يستثير الردّ التالي:

«ولكن الذي يؤسّس الكنيسة هو يسوع،

إنّه المؤسّس الوحيد

وعلى كلّ حال، الكنيسة قد أُسّست

ويسوع هو الذي أسّسها لألفي سنة خَلَتْ

فما شأننا الآن بتأسيس كنيسة؟

وقد يستنتج البعض، وقد حدث ذلك فعلاً: «إذن، ليست مريم هي التي تتكلّم، وليس يسوع من يتكلّم، بل آخر

والآخر هو إبليس،

وإذن، فثمَّةَ انزلاق، ثمَّة انحراف شيطانيّ.

لقد استنتج البعضُ ذلك، وأفضوا الى هذه النتيجة.

ولكن، إن نحن أمعنّا النظر ونحرّينا الحقيقة، لأدركنا كم نظر الربّ أبعد من نظرنا. فنحن لا نرى حتى طَرَفَ أنفنا،

أمّا هو فيرى كلّ شيء.

وعندما قالت العذراء: «أسّسوا كنيسة»، لم تنكر الكنيسة القائمة، إذ إنّها، بعد لحظات أكّدت: «الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض»

والكنيسة، يسوع هو الذي بناها،

ولكنّها انقسمت،

ولأنّها انقسمت،

وما برحت مقسّمة،

فهي عاجزة عن الشهادة، كما ينبغي لها أن تشهد.

وإذن «آمركم، أنتم، أن تعيدوا الكنيسة كما كانت، واحدة، بحيث تكون كنيسة يسوع،

إنّ كنيسة يسوع موجودة، ولكنّكم من التبعثر، والفرقة، والتمزّق بحيث ما عدتم تشكّلون كنيسة»

وفي الواقع، مهما ادّعى البعض، حتى هنا في الغرب، أنّ الكنيسة واحدة، وأنّها كنيسة يسوع،

فلنكن صريحين، وصادقين مع ذواتنا،
قبل أن نكون صادقين مع الربّ والعذراء،
ولنعترف أنّ الكنيسة ليست ما يجب أن تكون.
إنّ الكنيسة الموحّدة، وحدها، قادرة أن تشهد ليسوع،
ولذلك قال يسوع في صلاته، عقب العشاء السرّيّ الأخير:
«فليكونوا واحداً، كي يؤمن العالم».
فبمن يتوجّب على العالم أن يؤمن؟
بمختلف الكنائس الكاثوليكيّة؟
أم بمختلف الكنائس الأرثوذكسيّة؟
أم بمختلف الكنائس البروتستانتية؟
أم بآلاف الشِّيَع التي تَدَّعي التكلُّم باسم يسوع؟
بمن يتوجّب على العالم أن يؤمن؟
وعندما قالت العذراء: «أسّسوا كنيسة. لم أقل ابنوا كنيسة»
أوضحت أنّها لا تريد كنيسة
فهي كانت قد قالت: «لا، لست أُريد كنيسة، بل مكان صلاة»
«أسّسوا كنيسة»
أي تجمّعوا، اسعوا في لمّ شملكم كي تكونوا، أنتم، الكنيسة.
ثم أوضحت العذراء: «الكنيسة التي تبنّاها يسوع، كنيسة واحدة»
وكان بوسعه أن يتبنّى كنيسة من نمطٍ آخر.

وحول لفظة «تبنّاها»، قد تساءلنا إن كانت، حقًّا، هي اللفظة التي استخدمتها العذراء. فأصغَيْنا، مجدّداً، للكاسيت، إذ إنّ الأب معلولي، اعتباراً من ٢١ شباط، كان قد تزوّد بمسجّلة تعمل بالبطاريات، إذ قال: «إذا ما جرت ظهورات أُخرى، ووَرَدَت رسائل أُخرى، فهكذا سنسجّل كلّ شيء»

وبالفعل، سجّل كلّ شيء. وقد أعدنا الاستماع الى التسجيل، وتحقّقنا أنّ العذراء قالت: «الكنيسة التي تبنّاها يسوع كنيسةٌ واحدة»

كان بوسعه تبنّي كنيسة أُخرى، فهو الألف والياء.

بيد أنّ الكنيسة التي تبنّاها واحدة، لأنّه، هو، واحد.

وبالطبع عندما نتكلّم عن تأسيس كنيسة، يجب أن نتّفق على مدلول الألفاظ؛ فالتطلّع الى تأسيس كنيسة يعني إعادة النظر، في كلّ ما يحمل، حالياً، اسم الكنيسة؛ وهذا لا يعني الشكّ في صحّة الكنائس القائمة: فهي، لا ريب، جسد يسوع المسيح، ولكنّها ليست على ما يجب أن تكون.

ولا بدّ لها من استعادة وحدتها لتكون قادرة على الشهادة ليسوع.

وهذا ما أكّدتْهُ العذراء لميرنا، بعد ستّ سنوات ونصف، أي يوم الأحد، السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٨٩، إذ قالت:

«أولادي، قال يسوع لبطرس، أنت الصخرة وعليها سأبني كنيستي

وأقول، أنا، الآن، أنتم القلب الذي سيبني فيه يسوع وحدانيّته»

وإذن، في الحقيقة، ليست الكنيسة حجراً.

وليست هي الكنائس العديدة المتجاورة، الواحدة قرب الأُخرى، هذه كاثولوكيّة، وتلك أورثوذكسيّة، هذه للروم الكاثوليك، وتلك للروم الأورثوذكس، للسريان الكاثوليك، أو للسريان الأورثوذكس.

بل هذه كلّها خلايا للكنيسة التي ينبغي أن تكون واحدة.

وأمّا الكنيسة الحقّة، فهي قلب المؤمنين.

إنّها وحدة جميع المؤمنين، الذين، باتّحاد قلوبهم، عليهم أن يكوّنوا وحدانيّة يسوع.

ولذلك قالت العذراء، في رسالة ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩:

«قال يسوع لبطرس: أنت الصخرة، وعليها سأبني كنيستي

وأقول، أنا، الآن: أنتم القلب الذي سيبني فيه يسوع وحدانيّته»

تريد العذراء أن تتجاوز بنا المؤسَّسة الخارجيّة،

ولكن من غير أن تنكر تلك المؤسَّسة،

وهي تطالب بمؤسَّسة واحدة تُعبِّر عن وحدة القلوب، تلك الوحدة التي ينبغي أن تكون هي الكنيسة الحقّة التي يريدها يسوع، والتي يقتضي حضورها في قلب العالم،

حتى، من خلال هذه الوحدة، يرى البشر يسوع، ويأتوا إليه، ويؤمنوا به وهكذا تتكامل الحلقة.

«بناها يسوع»

ما أعظم هذه العبارة، في بساطتها المتناهية!

«الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض، من قسّمها فقد أخطأ، ومن فرح بتقسيمها فقد أخطأ»

هذا يذكّرني بحادثٍ طريف جرى لي هنا في باريس، لأربع سنوات خلت، عندما دعاني الأب جان مقصود، المدير الحاليّ لمبرّة الشرق الى لقاءٍ مع فريق من مجلّة «شعوب العالم» التي كان لها مديراً آنذاك، كي أُحدّثهم قليلاً عن الصُّوفانيّة. وكانوا، على ما أذكر، ثلاثة عشر أو أربعة عشر شخصاً، وكان بينهم كهنة لم أميّزهم، إذ كانوا يرتدون لباساً علمانيّاً، كما كان بينهم سيّدتان وفتاة.

على مدى ثلاثة أرباع الساعة، حدَّثتُهم بإيجاز عن ظاهرة الصّوفانيّة، بعد أن مهَّدتُ لحديثي بالقول: «أرجوكم أن تضعوا جانباً معاييركم الديكارتيّة، وتحاولوا الاستماع إليّ بصفتي شاهداً لحَدَثٍ سمعتُه ورأيتُه كما أراكم الآن. وبعد ذلك، لكم أن تؤمنوا أو أن ترفضوا»

ثمّ استعرضتُ الحَدَث بإيجاز، وأوردتُ بعض الرسائل، ومنها تلك القائلة: «الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض، من قسّمها أخطأ». ولمّا انتهيتُ، اعترض أحد الكهنة قائلاً: «هذه الرسالة مخالفة للاهوت المجمع الڤاتيكاني الثاني،

لأنّ الكنيسة لا يمكنها أن تكون ملكوت السماوات على الأرض. إنّها ستكون، في السماء، ملكوت الله المكتمل، أمّا على الأرض فلا يمكنها أن تكون كذلك».

وكان، ثمّة، اعتراضات أُخرى؛ فعلى سبيل المثال، اعترض أحدهم على قول يسوع لميرنا: «أُريدك، يا ابنتي، أن تجتهدي بالصلاة، وتحتقري نفسك. فمن احتقر نفسه ازداد قوّةً ورفعةً من الله». وقد ادّعى أنّ مثل هذا القول مرفوض، لأنّ الله لا يمكن أن يقتضي من الإنسان احتقار ذاته. وقد أجبته: «ولكن كلّ روحانيّة الكنيسة، الروحانيّة الشرقيّة، وبالأخصّ روحانيّة الآباء، تدعونا الى امّحاء تامّ أمام عظمة الله»

أمّا ذاك الذي وجد الرسالة التي نحن بصددها مناقضة للاهوت المجمع الڤاتيكاني فقد أجبته: «إسْمعْ، أبتِ، أنا لست لاهوتيّاً، وما جئت الى هنا للجدال، ولكنّني، ذات يوم، سأعطيك جواباً». ويوم رجعتُ الى دمشق، أطلعتُ الأب معلولي على تفاصيل رحلتي، وأوردتُ له، فيما أوردتُ، الاعتراض المذكور، فقال لي: «ولكن العبارة نفسها واردة في أقوال القدّيسيْن أوغوسطينوس وباسيليوس!». فطلبت منه أن يرشدني بدقّة الى المرجع، فقال: «ستجده في كتاب الأب دي لوباك «الكاثوليكيّة». لم أعد أذكر في أيّ صفحة، ولكن إبحث فتجد». وإذ كان ذلك الكتاب في مكتبتي، فقد تصفّحته، في ذلك المساء بالذات، صفحة صفحة، الى أن وقعت على قولَيْن لكلّ من القدّيسيْن أوغوسطينوس وباسيليوس، حيث يؤكّدان حرفيّاً: «الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض»، فصوّرت الصفحة التي تحتوي ذلك القول، وكتبت رسالة الى الأب مقصود قلت فيها: «أرجو تسليم هذا النصّ الى الذي اعترض على هذه العبارة»

ترون، إذن، كيف أنّ مثل هذه العبارات التي تأتينا في بساطةٍ متناهية، قد سبق لآباءٍ كبار مثل القدّيس أوغوسطينوس، والقدّيس باسيليوس أن قالوا مثلها، ويتنطّح الآن بعضهم للادّعاء بأنّها غير سليمة، في حين أنّ العذراء نفسها هي التي قالتها.

إنّنا نعرف شيئًا عن الكنيسة، ولا ريب أنّ الله يعرف الكثير عنها، وعن أوهانها وأوصابها،

ولكن رغم هذه الأوهان والأوصاب الجسيمة،

شاء يسوع أن تكون هي حضوره على الأرض،

وحضور الله على الأرض، هو ملكوت السموات على الأرض.

ومن خلال هذا الحضور، تحقّق الكنيسة، مع كلّ عجزها، تقديسَ العالم ويتجلّى هذا التقديس، وقد بلغ أوج بهائه، في وجه هذا أو ذاك من القدّيسين.

وإذن «الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض. من قسّمها فقد أخطأ»

«من قسّمها»

وما أكثر الذين قسّموها،

وما انفككنا، جميعنا، نقسّمها حتى اليوم.

منذُ فترةٍ جاء في كاهنٌ فرنسيّ أرثوذكسيّ، أو بالحريّ مرتدّ الى الأرثوذكسيّة، وتبادلنا الأحاديث عن الصوفانيّة طيلة ساعتين ونصف الساعة. وكان ذاك أوّل لقاءٍ بيننا.

وفيما كنت أتلو عليه رسائل الصُّوفانيّة، كنتُ ألمح شفتيه تختلجان، وتوقّفتُ، لحظةً، عن الحديث كي أسأله: «هل أنتَ تُصلّي، يا أبتِ؟» فأجاب: «أجل، فهذه الرسائل تعنيني، إنّها حياتي، وإنّي لأشكر للربّ تذكيره إيّانا حقائق على هذا القدر من العظمة، بألفاظٍ على قسطٍ كبير من البساطة»

ثمّ قبل أن يغادر قال: «إنّي أشكرك، على نحوٍ خاصّ، لأنّني، من خلال هذه الرسائل قد تبيّنت أنّني، أنا أيضاً، قد أخطأت، إذ إنّني لم أُصلّ بالقدر الكافي...» وهنا استدرك وأضاف: «... لأنّني لم أُصلِّ مطلقاً من أجل وحدة الكنيسة. من الآن فصاعداً، سأُصلّي من أجل وحدة الكنيسة»

نحن، جميعنا، نحمل وِزْر تقسيم الكنيسة،

و«من قسّمها فقد أخطأ»

ليس من قسّمها في الماضي وَحَسْبُ،

بل من لا يزال، الآن، يقسّمها؛

«ومن فرح بتقسيمها فقد أخطأ»

وإنّني، هنا، أتخيّل أنّ العذراء، الخبيرة بقلوب الناس، تصيب بكلامها كلّ الذين يجدون في تقسيم الكنيسة، وفي دمارها، وفي اضمحلالها، فرحهم وغُنْمهم، وبالتالي، فهي تُصيبُ طائفةً عريضةً من الناس، حاضراً، وماضياً، ومستقبلاً.

سيظلّ هناك من سيفرحون بتقسيم الكنيسة، وقد يتوهّمون أنّهم، بذلك يُحسنون صنعاً، فيمضون قُدُماً في تعميق تقسيم الكنيسة.

والعذراء، هنا، تذكّرنا، جميعاً، بأنّنا مسؤولون،

إنّها، في الحقيقة، تنذرنا: أنتم مسؤولون عن حضور الله فيما بينكم.

الكنيسة هي حضور الله فيما بينكم،

أنتم مسؤولون عن حياة الله،

تأمّلوا الى أين تقودنا العذراء،

فأنا، الكاهن، أنا الإنسان الرازح تحت وقر الوهن، أنا مسؤولٌ عن حياة الله على الأرض!

الى أيّة قمّة من العظمة ترقى بنا العذراء!

ومع ذلك نحن ندرك كم إنّنا صغار وبائسون.

بيد أنّني أكتشف كم الله يريدنا كباراً، رغم عنادنا على أن نظلّ صغاراً

إنّه يريدنا كباراً فوق كلّ كِبَر،

فهو قد جعل منّا أبناء له.

وهذا، بالضبط ما كان القدّيس يوحنّا قد قاله في مطلع إنجيله: إن الله قد جعل البشر أبناء له.

وهذا يذكّرني، أيضاً، بقول القدّيس الرّوسي، سيرافيم الساروفي (SERAFIM DE SAROV) لصديقه موتوڤيلوف، الذي كان قد رأى القدّيس سيرافيم في حالةٍ

من الإشعاع المتوهّج؛ وتذكرون كيف شرع القدّيس بسؤاله عن غاية حياة الإنسان، فعجز موتوڤيلوف عن الإجابة، وأخيراً قال له القدّيس سيرافيم: «الغاية الحقّة للحياة المسيحيّة هي أن نصبح مقرّاً للروح القدس»

وإذن، الغاية القصوى هي أن نصبح أبناء الله، وهيكلاً حيّاً للروح، على حدّ قول القدّيس بولس (روم ٨: ١٦ و ١ كور ٣: ١٦)

شئنا أم أبينا،

وسواء كنّا غارقين في الحمأة، أو جادّين في سُبُل القداسة،

نحن، في نظر الله كبار، كبار جدّاً، بل أكبر ممّا نظنّ.

ولئن كان على الصوفانيّة أن تقول لنا شيئاً، فهو أن تذكّرنا بعظمتنا الجوهريّة.

ثمّ إنّ العذراء توجّه إلينا أمراً مدهشاً: «إجمعوا»

ولكن، أيّتها العذراء مريم كيف لي، أنا العاجز حتّى عن جمع شتات نفسي، كيف لي أن أجمع الآخرين؟

في الأُسرة الواحدة كم من فرقة بين الزوج والزوجة والأبناء!

وفي المجتمع تصدّعٌ شامل، حتى في الشرق العربيّ،

فكيف نستطيع أن نجمع؟

كيف، أيّتها العذراء مريم، يمكننا أن نجمع إلاّ بالتجائنا الى الربّ؟

ونحن نعلم أنّ الربّ، عندما يأمر، يهيئ السبُل لتنفيذ أمره.

على حدّ قول القدّيس أوغوسطينوس: «أعطِنا، ربّ، ما تأمرنا به».

الربّ لا يأمرنا بالمستحيل،

وما يبدو لنا مستحيلاً، عندما يأمرنا به الربّ،

يهبنا نعمة تنفيذه،

يا للروعة!

مرّةً أُخرى، إن الله يعظّمنا،

ووسط واقع فرقة الكنائس،

وسط واقع تمزّق الكنائس،

تأتينا هذه الدعوة من العذراء: «إجمعوا»

إنّه، أيضاً، رسالة تعظيم لنا وللآخرين، هذا الجهد في توحيد الكنيسة، حتّى ولو بدا لنا هذا الهدف، في الوقت الراهن، متعذّراً.

إنّ هذا يذكّرني بصديقٍ لي، في دمشق، كان، عام ١٩٨٨، قد ألحّ إلحاحاً شديداً من أجل تكوين فريق عمل يحقّق خطواتٍ عمليّة، من شأنها أن تقودنا على درب وحدة الكنيسة، وأؤكّد لكم، أنّني، صراحة، لم أكن أستشفّ أيّ عمل ممكن سوى الصلاة، وكانت خبرتي الشخصيّة تمضي في نفس الاتّجاه، ولا سيّما وإنّنا قد اصطدمنا، مئاتِ المرّات، بحواجز بشريّة قد يستحيل تجاوزها، إن لم أقل أنّه، حقّاً، يستحيل تخطّيها.

ولكن عندما اقتضى فريق العمل ذاك جهداً عمليّاً ملموساً في سبيل الوحدة التي طالبتنا بها العذراء، عزمنا على محاولة التجمّع والتفكير معاً، وحينئذٍ جاءتنا رسالة، بمناسبة الذكرى السنويّة السادسة للصوفانيّة في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٨، إذ قال يسوع لميرنا، ولنا، من خلال ميرنا:

«أبنائي،

هل كلّ ما تفعلونه هو حبٌّ بي؟

لا تقولوا: ماذا أفعل؟ لأنّ هذا عملي

عليكم بالصوم والصلاة، لأنّكم بالصلاة تواجهون حقيقتي، وتجابهون كلّ الضربات»

هذه الرسالة كانت لنا بمثابة وحي؛

فقد نعتقد أنّنا قادرون على اكتشاف ما يمكن عمله،

ولا ريب أنّ، ثمّة، ما يمكن عمله،

ولكن، في الواقع، في معزلٍ عن الصلاة الكفيلة بوضعنا في مواجهة الربّ، وفي مواجهة وهننا،

والتي تُعدّنا، جذريًّا، للتحوّل الروحيّ الكفيل بتحقيق اتّحادنا بالربّ، وتجعلنا خليّةً حيّةً في جسد يسوع الموحّد.

في معزلٍ عن تلك الصلاة المدعّمة بالصوم،

يحقّ لنا التساؤل عمّا يمكننا القيام به من خطواتٍ ملموسة، في الشرق العربيّ.

لقد كانت لنا تلك الرسالة وحياً، وقد دَفَعَتْنا الى مزيدٍ من الصلاة، والى ممارسة الصوم ممارسةً حَدَتْ بالبعض الى الصوم، على نحو ما طلبت العذراء في مديوغوري – فالأحداث تتلاقى وتترابط – أي الى الصوم على الخبز والماء يومي الأربعاء والجمعة.

وإذن، فعندما قالت العذراء: «إجمعوا، أقول لكم: صلّوا، صلّوا، صلّوا» فهي، بمجرّد عبارة «إجمعوا»، بالدعوة الى الصلاة ثلاثاً، كأنّها تقول لنا: «لا تتذرّعوا بشيءٍ آخر غير الصلاة، فبالصلاة تظفرون بالله، ومع الله تقدرون على كلّ شيء».

وكلّ محاولة، خلافَ ذلك، إنّما هي خداعٌ للذات، ومحاولة تهرُّب

وقد نُقْدِمُ عليها بإخلاص، وبأطيب النوايا، ولكنّها قد تُفضي بنا الى ضلال السبيل، والى السلوك على نقيض مشيئة الله.

ولذلك، عقب قولها: «صلّوا، صلّوا، صلّوا»

تتابع العذراء: «ما أجمل أبنائي راكعين، طالبين!»

إنّني، شخصيًّا، غالباً ما أعود، مساءً، الى غرفتي، منهكاً حتّى الإعياء، ولا رغبة لديّ سوى رسم إشارة الصليب والاستلقاء وأنا أتمتم: «يا ربّ، إنّني استسلم بين يديك»، ولكنّني أذكر عبارة العذراء هذه، فأقول: «حسن، سأركع، لو ثانيةً واحدة، كي أُرضيها، ولو هذه الثانية»، وبالطبع، تطول الثانية وتمتدّ، إذ يجول بخاطري: «كم من الحزن يكمن في قلب العذراء، بحيث يتوجّب علينا أن نوفّر لها بعض الفرح. وبما أنّها قد أسرّت لنا أنّها تسعد برؤيتنا راكعين مُصلّين، فلنقدّم لها هذه الفرحة»

وإن كان ذلك يحدث لي، فأنا موقن بأنّ آلاف الآخرين ممّن اطّلعوا على تلك الرسالة، يتذكّرون، أيضاً، عبارة العذراء، وأنّ هذه العبارة تدعوهم، بين فينة وفينة، الى إرضاء مريم بركوعهم؛

وعندما يجثو المرء أمام الله، أشياء كثيرة تضمحلّ،

فنحن، في الواقع، نركع أمام العديد من البشر،

ونركع أمام كلّ شيء، ولكنّنا لا نركع أمام الله.

وقد حان لنا أن نركع أمام الله،

وأن ننتصب واقفين أمام كلّ شيء،

وضدّ كلّ شيء، إذا اقتضى الأمر،

ولكن مع الله،

فهو، وحده، يحرّرنا.

ولذلك هو قال: «لا تخافوا، أنا معكم، لا تخافوا!»

مع أنّ دواعي الخوف كثيرة، صدّقوني.

فقد جاءت الصوفانية في وقت لم تكن فيه أوضاع سورية قد استقرّتْ بعد تماماً. فالمنطقة برمّتها تمزّقها، منذ زمن طويل، الصراعات الطائفية والعرقيّة والإثنيّة وما شاكل. تظهر وتختفي. وقد تتفاقم. فالحرب الاهلية في لبنان وبروز ايران الخميني وحربا الخليج، كلّها كانت مصدر انقسامات من كلّ الأنواع. والانقسامات هذه تغذّي التعصّب الذي قد يذهب الى حدّ الشقاق بين إخوةٍ كانوا متلاحمين لزمن قريب.

في تلك الأيّام، ظهرت العذراء لتقول:

«لا تخافوا، أنا معكم».

اجل، لقد ردّتنا العذراء، وتردّنا باستمرار، الى مصدر كل طمأنينةٍ وثقةٍ وشُعورٍ بالسلام الداخليّ. فالارتباطات السياسيّة والاقتصاديّة مع أولي الامر، قد تكون

معرَّضة دوماً للانهيار. أمّا اللجوء الى الله، فتلك هي «العروة الوثقى». ومعها السلام الحقّ.

رغم الظروف، المحيقة بنا، التي قد تكون حافلةً بالمخاطر، والشدّة، وعدم الاستقرار،

إنّه، وحدَه، قادرٌ على منحنا السلام.

العذراء قالت لنا: «لا تخافوا، أنا معكم»

وقد لمسنا لمس اليد أنّها، حقًّا، كانت معنا،

لقد كانت معنا في الصوفانيّة.

وأظنّ أنّ كُلاًّ منّا، عندما يُنعم النظر في حقيقة ذاته، ويستعرض حياته، لا بدّ له من الإقرار: «لقد كان الربّ معي، ولو لم أُدرك وجوده»

وهذا ما أكّده يسوع من خلال الرسالة التي بلّغها الى ميرنا في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٨ بقوله: «صلّوا من أجل الذين نسوا وعدهم لي، لأنّهم سيقولون: لماذا لم أشعر بك، يا ربّ، وأنتَ كنتَ معي؟»

فنحن غالباً ما نجنح الى إغفال الربّ، ولكنّه، هو، أبداً لا يغفل عنّا.

وهذا يذكّرني بقول النبّي: «أتنسى المرأة رضيعها، فلا ترحم ابن بطنها؟ وحتّى لو نسيت النساء، فأنا لا أنساك» (أش ٤٩: ١٥)

وها هي العذراء تقول: «ما أجمل أبنائي راكعين، طالبين. لا تخافوا، أنا معكم»

من يقول لنا: «لا تخافوا، أنا معكم»، ليس أيُّ إنسان، وأيُّ نكرة، بل هي أمُّ الربّ، وقد دعّمت قولها بالبراهين الراهنة الملموسة، منذ تسع سنوات،

ففي الصوفانيّة، لم يحدث سوى الفرح، والإيمان، والسعادة والمحبّة.

وإذن «لا تخافوا»

لقد كانت العذراء تعلم أنّنا قد نخاف،

قد نخاف، بشريًّا، بالطبع،

ولكنَّ الله، هو أيضاً، يُخيف،

والتعامل معه ليس دائماً ممتعاً، عذب المذاق.

إنّنا نعلم ذلك من خلال شخصيّات مدهشة في العهد العتيق والعهد الجديد، فمن يرى الله لا يقوى على العيش،

ومع الله يتحتّم الموت،

يتحتّم الموت حقًّا، عن كلّ الذات،

من أجل حياةٍ جديدةٍ معه.

والموت أمرٌ مخيف.

هناك، إذن، مع الله، خوفٌ فعليّ،

ومع الله لا بدّ من التحوّل،

ونحن لا نحبّ أن نتغيّر، لأنّنا ننعم باستقرارنا.

وهذا ما يحملني على القول، أحياناً، أنّ كثيرين ممّن يرفضون الصوفانيّة، رغم كلّ الإشارات التي صدرت عنها، إنّما يرفضون لأنّهم يخشون التغيير الذي قد يقتضيه منهم الله، يوم يتبيّنون حضوره في ظاهرة الصوفانيّة

وبقولي هذا، لست أدين نوايا أحد،

فالله، وحده، يعلم ما في الضمائر، وهو وحده الديّان.

غير أنّني أتجاسر على تأكيد واقع: وهو أنّ الإنسان يحبّ الاستقرار، ويمقت التغيير،

والتغيير الأكبر يتعيّن عندما يغزو الله الإنسان، ولا يَدَع له شيئًا.

وتُنهي العذراءُ رسالتَها بعبارات ثلاث؛ أولاها:

«لا تتفرّقوا مثل تفريق الكبار»

وهل من كبيرٍ أمام الله؟

إنّ العذراء تستخدم ألفاظنا:

الكبار، في نظرنا، هم المسؤولون، وأحياناً الأغنياء، هم عظماء العالم، ولكنّنا، جميعنا، في نظر الله، هناتٌ صغيرة، وعَدَم.

ولئن كانت هي، أُمُّ الله، قد وصفت نفسها بالخادمة، فما البشر، أيًّا كانوا، ومهما امتلكوا من سلطانٍ، وثروةٍ، وعلم؟

ولكنّ العذراء مريم تستخدم ألفاظنا فتقول: «لا تتفرّقوا مثل تفريق الكبار»

وما سبب تفرّق الكبار؟

مصالح ليس لها بالله شأن!

ثمّ، بغتةً، تقول لنا العذراء قولاً لن يكفّ يسوع يؤكّده فيما بعد:

«أنتم ستعلّمون الأجيال كلمة الوحدة والمحبّة والإيمان»

لم تقل العذراء «كلمات» بل «كلمة»

«أنتم ستعلّمون»

عندما سمعتُ ذلك، وأجلْتُه في خاطري، عاودني، في الحال، قول يسوع: «أنا نور العالم» و «أنتم نور العالم»

وتخيّلتُ الرُّسُل يتساءلون فيما بينهم:

«أنحن نور العالم؟

ولكن من نحن كي نكون نور العالم؟»

ونحن أيضاً، من نحن، حتّى نعلّم الأجيال؟

فنحن لم نكد نعلّم أنفسنا سوى النزر اليسير،

أمّا تعليم الأجيال فمهمّةٌ تتخطّى طاقاتنا شأواً بعيداً،

ومع ذلك، فحسبنا هذا القول كي نستخلص أنّ الربّ معنا،

وأنّه هو الذي سيتولّى تعليم الأمم من خلال صغاراتنا، وعجزنا، وذهننا الواهن.

«كلمة»: إنّه لهامّ جدّاً التنويه أنّ مريم العذراء ويسوع قد استخدما، ثلاث مرّات، هذه العبارة:

«أنتم ستعلّمون الأجيال كلمة الوحدة، والمحبّة، والإيمان»

لقد ألفنا، نحن البشر، كي نفهم الأشياء، أن نشرّحها، وأن نفصّل الكلمات والخواطر.

أمّا مريم ويسوع، فهما، هنا، يجمعان كلّ شيء.

ولو نحن أعملنا الفكر قليلاً، لتبيّن لنا أنّهما محقّان تماماً، إن جاز لنا مثل هذا التعبير.

فهل من وحدةٍ لا تقوم على المحبّة؟

وحدها المحبّة توحّد،

والمحبّة هي الثقة في من يحبّنا،

أي هي الإيمان به.

عندما أُدرك أنّ الربّ يحبّني،

وأُوقن، حقًّا، أنّه يحبّني،

فبفضل يقيني بحبّه،

أظلُّ في تماسك مع نفسي،

أظلُّ متّحداً في ذاتي،

وهكذا أتبيّن الوحدة التامّة بين اللفظات الثلاث: الوحدة والمحبّة والإيمان.

وفي الكنيسة لا سبيل الى الوحدة إلاّ بالمحبّة. والمحبّة لا يمكن أن تنبع إلاّ من يقين حبّ الله لنا، لا من حبّنا البائس له.

نحن الذين يبيعونه تعالى في كل لحظة، عرفنا ذلك أم لم نعرفه.

أمّا حبُّه، هو، لنا، فصُلْبٌ، وثابتٌ ثباتَ الأبد.

وقد سبق للقدّيس بولس أن قال: «إنَّ الله أمين»
إنّه لا يتغيَّر،
بل نحن المتقلّبون.
أنا، شخصيًّا، إذ أعلم أنّ الله يُحبُّني،
فانطلاقاً من يقيني بحبِّه،
أستطيع أن أحتفظ، بفضل نعمته، بتماسكي مع ذاتي.
وما ينطبق على الفرد، ينطبق أيضاً على الفريق الصغير،
ويمكن أن ينطبق، أيضاً، على الفريق الجسيم، الذي هو الكنيسة.
ولذلك يؤكّد الربّ، بشدّةٍ، على «كلمة الوحدة، والمحبّة، والإيمان».
وتعود العذراء فتدعونا الى الصلاة:
«صلّوا لساكني الأرض والسماء»
لساكني الأرض، الأمرُ مفهوم.
ولكن ما الذي تقصده بساكني السماء؟
ربّما تعني هذه العبارة: «التمسوا دعاء ساكني السماء»
ولكنّها قد تعني، أيضاً: صلّوا من أجل الذين هم في طريقهم الى السماء،
الذين سبقونا، والذين ما برحوا في ما يسمّى المطهر،
يقضون مرحلة التأهُّب لرؤية الله،
مرحلة التطهُّر التي لا بدَّ منها.
من هذا الملحظ يمكنني إدراك قول العذراء: «صلّوا لساكني السماء»
أي للذين هم في طريقهم الى السماء،
وبالإجمال، لكلّ موتانا،
للذين سبقوكم، ولكم، أنتم أيضاً، عندما ستلحقون بهم.

وبالتالي فالصلاة التي تدعونا إليها العذراء لا تستثني أحداً، بل تتناول «ساكني الأرض والسماء»

لا يمكنها استثناء أحد،

فبالصلاة يُتيح الإنسان لله أن يوسّعه، بقدر حجم الله نفسه.

رسائل إنخطافات عام ١٩٨٣

١ – الجمعة ٢٨ تشرين الأول (السيدة العذراء)

١ – «لا تخافي، هذا كلّه ليَتَمَجَّدَ إسمُ الله.

٢ – لا تخافي، سأربّي جيلي فيكِ».

٢ – الجمعة ٤ تشرين الثاني (السيدة العذراء):

١ – «انزلي وقوليلن إنك بنتي قبل ما تكوني بِنْتُنْ...

٢ – قلبي احترق على إبني الوحيد.

٣ – ما راح يحترق على كل أولادي.

٣ – الجمعة ٢٥ تشرين الثاني (السيدة العذراء):

١ – «هذا كل ما أريد.

٢ – ما جئتُ لأفرّق.

٣ – حياتُكِ الزوجيّة ستبقى كما هيَ...

٤ – بتحبّي تِجي لعندي؟... تَعي... بيكفي إنك بِدك تِجي.

رسائل إنخطافات عام ١٩٨٤

٤ – خميس الصعود ٣١ أيار (السيد المسيح):

«إبنتي،

١ – أنا البدايةُ والنهاية.

٢ – أنا الحق والحرية والسلام.

٣ – سلامي أعطيكم.

٤ – لا يكُن سلامُكِ على ألسنةِ الناس، سواءٌ أكانَ خيرًا أم شرًّا، وظُنّي بنفسكِ شرًّا.

٥ – فمَن لا يَبتغِ رِضى البشر، ولا يخشَ عدم رِضاهم، يتمتعْ بالسلامِ الحقيقي، وهذا يكونُ فيّ أنا.

٦ – عيشي حياتَكِ هنيئةً مستقلّة.

٧ – لا تحطّمكِ الأتعابُ التي باشَرْتِها من أجلي.

٨ – بل افرحي، أنا قادرٌ على أن أكافِئَكِ. فأتعابُكِ لن تطولَ، وأوجاعُكِ لن تدوم.

٩ – صلّي بعبادة، فالحياةُ الأبديّةُ تستحق هذه العذابات.

١٠ – صلّي لتتمَّ فيكِ مشيئةُ الله. وقولي:

يا يسوع الحبيب،
هَب لي أن أستريحَ فيكَ، فوقَ كلِّ شيء،
فوقَ كلِّ خليقة،
فوقَ جميعِ ملائِكتكَ،
فوقَ كلِّ مديح،
فوقَ كلِّ سرورٍ وابتهاج،

فوقَ كلِّ مجدٍ وكرامة،
فوقَ جميع جيشِ السماء.
فإنكَ أنتَ وحدَكَ العليّ.
أنتَ وحدكَ القديرُ والصالحُ فوقَ كلِّ شيء.
فلتأتِ اليَّ وتُفرِّجْ عنّي وتَفُكَّ قيودي، وتمنحني الحرية.
فإنّني بدونكَ لا يتمُّ سروري
بدونكَ مائدتي فارغة.

حينئذٍ آتي لأقول:

ها أنذا أقبلتُ، لأنكِ دعوتِني».

٥ – الجمعة ٧ ايلول (السيدة العذراء):

١ – «عيشي حياتَكِ.

٢ – ولكنَّ الحياة لا تمنعُكِ من أن تتابعي الصلاة».

رسائل انخطافات عام ١٩٨٥

٦ – الأربعاء الأول من أيار (السيدة العذراء):

١ – «الكنيسة هي ملكوتُ السمواتِ على الأرض. من قسّمها فقد أخطأ، ومن فرح بتقسيمها فقد أخطأ.

٢ – أنا مسرورة، لا تخافي، أنا معَكِ.

٣ – سأربّي جيلي فيكِ».

٨ – الأربعاء ١٤ آب (السيدة العذراء):

١ – « كل عام وأنتو بخير.

٢ – هذا هو عيدي لما بشوفكن كلكن مجتمعين مع بعض.

٣ – صلاتكن هيّ عيدي.

٤ – إيمانكن هو عيدي.

٥ – إتحاد قلوبكن هوّ عيدي».

٩ – السبت ٧ ايلول (السيد المسيح):

١ – « أنا الخالق.

٢ – خلقتُها لِتخلقَني.

٣ – إفرحوا لفرحِ السماء، لأنّ إبنةَ الآب وأمّ الاله، وعروس الروح وُلِدَتْ.

٤ – إبتهجوا لابتهاجِ الأرض، لأن خلاصَكم قد تحقَّق».

١٠ – عشية الذكرى السنوية الثالثة:

الثلاثاء ٢٦ تشرين الثاني (السيد المسيح):

«إبنتي،

١ – أتريدين أن تكوني مصلوبةً أم ممجَّدة؟

٢ – ممجَّدة.

٣ – إبتسم يسوع وقال:

أتفضلين أن تكوني ممجَّدةً من الخَلْق أم منَ الخالِق؟

٤ – منَ الخالِق.

٥ – وهذا يكون بالصلب، لأنكِ كلما نظرتِ الى الخلائق، إبتعدَ عنكِ نظرُ الخالق.

٦ – أريدكِ يا ابنتي أن تجتهدي بالصلاة، وتحتقري نفسَكِ.

٧ – فمن احتقرَ نفسَه، ازداد قوةً ورِفعةً من الله.

٨ – أنا صُلِبتُ حبًّا بكم.

٩ – وأريد أن تحملوا وتتحمَّلوا صليبَكم من أجلي، بطوعٍ ومحبّة وصبر، وتنتظروا قدومي.

١٠ – فمَن شاركني بالعذاب، أشارِكُه بالمجد، ولا خلاصَ للنفسِ الا بالصليب.

١١ – لا تَخافي، يا ابنتي، سأعطيكِ من جراحاتي ما تفيضَ به ديونَ الخطأة. فهذا هو الينبوع الذي ترتوي منه كلُّ نفس.

١٢ – واذا طال غيابي واحتجبَ النور عنكِ، فلا تَخافي، إنما هذا لتمجيدي.

١٣ – إذهبي الى الأرض التي عمَّ فيها الفساد، وكوني بسلام الله».

الانخطافات

المرحلة الأولى

الجمعة ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٣ – الثلاثاء ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥

اعتبارًا من ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٣، بدأت حقبة الانخطافات. وتفاديًا للغَرَق في التفاصيل، آثرتُ تقسيم هذه الحقبة الى أربع مراحل. وقد انطوت كلّ مرحلة على طائفةٍ من المبادئ المركزيّة التي لاتني تتردّد، وتكتسب وضوحًا واتّساعًا. وإذن، فأقتصر الآن على رسائل الانخطافات.

المرحلة الأُولى تمتدّ من ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٣ وحتى ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥، وهي تتميّز بتصعيد واضح المعالم. فالعذراء تنطلق من الإنسانة التي اختارتها كي تقودنا، بتُؤَدةٍ ورفق، الى اختيار الله للكنيسة كلّها؛ وهي، من خلال ميرنا، تسعى الى تثقيفنا، بتثقيفها ميرنا التي تعلن لها، بالإضافة الى ذلك: «أنتِ ستضطلعين بتربية أجيالي».

فأيّ سبيل تسلك العذراء الى هذا الهدف؟

العبارة الأُولى من الرسالة الأُولى، المُبَلَّغة أثناء الانخطاف الأوَّل هي: «لا تخافي».

إزاء الله يعتري الإنسانَ الخوفُ تلقائيًّا،

وهذا واضحٌ في الإنجيل،

فالملاك الذي تراءى للرُّعاة قال لهم: «لا تخافوا، ها إنّي أُبشّركم بفرحٍ عظيم».

والعذراء قالت لميرنا: «لا تخافي، هذا كلُّه ليتمجَّد اسمُ الله».

أنتِ، لا تخشيْ شيئًا،

إنَّكِ صغيرةٌ، ومحدودة،

ولكنَّ كلّ ما يحدث، وكلُّ ما سيحدث،

هو لمجد الله.

علينا أن ننظر دائمًا الى هذين القطبين:

الإنسان الذي وقع عليه الاختيار، رغم وهنه، واختيار الله له كي يتمجّد به. والآن، سنستقري امتداد هذا الخطّ، ومن خلاله ما يسعى الربُّ الى قوله لميرنا، وعبر ميرنا، الى جميع الذين سيعيشون حَدَث الصوفانيّة.

ففي الفترة الممتدّة بين ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٣ حتى مساء ١٤ / ٨ / ١٩٨٥، تتجلّى وتنبسط تلك الفكرة الجمّة: إنّ الله يختار إنسانًا، كي يتمجَّد به اسمُه، ويُرسل مريم، خادمَته، كي تمهِّد لفكرة تمجيد الله هذه، بقولها: «لا تخافي، هذا كلُّه ليتمجَّد اسم الله».

وتؤكّد: «لا تخافي».

وهكذا، منذ الرسالة الأُولى، أثناء الانخطاف الأوّل، تقول العذراء لميرنا، كرّتين: «لا تخافي».

– «لا تخافي، هذا كلّه ليتمجَّد اسم الله».

– «لا تخافي، سأُربّي جيلي فيك».

وكأنّي بالعذراء تُسرُّ لميرنا: «ها إنَّ الربَّ قد وضع عليكِ يَدَهُ، في سبيل مهمَّة تربية الجيل الذي سيكون جيل العذراء والربّ».

وقد اعترى ميرنا الخوفُ لدى سماعها ذلك، وتساءلت، عند استيقاظها من الانخطاف: «ولكن ما معنى هذا!». ولا عجبَ إن هي تساءلت، فلفظة «تربية» في العربيّة العاميّة تعني قصاصاً من الشدّة بحيث إنّ من يتعرّض له يفقد أيّ رغبةٍ في ارتكاب حماقاتٍ، ويصبح، في ذلك، مَثَلاً للآخرين. وعندما نقول، بالعربيّة: «بدّي ربّيك»، فهذا يعني: «سأوسعك ضربًا». ومن ثمَّ تساءلت ميرنا: «ترى ما الذي ستفعله العذراء بي؟». وهي تتخيّل أنّها ستتعرّض لعقابٍ رهيب.

ولكنّنا أوضحنا لها: «لا أبدًا، بل من المُحقّق أنّ الربَّ يُعدُّ أمرًا نحن نجهله، وهو سيستخدمك، ربّما، لتلقين الناس الصلاة، والاستسلام له، والصبر، وممارسة الأزواج حياتهم الزوجيّة ممارسة سليمة. ومن المؤكّد أنّ الربّ يُعدُّك لمهمّة تربويّة، فأوكلي إليه أمرك، ولا تخافي».

أو لم يقل لها يسوع ومريم: «لا تخافي؟».

وأثناء الانخطاف الثاني، يوم الجمعة ٤ / ١١ / ١٩٨٣، إذ رأت العذراء ذوي ميرنا يبكون، قالت لها: «إنزلي، وقوليلُنْ إنّك بنتي قبل ما تكوني بِنْتُنْ»

وإذن، لم تعد ميرنا ملْكَ نفسها،

ومع أنّها متزوّجة، فهي ابنة الله والعذراء، قبل أن تكون ابنة بشر.

ومن المؤكّد أنّ كلَّ ما يُقال لميرنا، يُقال، من خلالها، لكلٍّ منّا.

ومن ثمَّ، فقد أعقبت العذراء قولَها: «إنزلي وقوليلنْ أنّك بنتي قبل ما تكوني بِنْتُنْ»، بعبارةٍ مدهشة، باللهجة العاميّة أيضاً: «قلبي احترق على ابني الوحيد، ما راح يحترق على كلّ أولادي».

هذا القول، كما نفهمه، يعني: «لقد كنتُ عاجزةً عن عمل أيّ شيء لإنقاذ ابني، ولكنّني سأفعل كلَّ شيء، من أجل خلاصكم».

وبذلك تؤكّد لنا العذراء أنّنا، جميعنا، أبناؤها،

وأنّ ما تقوله لميرنا، لا تقصره عليها فحسب، بل توجّهه الى جميعنا.

إنّ ميرنا امرأة متزوّجة،

وبالتالي، كان لا بدّ أن يُطرح السؤال: هل عليها مواصلة التعايش مع زوجها؟ أم يتعيَّن عليها هجر منزلها، واللجوء الى دير؟

وقد أجابتها العذراء: «كلاّ»، وكان ذلك في انخطاف يوم الجمعة ٢٥ / ١١ / ١٩٨٣، إذ قالت لها: «ما جئتُ لأُفرّق. حياتك الزوجيّة ستبقى كما هي».

وكان من شأن تلك الإجابة بعث الاطمئنان في نفسي ميرنا ونقولا، وإقناع المتسائلين هل يسوغ أن تستمرَّ ميرنا في العيش مع زوجها، وربّما انطوت تلك الإجابة على إحدى رسائل الصوفانيّة الأساسيّة، ألا وهي التذكير بقدسيّة سرّ الزواج، في وقتٍ يتعرّض فيه هذا السرّ، وعن قصدٍ مُبيّت، الى امتهانٍ وانحلال منظَّمَيْن، وبلا حدود.

وكان يوم ٣١ أيّار ١٩٨٤، وهو عيد الصعود، محطّةً بين مختلف رسائل المرحلة الأولى، إذ تدخّل يسوع للمرّة الأولى، كي يُذكّر بأنّه هو الأوّل والأخير، وذلك من خلال رسالةٍ مؤثّرة، خاطب فيها ميرنا قائلاً:

«ابنتي،
أنا البداية والنهاية
أنا الحقّ والحرّيّة والسلام».

وهو كان قد قال في الإنجيل: «أنا الطريق والحقّ والحياة» (يو ١٤: ٦).

أمّا هنا فيقول: «أنا الحقُّ والحرّيّة والسلام».

وكأنّي به يقول: «أيّها البشر المساكين! إنّكم تسعون وراء الحقّ، وأنا هو الحقّ. وتجرون وراء الحرّيّة، ولكن أيّة حرّيّة هي تلك التي تنشدونها؟ وتجرون في إثر السلام، ألا فاجروا في إثري، تظفروا بالحرّيّة والسلام، إنّها من حقّكم، ولكنّكم قد ضللتم إليها السبيل».

ثمّ يواصل يسوع: «سلامي أُعطيكم».

إنّها رسالة سلام.

ويتوجّه الى ميرنا فيقول: «صلّي لتتمّ فيك مشيئة الله».

في مواجهة الله، يتبيَّن الإنسان عجزَه التامّ.

ولئن هو واجه مسؤوليّاته، وجدها من الجسامة بحيث يتملّكه الشعور بأنّه مسحوق انسحاقًا تامًّا.

وهنا يقول له الربّ:

«أوكلُ اليّ أمرك،

فأنا البداية والنهاية.

وعلام تضطرب!

فأنا من اختارك،

فاستسلم لي، واطلب، في دعائك «لتتمّ فيك مشيئة الله».

إنّك ترزح تحت وِقْر بؤسك، ومعاصيك، وحدودك، وعجزك، إذن فادعُ «لتتمّ فيك مشيئة الله».

وهذا حَسْبُك.

حسبُكَ أن تقف موقف الترحيب، موقف استعطاء هذه النعمة».

وستحلّ هذه النعمة، وستؤازرنا على عمل ما يتوجّب عمله، من أجل تطهيرنا، ومن أجل خلاصنا.

وبعد أن يدعو يسوع ميرنا الى الصلاة كي تتمَّ فيها مشيئة الله، يلقّنها صلاة رائعة، وقد اتّضح لنا، فيما بعد، أنّها مؤلّفة من عدّة مقاطع من كتاب «الاقتداء بالمسيح»، مبثوثة في عدّة صفحات منه. أنا شخصيًّا كنت نادرًا ما أقرأ هذا الكتاب، ولكنّني، مُذّاك، بتُّ أكثر من مطالعته. ومن ثمّ فنحن لم نتبيَّن أنّ نصّ تلك الصلاة واردٌ في ذلك الكتاب، الى أن جاءنا أحدهم، ذات يوم، وقال لنا: «لقد عثرتُ على هذا النصّ».

وقد تذرّع البعض بهذا الواقع، فادّعوا: «هي ميرنا، إذن» أو «هم، إذن، الكهنة الذين لفّقوا هذه الصلاة، ولقّنوها إيّاها». ولكنّنا أوضحنا أنّنا لم نكن حتى على علم بوجودها بين ثنايا كتاب «الاقتداء بالمسيح».

أمّا إذا تأمّلنا أسلوب جمع يسوع لتلك العبارات الصغيرة، فيبدو لنا وكأنّه أراد أن يقول لنا: «أنتم تنشدون السلام والراحة، وإنّما هما فيّ»، كما يتّضح من نصّ الصلاة:

«هَبْ لي أن أستريحَ فيكَ، فوق كلّ شيء
فوق كلّ خليقة،
فوق جميع ملائكتك،
فوق كلّ مديح،
فوق كلّ سرور وابتهاج،
فوق كلّ مجدٍ وكرامة،
فوق جميع جيش السماء...»

وكأنّي به، بعد كلّ هذا الاستعراض، يقول:

«لا تنشدوا السلام والراحة في أيّ مخلوق، حتى لو كان هذا المخلوق يتبوّأ أرفع مقام في السّماء، فإنّما السلام فيّ».

ويحضرني، هنا، قول القدّيس أوغوسطينوس: «يا ربّ، قد صَنَعْتَنا من أجلك، ولن يظفر قلبنا بالراحة إلاّ فيك».

وقد علّم يسوع ميرنا أن تختم تلك الصلاة بالقول:

«فإنّك أنت وحدك العليّ
أنت وحدك القدير، والصالح فوق كلّ شيء».
أجل فوق كلّ شيء.

ولا يَغْرُبَنَّ عن بالنا أنّ هذه الرسالة قد بُلِّغتْ بالعربيّة، وأُعلن عنها في مجتمع عربيّ، فيه أغلبيّة مسلمة؛ وقد أحسنت العذراء تمهيد السبيل، فهي تحظى من الإسلام بتبجيلٍ عظيم.

ويوم الجمعة، السابع من أيلول ١٩٨٤، ظهرت العذراء، من جديد، لميرنا، أثناء انخطاف، ودعتها الى عيش حياتها عيشًا طبيعيًّا، إذ قالت لها:

«عيشي حياتك

ولكن الحياة لا تمنعك من أن تتابعي الصلاة».

صلّي دائمًا.

صلّي كي تكوني أداةً صالحة للبشرى الجديدة، بين يدي الربّ.

عيشي حياتك، كامرأة متزوّجة، تعيش في العالم، إلاّ أنّها لا تكفّ عن الصلاة.

كما ترون: إنّها رسائلُ وجيزة وبسيطة، ولكنّها شديدة الوضوح، وهي تُعِدُّ ميرنا لتلك الرسالة التي تتجاوزها، وتتجاوزنا جميعنا. رسائل تَرِدُ مقسَّطة، فالعذراء قبل أن تجعل من ميرنا مربّية لما أسمتْه «جيلها»، قامت بتربيتها، ومن خلالها، ربّتْنا نحن أيضاً.

في الأوّل من أيّار ١٩٨٥، أخذت العذراء تضغط بكلّ ثِقَلها، مشدّدةً على دعوة المسيحيّين الى الوحدة. وكانت قد تطرّقت للوحدة، في ظهوراتٍ أُخرى، ولكنّها، في ذلك اليوم، وللمرّة الأُولى، قالت:

«أولادي، اجتمعوا

قلبي مجروح

لا تدعوا قلبي ينقسم على انقسامكم».

وهكذا يتبيَّن أنّ إحدى وسائل تمجيد الربّ، هي توحيد الكنيسة. أولم يقل يسوع نفسه: «يا أبتِ، فليكونوا جميعهم واحدًا، ليؤمن العالم بأنّك أنت أرسلتني»؟

طالما ظلّت الكنيسة مقسّمة، كانت شهادتها ناقصة، ودون ما يجب أن تكون، وغير مقبولة كما من شأنها أن تُقْبَل لو كانت الكنيسة، حقًّا، واحدة، واحدة في إيمانها، واحدة في بنيانها، واحدة في رسالتها.

وهكذا لاتني العذراء تُشرع النافذة الجديدة التي كانت قد راحت تفتحها أثناء ظهوراتها، فهي تريدنا أن نبلغ، ونكون أبناء، لا أن نظلّ أولادًا تفرّقهم انقساماتٌ معيبة.

ثمّ تفاجئنا العذراء بقولها لميرنا:

«ابنتي، سأُعطيك هديّة أتعابك».

وقد تبيَّن، فيما بعد، أنّ تلك الهديّة كانت حَمْل ميرنا، وإنجابها لميريام ثمّ لجان إيمانوئيل.

وكم هذه العبارة الوجيزة جديرة بالتأمّل!

فكلّ طفلٍ هو هديّة السماء

ولا يسوغ أن يكون موضع متعةٍ أو تسلية.

لا يجوز أن يُنبَذ، أو يُقتل جُزافًا،

لا يجوز أن يكون بمثابة حيوانٍ أليف يُبْتغى منه سدّ فراغ وحدةٍ رهيبة، أو معالجة خيبة أمل.

وكم كلُّ ذلك معاصرٌ لنا!

العذراء، إذًا، تتوخى تمجيد الربّ من خلال تلك الأداة الصغيرة، المدعوّة ميرنا، وهي معنيّة بتربيتها، وهي تُعدّها للأمومة،

ومن خلالها تبلّغنا رسائل حول منشئنا الإلهيّ، وبُنُوَّتنا الالهيّة، ونسبنا الإلهيّ، وبالتالي كرامتنا الإنسانيّة.

في ٤ آب ١٩٨٥ تُذكِّر العذراء بما قالته أثناء ظهورها بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٨٣، وبما سيؤكّده يسوع أثناء انخطاف ١٤ آب ١٩٨٨، في لوس أنجيليس، فتعلن:

«الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض
من قسّمها فقد أخطأ، ومن فرح بتقسيمها فقد أخطأ».

وفي ذلك اليوم، الرابع من آب ١٩٨٥، جرى الانخطاف في نهاية قدّاس احتفاليّ أُقيم في كاتدرائية السريان الأورثوذكس في مدينة الحسكة، الواقعة في شمال شرقيّ سوريا.

وبظهورها، يومذاك، في كنيسةٍ للسريان الأورثوذكس، تمامًا كما ظهرت في أماكن أخرى،

ألم تتوخَّ العذراء تذكيرنا بأنّ جميع الكنائس هي كنائس ابنها، وأنّها تريد أن تجعل من جميع الكنائس كنيسةً واحدة،

لأنّ الكنيسة هي ملكوت الله على الأرض

ولأنّها قد ضاقت ذرعًا بالانقسامات؟

ولكي تطمئن ميرنا، تقول لها مجدّدًا:

«أنا مسرورة، لا تخافي، أنا معك. سأُربيّ جيلي فيك». هناك، إذن، شبه لازمة:

«لا تخافي. أنا مسرورة. سأُربّي جيلي فيك».

إنّها، حقًّا، مربيّة مُجدَّة، تُعِدُّ بتُؤَدةٍ تلك التي ستحمل يومًا رسالة دعوة جميع المسيحيّين الى الوحدة. ويا لها من رسالة فريدة!

فهي الرسالة الكبرى، حيث تتصرّف العذراء كأُمّ، وكأُمّ تريد الجميع، ولا تستثني أحدًا،

إنّها أُمٌّ ترغب في جمع شمل جميع أبنائها.

أو لا يقول المثل العربيّ: «الأُمّ بتلمّ»؟

وفي ١٤ آب ١٩٨٥، قبل انحجابها طوال أربع سنوات عن كلّ انخطافات ميرنا، تبلّغنا العذراء رسالةً باللغة العربيّة العامّيّة، تتّسم ببساطةٍ وعمقٍ بليغي التأثير:

«كلّ عام وانتو بخير،

هدا هو عيدي لمّا بشوفكنْ كلكُنْ مجتمعين مع بعض»

ثمّ تشدّد العذراء، بترديدها عبارةً تتكرّر كاللازمة:

«صلاتكن هي عيدي

إيمانكن هو عيدي

اتحاد قلوبكن هو عيدي».

وكأنّي بها تقول: «ليس عيدي صَخَبًا واحتفالات، بل وحدة القلوب هذه، ووحدة الصلاة، وبالإجمال وحدة الكنيسة.

ذلكم هو عيدي، فأثلجوا صدري برؤيتكم متّحدين»

وبعد هذه الرسالة، توارت عنّا العذراء، مدى أربع سنوات.

وبدءًا من هذا التاريخ، يبدو وكأنّ الظاهرة أخذت تمرّ بمنعطف، فيسوع هو الذي سيتولّى التحدُّث الينا، يسوع الذي كان قد ظهر قُبَيْل ذلك، أي في ٣١ أيّار ١٩٨٤، والذي سيدفع بكلّ ثقله، إن صحّ التعبير، في الرسائل المقبلة.

فالرسالة التي بلّغها في السابع من أيلول ١٩٨٥، فورًا بعد رسالة الأُمومة السماويّة، والدعوة الى الوحدة، هي رسالةٌ مؤثّرة، توجز كلّ العقيدة المسيحيّة، بل كلّ اللاهوت المسيحيّ:

«أنا الخالق

خلقتُها لتخلقني

إفرحوا لفرح السماء لأنّ ابنة الآب، وأُمّ الله، وعروس الروح وُلدتْ، ابتهجوا لابتهاج الأرض، لأنّ خلاصكم قد تحقّق».

بعباراتٍ مكثفّة، عرّف يسوع بكلّ ذاته، وبكلّ ما يمثّل الإنسان في نظره، بكلّ ما فعل في سبيل الإنسان، وبكلّ ما يعتزم فعله من أجل خلاص الإنسان. موجزٌ مدهش، في أسطر قلائل!

غير أنّه، فيما بعد، سيفصّل ما قاله هنا موجزًا،

وسيفصّله بطريقةٍ فذّةٍ، رائعة.

ففي ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥، باشر حوارًا مع ميرنا، وهو أمرٌ لم يحدث في السابق، ولم يتكرّر، أقلّه حتّى الآن، واليكم ذلك الحوار:

– «ابنتي، أتُريدين أن تكوني مصلوبةً أم ممجّدة؟

– «ممجّدة

(وعندما سألها الأب معلولي، إثر تبليغها هذه الرسالة، عمّا تعني لها لفظة «ممجّدة»، أجابت: «تعني قول: المجد للآب والابن والروح القدس». فثقافتها لم تكن تتعدّى هذا المستوى).

«ابتسم يسوع وقال:

– «أتُفضّلين أن تكوني ممجّدة من الخَلْق أم من الخالق؟

– «من الخالق.

– «وهذا يكون بالصلب...»

وكأنّي به يشرع بتثقيف ميرنا، بتبليغها الحقائق المسيحيَّة الكبرى، أو، ربّما، يتعيّن علينا أن نقول: الوقائع المسيحيّة الكبرى.

فقولنا «الحقائق» قد يوحي بالتحدّث الى العقل،

أمّا الوقائع، فهي الملموس، المعاش.

ومن الوقائع المسيحيّة الكبرى: أنّ الله يحبّ الصليب.

الله حمل الصليب حبًّا بالبشر.

وهو يقتضي منّا أن نحمل الصليب حبًّا به، وحبًّا بأنفسنا،

من أجل خلاصنا.

إنّ يسوع يوجّه ميرنا نحو رؤيةٍ جديدة. ويعلّمها أنَّ الصليب يعني التطلُّع نحو الخالق، تطلّعًا يقود الى ازدراء الذات، ويتيح لنا الرُّنوَّ الى الخلائق من غير أن نتيح لها استلابنا.

ثمّ إنّه يطلب منّا انتظار قدومه، في صبرٍ وحبّ.

وهنا، يَعِدُ يسوع بالمكافأة:

«فمن شاركني بالعذاب، أُشاركه بالمجد».

يا لها من رؤيةٍ جامعةٍ شاملة:

الله الذي يحبّ، والذي مات مصلوبًا حبًّا بالبشر،

والذي يطلب من البشر أن يحبّوه بحملهم صليبه، وأن يزدروا ذواتهم من أجله، وأن يعيشوا حبًّا به،

ولقاء ذلك سينالون المكافأة: فمن تعذّب على الأرض، سيظفر بمكافأةٍ في الآخرة.

ومن ثمّ هو يدعو ميرنا الى التأمُّل في تلك الرؤية الرهيبة: الصليب، ودائمًا الصليب. ويُضيف:

«لا تخافي، يا ابنتي، سأُعطيك من جراحاتي ما تفين به ديون الخطأة».

تأمَّلوا هذه المشاركة في عمل الفداء!

إنّ يسوع يرقى بميرنا الى مستوى مَن يُساهم في الفداء.

إنّه السيّد الأوحد، وله أن يفعل ما يشاء،

وليس لنا، نحن، في الأمر شأن، وليس لنا أن نستمدّ منه أيّ فخرٍ إطلاقًا ولذلك يقول يسوع: «من جراحاتي».

فجراحاته هي المَعين الذي، منه، ترتوي كلُّ نفس.

هذا ما كان قد خبره القدّيس بولس، وتكلّم عنه بوضوحٍ تامّ، من غير أيّ افتخار.

ومرّةً أُخرى، يقوم يسوع بدور المربّي،

فيقول لميرنا: «وإذا طال غيابي، واحتجب النور عنك، فلا تخافي».

وبالفعل غاب يسوع عامًا كاملاً.

وعقبَ هذه الرسالة التي بلّغها في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥، احتجب تمامًا، واحتجبت العذراء أيضاً، فلا انسكاب زيت لا من الصورة ولا من ميرنا، لا شيء، إنّه القفر، مدى سنة.

ولكنّها كانت سنة صلاة، صلاةٍ لم تنقطع.

رسالة إنخطاف عام ١٩٨٦

١١ – عشية الذكرى السنوية الرابعة:

الأربعاء ٢٦ تشرين الثاني (السيِّد المسيح):

«إبنتي،

١ – ما أجملَ هذا المكان، فيه سأنشئ ملكي وسلامي، فأعطيكم قلبي لأمتلكَ قلبَكم.

٢ – مغفورةٌ لكم زلاّتُكم، لأنّكم تنظرون اليَّ، ومن نظر اليَّ أرسمُ صورتي فيه.

٣ – فالويل لمن يمثِّل صورتي وقد باع دمي.

٤ – صلُّوا من أجل الخطأة، فكلّ كلمة صلاة أسكب فيها قطرةً من دمي على أحد الخطأة.

٥ – إبنتي، لا تضطربي من الأرضيّات فبجراحاتي تكتسبين الأبديّة.

٦ – أريد أن أجدّدَ آلامي.

٧ – وأريدك أن تُنجزي مهمَّتَكِ، فلا تستطيعين دخولَ السماء إلاّ إذا أنجزتِ مهمَّتك على الأرض.

٨ – إذهبي بسلام.

٩ – وقولي لأبنائي أن يأتوا اليَّ في كل ساعة، وليس عندما أجدِّدُ عيد أمي.

١٠ – فأنا معهم في كل وقت».

رسائل إنخطافات عام ١٩٨٧

١٢ – سبت النور ١٨ نيسان (السيِّد المسيح):

١ – «أعطيتكم إشارةً تمجيدي.

٢ – تابعوا طريقكم وأنا معكم.

٣ – وإلاَّ...».

١٣ – خميس الصعود ٢٨ ايار (السيِّد المسيح):

«أحبُّوا بعضكم بعضاً وصلُّوا بإيمان».

١٤ – الأربعاء ٢٢ تموز (في بلدة معاد – لبنان) (السيِّد المسيح):

١ – «لا تخافي، يا ابنتي، سأربّي جيلي فيك.

٢ – صلُّوا صلُّوا وصلُّوا.

٣ – وإذا صلّيتم قولوا: أيها الآب بحقّ جراحات ابنك الحبيب خلِّصنا».

١٥ – الجمعة ١٤ آب (السيِّد المسيح):

«إبنتي،

١ – هي أميِّ التي ولدتُ منها.

٢ – من أكرمَها أكرمني.

٣ – من نكرها نكرني.

٤ – ومن طلبَ منها نال لأنَّها أُميّ».

الانخطافات

المرحلة الثانية

الأربعاء ٢٦ / ١١ / ١٩٨٦ – الجمعة ١٤ / ٨ / ١٩٨٧

بعد سنة بالتحديد، أي في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٦، بلّغ يسوع ميرنا رسالةً جديدة، أعاد فيها وعده السابق وجسّمه:

«ما أجمل هذا المكان، فيه سأُنشئ ملكي وسلامي».

والمكان، في الحقيقة، لا يستلفت الأنظار. ومن ثمّ، فليس الجمال جمال البيت والبناء، بل هو تجمّع المؤمنين، ورغبتهم في أن يكونوا مع الربّ، هو استجابة المؤمنين، والمرتدّين الى الإيمان، لنداء الربّ، وهو الحبّ الذي يحملونه له في صدورهم. كلّ هذا هو الجميل في عيني الربّ، الذي سيُرسي على هذه القاعدة الموغلة في الصِّغَر، ملكوته وسلامه.

إنّه هو الذي يبني، لا نحن!

وفي بنائه يستخدم ما يشاء من موادّ،

موادّ يختارها هو اختيارًا لا شأن لنا به.

ويتابع يسوع: «فأُعطيكم قلبي لأمتلك قلبكم».

أي: أُريدكم لي، إذ لا يمكنكم أن تكونوا ملكًا لكائنٍ آخر، أو لشيء آخر.

ثمّ يقول يسوع:

«مغفورة لكم زلاّتكم، لأنّكم تنظرون اليّ».

ولكأنّه يستدرك اعتراضنا: «يا ربّ، أتريد أن تبني معي؟ ولكن من أنا؟ إنّني لست سوى بائس خاطئ»، وهو اعتراضٌ حقّ.

ولكنّه يسكّن روعنا ويطمئننا، وكأنّه يقول لنا: «لا عليكم، إنّني أتقبّلكم، كما أنتم

فاقبلوا ذواتكم، على علاّتكم،

اقبلوا ذواتكم، على نحو ما أنا أُريدكم،

وأنا كفيلٌ بتقديسكم، وبأن أجعل منكم أدوات تمجيدٍ لي».

هكذا أرى، أنا، العلاقة بين عبارات يسوع:

«ما أجمل هذا المكان، فيه سأُنشئ ملكي وسلامي. فأعطيكم قلبي، لأمتلك قلبكم.

مغفورةٌ لكم زلاّتكم، لأنّكم تنظرون اليّ».

ونحن، إذا ما نظرنا الى كائنٍ ما، نظرة حبٍّ وثقة، انحفرت صورته في صميمنا.

وهذا ما أكّده يسوع:

«من نظر اليّ أرسم صورتي فيه».

وبما أنّكم تنظرون اليّ، فسأجعل منكم إيقوناتٍ لي،

مثلما يمكن القول إنّ ميرنا هي، رمزيًّا، إيقونة الربّ.

فعلى نحو ما ينسكب الزيت من صورة العذراء ويسوع، هو ينسكب أيضاً، من ميرنا، وقد انسكب كذلك من أُناس آخرين كانوا يصلّون. ولئن توخّى الربّ تذكيرنا أنّنا إيقونات له، فهو إنّما يذكّر بحقيقة راسخة في الإنسان، يومئ اليها الكتاب المقدّس، منذ صفحاته الأولى: «لقد خلق اللهُ الإنسانَ على صورته ومثاله» (تكوين ١: ٢٧).

نحن إيقونات الله على الأرض.

إلاّ أنّها حقيقةٌ قد ذَهِلْنا عنها، للأسف،

فشوّهنا ذواتنا وأنكرناها،

بسَعْينا الى أن نكون صورةً للعالم، لا صورة لله.

ولكنَّ الربَّ يقول لنا: «شئتم أم أبيتم، أنتم إيقونات لي».

وهنا تصدر عن يسوع عبارة رهيبة، إذ إنّه يُعقب قوله:

«من نظر إليّ، أرسم صورتي فيه»،

بالقول:

«فالويل لمن يمثّل صورتي وقد باع دمي».

إنّنا، جميعنا، نمثّل صورة الله،

ولكن هل نحن نمثّل، حقًّا، صورته؟ وعلى أيّ نحوٍ نمثّلها؟ والى أيّ مدى؟ إنّ الربّ صبور جدًّا، إلاّ أنّه، في الإنجيل، قد ردّد: «الويل! الويل! الويل!».

وهذه هي المرّة الوحيدة، هنا، حيث يقول: «الويل!»

وهذا الويل قد يطال الجميع.

إنّه يطال كلَّ مسيحيّ يدّعي تمثيل الربّ: المؤمن البسيط، والكاهن، والأُسقف، والبطريرك، والبابا،

فنحن، جميعنا، ممثّلوه.

ثمّ يضيف يسوع في الحال:

«صلّوا من أجل الخطأة، فكلّ كلمة صلاة أسكب فيها قطرةً من دمي على أحد الخطأة».

كلٌّ منّا، إذن، ثاوٍ في خاطره.

وهذا يذكّرني بقول باسكال: «من أجلكَ، سكبتُ تلك القطرة من دمي».

نحن، في نظر الربّ، لسنا جماعةً من المُغْفَلين،

بل نحن أفرادٌ محبوبون شخصيًّا،

ومُستَهدَفون شخصيًّا.

وفي كلٍّ منّا يرسم الربُّ صورتَه.

إنّه يريدنا على صورته.

وإن نحن تعثَّرنا، وغرقنا في الخطيئة، فهو، وحدَه، كفيلٌ بانتشالنا من حمأتها، وهذا ما يؤكّده لنا بكلّ وضوح.

ولذلك، يُعقب هذا التأكيد بقوله، فورًا، لميرنا، التي كان من شأن ذلك القول الرهيب إلقاء الاضطراب في حناياها:

«ابنتي، لا تضطربي من الأرضيّات، فبجراحاتي تكتسبين الأبديّة».

وهنا لا بدَّ لي من الإشارة الى واقعةٍ يجهلها كثيرون. ففي تلك الفترة، كان يستولي على ميرنا القلق على مصير والدها، الذي أُدخل السجن، من جرّاء وشاية، وأقام فيه ثلاثة أشهر؛ وقد أمضى مدّة سجنه، وهو يروي لرفاق مهجعه أحداث الصوفانيّة. وثمّة، مزّق قميصه الداخليّ قطعًا صغيرة، ربطها الواحدة بالأخرى، وجعل منها مسبحة، استخدمها للصلاة طوال الأشهر الثلاثة التي قضاها في السجن.

وقُبَيْل حدوث الانخطاف، كانت ميرنا جالسة في الصالون، تبكي. فدنوتُ منها، وقلتُ: «كفاكِ بكاءً يا ميرنا، وتذكّري أنَّ العذراء قالت لك، يومًا: «إنزلي وقوليلنْ أنّك بنتي، قبل ما تكوني بنتنْ». وإنّني استميح لنفسي أن أقول لك الآن: إنّ أباك هو ابن الله قبل أن يكون والدك. ولا يسوغ أن يُساورك عليه كلُّ هذا القلق. وها قد حان موعد الصلاة، فانهضي، وقفي وسط المصلّين، موكلةً أمر أبيك للربّ. وهو، الذي يعرف كلّ شيء، يدبّر كلّ شيء».

وقد انطوت الرسالة التي جاءتْها، بُعَيْد قليل، على هذا القول: «لا تضطربي من الأرضيّات، فبجراحاتي تكتسبين الأبديّة».

وأدركت ميرنا ما تشير اليه تلك العبارة، التي قد تبدو، لمن يجهلون خفايا الأُمور، مقولةً عامّة: فما أكثر الأحداث، في هذه الدنيا، التي تثير فينا الاضطراب.

بيد أنّ ميرنا استشفّت مقصُد يسوع الخاصّ، من هذا القول.

وقد استأنف يسوع القول: «فبجراحاتي تكتسبين الأبديّة. أُريد أن أجدّد آلامي».

وأضاف، وكأنّه يُنْذر:

«وأُريدك أن تنجزي مهمّتك، فلا تستطيعين دخول السماء، إلاّ إذا أنجزت مهمّتك على الأرض».

إنّ الربّ صارم في مطالبته إيّانا، بقدر ما هو رؤوفٌ بنا.

ومن ثمّ، فإن جاء من يدّعي أنّ رحمة الربّ لا ترتضي وجود جحيم أبديّ، ما علينا سوى الإجابة: ولكن الجحيم ليس من اختراع البشر، وقد يرفض عقلنا وجوده، ولكن الله أدرى بالله من أيّ كان،

وهو الذي أطلعنا على حقيقته، وعلى حقيقة أبديّتنا.

وإن هو أعلن أنّ، ثمّة، فردوسًا أبديًّا، وجحيمًا أبديًّا، فعلينا أن نعتبر بهذا القول، ولا نمضي في اللامبالاة، معتمدين على رحمة الله اللامتناهية واللامحدودة، وإلاّ ضللنا السراط.

ثمّ يقول يسوع لميرنا:

«قولي لأبنائي أن يأتوا إليّ في كلّ ساعة، وليس عندما أُجدِّد عيد أُمّي، فأنا معهم في كلّ وقت».

وإذن، يسوع هنا، وهو يذكّر ميرنا بحقيقة الصليب الكبرى، وبأنّه هو الذي سيتولّى خلاصنا.

ويعيد تأسيس ملكوته من خلال أدوات صغيرة، منها ميرنا؛ فعليها ألاّ تدع الخطيئة توقعها في القنوط، إذ إنّ يسوع كفيلٌ برسم صورته فيها، وفي كلّ خاطئ؛

ومن ثمّ، هو يدعوها، مجدّدًا، الى الصلاة، والى توقّع اعتلانه فيها، من خلال جراحه، لأنّه يرغب في تجديد آلامه، أي إنّه يرغب في أن يؤكّد، من جديد، للإنسان أنّه يبتغي خلاصه.

وخلاص الإنسان، إنّما يتمّ عبر آلام الله، وآلام جميع الذين يشاركونه فداءه؛ وإنّ الربّ معنا.

فعلينا أن نظلّ مُشْرَعين لعمله فينا،

دائمي التأهُّب والحضور.

حضورًا فاعلاً، حقًّا،

لا حضورًا عابرًا، مؤقّتًا.

بعد ذلك جاءنا إنذارٌ أقلقنا. فيوم سبت النور، في ١٨ نيسان ١٩٨٧، قال يسوع لميرنا، أثناء الانخطاف:

«أعْطَيْتُكم إشارةً لتمجيدي».

تمجيد الله، هو، أبدًا، الهدف الأقصى.

«تابعوا طريقكم، وأنا معكم.

وإلاّ...»

وتوقّف.

كلُّ شيءٍ هو لتمجيده.

فلنواصل طريقنا، إرضاءً له، وإلاّ...

وهو معنا،

ووجوده معنا ضمانٌ لبلوغنا غاية المطاف.

«وإلاّ...».

وكم طرح علينا هذا الإنذار من تساؤلات!

ترى لمن هو موجّه؟

الى شخصٍ مُعيَّن، أم لجميعنا؟

لميرنا وحدها، أم لكلٍّ منّا؟

ومع ذلك، فربّما لم نعتبر بإنذار الربّ لنا بالقدر الكافي،

ففي الرسالتَيْن التاليتَيْن، الشديدتي الإيجاز، قال لنا يسوع، أوّلاً في ٢١ / ٥ / ١٩٨٧: «أَحبُّوا بعضُكم بعضاً، وصلّوا بإيمان».

فقوله: «أَحبّوا بعضكم بعضاً» يعني أن محبّتنا المتبادَلة ناقصة،

وقوله: «صلّوا بإيمان» يعني أنّنا لا نصلّي بقدرٍ وافٍ من الإيمان، وربّما قد غدت صلاتنا روتينيّة، جامدة، تحكمها العادة.

ثمّ لا يلبث يسوع، من جديد، بتاريخ ١٤ تمّوز، أن يهيب بنا الى الصلاة، بقوله لميرنا، في صيغة الجمع: «صلّوا، صلّوا، صلّوا».

إنّه يخاطبنا، جميعنا، ويضيف:

«وإذا صلّيتم قولوا: «أيّها الآب، بحقّ جراحات ابنك الحبيب خلّصنا». إلاّ أنّ يسوع كان قد استهلّ هذه الرسالة بقوله، مجدّدًا، لميرنا: «لا تخافي، يا ابنتي، سأُربّي جيلي فيك».

فهو، مرّةً أُخرى، يدعوها الى انتباذ الخوف، وهو حريصٌ على تثقيفها، ولكنّه، من خلالها، يدعونا الى الصلاة،

صلاةٍ موجّهة الى الآب، عبر جراح يسوع، اي عبر فدائه.

فلا خلاص في معزلٍ عن يسوع، وفي منأًى عن جراحه.

وكان يسوع قد قال، في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥، أن لا خلاص للنفس في منأى عن الصليب، وها هوذا يكرّر الحقيقة عينها:

«أيّها الآب بحقّ جراحات ابنك الحبيب خلّصنا».

لا بُدَّ من العبور من خلال الجراح، وإذن من خلال العذراء، فجراح يسوع هي باب الخلاص.

أمّا في الرسالة التالية المبلّغة مساء ١٤ آب ١٩٨٧، فيسوع يعلن ما يمكننا تسميته الأمومة الالهيّة. إنّها رسالة مدهشة، في بساطتها وروعتها:

«إبنتي،

هي أُمّي التي ولدتُ منها،

من أكرمها أكرمني.

ومن نكرها نكرني.

ومن طلب منها نال، لأنّها أُمّي».

قارنوا هذا القول بمَا جاء في الإنجيل: «لو كنتم تعرفوني، لعرفتم أبي أيضاً... من رآني، رأى الآب».

ولكأنّيّ بالربّ، هنا، يرقى بالعذراء، الى مستوى يتعذّر على اللاهوتيّين تخيّله: «من أكرمها، أكرمني».

فكيف لنا، مع هذا، أن نفهم أو نتقبّل ادّعاء البروتستانتيّين، بأنّ التكريم الذي نخصّ به العذراء هو انتقاصٌ من حقّ يسوع بالتكريم؟ يستحيل علينا ذلك.

لا بل إنّ هذا الادّعاء مرفوضٌ حتّى بشريًّا.

فإنّ أيّ تكريم نسديه لأمّ إنسان، أيًّا كان، هو مزيد من التكريم نسديه لابنها.

ذلك ما يوحي به المنطق الصرف، فلنطبّقه على يسوع وأُمّه!

أمّا ادّعاء عكس ذلك، فهو امتهان للمنطق.

«من نكرها نكرني،

ومن طلب منها نال، لأنّها أُمّي».

إنّني أذكر ما كانوا يقولونه لنا، أثناء دراستنا اللاهوت: «إنّ الله، وحده، هو الذي يعطي. قد نستشفع، في استعطائه، القدّيسين، ولكنّه وحده العاطي».

ولكن، يبدو يسوع، هنا، وكأنّه يُزري بلاهوتنا، ويقول:

«عليكم أن تسألوا أُمّي، ولا تخافوا.

إنّها أُمّي، وأنا لا أردُّ لها طلبًا.

«من طلب منها نال».

حتى لو لم توجّهوا إليَّ طلبكم، اطلبوا منها تنالوا».

كم هذا رائع!

أكاد أقول أنّ لاهوت يسوع مُغْرق في الإنسانيّة!

ان لاهوت يسوع إنسانيٌّ وإلهيّ: إنسانيّ الى أبعد حدود الإنسانيّة، وإلهيّ، مع لا تناهيه تعالى.

وكلٌّ منّا، في هذا الوطن العزيز، يعرف ذلك لا شعوريًّا، المؤمن الممارس والفاتر في دينه، يصرخ عند أوّل صعوبة تواجهه: «يا عدرا».

أذكر شابًّا كان غارقًا في حياة المُتعةً. وتعرّض، يومًا، لحادث سيّارةٍ خطير، في جبلٍ حيث كان الثلج والمطر يجعلان السير عويصاً، وإذا بسيّارته تنحرف، وتتّجه صوب هُوَّة وادٍ، فصرخ، غريزيًّا: «يا عدرا».

وقد قال لي، فيما بعد: «لستُ أدري كيف توقّفت السيّارة، آنذاك، توقّفًا مفاجئًا، تامًّا، على شفا الهاوية» ومن الذي استطاع إيقافها؟ «يا عدرا»! وقد أضاف: «مع أنّ حياتي كانت بعيدةً جدًّا عن يسوع ومريم». ومذ ذاك، انقلب ذلك الشابّ انقلابًا جذريًّا، وسلك سراط الربّ.

«إسألوا أُمّي. أُطلبوا منها. أُطلبوا ولا تخافوا».

فهل نحن نطلب منها بالقدر الكافي؟

إنّني أشهد بأسًى كيف غالبًا ما أقصى الغرب العذراء عن حياته. فثمّة الكنائس الخالية من أيّ تمثالٍ أو إيقونةٍ لها. وحتّى المسبحة فقد انتبذها البعض. وقد زارنا، ذات يوم، في دمشق كاهنٌ فرنسيّ. وبعد أن شهد الى أيّ مدى نحن نصلّي المسبحة – إنّني أجد عنتًا في قول تلاوة المسبحة، مع أنّ هذه هي العبارة المصطلح عليها، فالصلاة لا تتلى – قال: «عجبًا أتصلّون المسبحة؟» فأجبته: «نعم، بالتأكيد، نحن نصلّي المسبحة. ولمَ لا نصلّيها؟»

فقال: «ولكنّها عادةٌ اندثرت عندنا» فأجبته: «يا ليتها تعود».

وأيّ عائقٍ دون صلاة المسبحة؟ فجزؤها الأوّل يتألّف من سلام الملاك وأليصابات، كما ورد في الإنجيل! وما الذي يقوله جزؤها الثاني للعذراء؟ يقول: «يا أمّ الله، صلّي لأجلنا، نحن الخطأة، الآن، وفي ساعة موتنا». وقد يكون هذا الآن هو ساعة موتنا، فمن يضمن الدقيقة القادمة؟ إذن نحن نسألها، هي أمّ الله قائلين: «أنظريّ اليّ، انا الخاطئ المسكين. وخذيني بحنانك. وعندما تأزف ساعتي للمثول بين يدي ابنك والهك والهي، أمسكيني من يدي، وامضي بي اليه، شافعةً بي، كي يدينني برأفته، لا بعدْله».

أيّ مانع، أو أيّ عيب في صلاة المسبحة! فنحن نتوسّل الكثيرين من البشر الذين قد نضمر لهم، أحيانًا، الازدراء، ونتوسّلهم لبلوغ مأرب. فعلامَ لا نتوسّل أمَّ الله، التي هي أمُّنا؟

أوَ نظنّ أنّنا لم نعد خطأة؟ قد تكون خطيئة الغرب الكبرى توهّمه أنّه حقّق إنجازًا عظيمًا، بالقضاء على مفهوم الخطيئة!

بالإجمال خلال المرحلة الثانية، شهدنا نوعًا من التصعيد في الرسائل. فالربّ يكشف النقاب، دفعة واحدةً، عن مخطّط الخلاص، ثمّ يفصّله، وكأنّي به يقول:

«إنّني، حبًّا بكم حملت الصليب، فاحملوه أنتم أيضاً،

وصلّوا

وأنتِ، يا ابنتي، سأعطيك جراحي،

فصلّي أنتِ أيضاً».

ثمّ:

«احترموا أمّي، كرّموها، صلّوا لها. هي لكم، هي أمّي وأمّكم».

هاتان كانتا المرحلتين الأوليين من الانخطافات: أولاهما امتدّت من ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٣ حتى ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥، وثانيهما من ٢٦ / ١١ / ١٩٨٦ حتى ١٤ / ٨ / ١٩٨٧.

١٦ – الاثنين ٧ ايلول (السيّد المسيح):

١ – «ماري، ألَسْتِ أنتِ التي اخترتُها، الفتاة الهادئة، التي قلبُها مملوءٌ حبًّا وعطفًا؟

٢ – تبيَّن لي أنكِ لا تقدرين أن تتحمّلي أي شيء من أجلي.

٣ – سأعطيكِ فرصةً لتختاري. وتأكّدي إذا خسرتِني، خسرتِ دُعاء كلٍّ من حولَك. واعرفي أن حَمْلَ الصليب لا بُدَّ منه».

١٧ – عشيّة الذكرى السنويّة الخامسة:
الخميس ٢٦ تشرين الثاني (السيّد المسيح):

«إبنتي،

١ – إنّي أقدِّرِ اختيارَكِ لي، ولكن ليس بالقولِ فقط...

٢ – أريد أن تضمّي قلبي الى قلبكِ الرقيق فتتّحدَ قلوبُنا، بذلك تخلّصين نفوسًا معذّبة.

٣ – لا تكرهي أحدًا، فيعمى قلبُكِ عن حبّي. أحبّي الجميعَ كما أحْبَبْتِني وخصوصاً الذين أبغضوكِ وتكلّموا عليكِ. فعَنْ طريقِهم تكتسبين المجد.

٤ – إستمّري في حياتك زوجةً وأمًّا وأختًا.

٥ – لا تضايقكِ المصاعبُ والأوجاعُ التي ستأتي اليكِ، بل أريد أن تَقْوَيْ عليها، وأنا معكِ، وإلاّ خسرتِ قلبي.

٦ – إذهبي وبشّري في العالم أجمع، وقولي بلا خوف أن يعملوا من أجل الوحدة.

٧ – ولا يُعيبُ الإنسانَ ما تُثمِر يداه، بل ما يُثمِر قلبُه.

٨ – سلامي في قلبكِ سيكون بركةً عليكِ وعلى جميع الذين ساهموا معكِ».

الانخطافات

منعطف

الاثنين ٧ أيلول ١٩٨٧ – الخميس ٢٦ / ١١ / ١٩٨٧

ننتهي الآن الى منعطف، هو منعطف السابع من أيلول ١٩٨٧، الذي كان قد مهَّد له التحذيرُ المُبهم الذي وُجّه لنا، يوم سبت النور، في ١٨ نيسان ١٩٨٧.

أمّا رسالة السابع من أيلول ١٩٨٧، فقد كانت أكثر من تحذير، بل يمكن وصْفُها بالإنذار.

وكانت ميرنا، لدى خروجها من ذلك الانخطاف تنتحب، وقد أجابت الكهنة الذين حاولوا استجلاء واقع الأمر بقولها: «أُخرجوا، فلستُ أُطيق وجود أحدٍ هنا. إن هو كان راغبًا في هجري، فعلامَ اختارني؟ أوَليس الانتحار أولى!»

كم كانت صدمتها شديدة كي تنطق بهذا القول المعبِّر عن مدى انهيارها، بل أكاد أقول يأسها.

أنا، شخصيًّا، لم أكن داخل الغرفة، فلم أسمعها، غير أنّ الأب بولس فاضل هو الذي نقل لي قولها هذا.

وإليكم نصّ الرسالة التي وردت على لسان يسوع:

«ماري (هو اسم ميرنا بالعادة).

«ألستِ أنتِ التي اخترتُها، الفتاة الهادئة، التي قلبها مملوءٌ حبًّا وعطفًا؟

«تبيّن لي أنّك لا تقدرين أن تتحمّلي أيّ شيءٍ من أجلي».

لقد هبطت هذه العبارة الأخيرة على ميرنا، وكأنّها حكم بالإعدام. وقد تابع الربّ:

«سأُعطيك فرصةً لتختاري، وتأكّدي، إذا خسرتِني، خسرتِ دعاء كلّ من حولك. واعرفي أنّ حمل الصليب، لا بدّ منه».

لعلّ ميرنا حاولت، في تلك الفترة، أو لعلّنا، نحن جميعنا، حاولنا التهرّب من حمل الصليب.

فليست ميرنا هي، وحدها، المعنيّة، بل هي، إن صحّ التعبير، مُمثّلةُ مجموعةٍ كاملة. أوَلم نَجْهَدْ، نحن أيضاً، في تحاشي الصليب، في الفرار منه، موهمين أنفسنا أنّنا نحمله حقًّا؟

تلك تجربةٌ يوميّة نتعرّض لها.

وربّما مرّت ميرنا بمرحلةٍ من تلك التجربة أكثر خطورة، ففرك الربّ أُذنها.

شخص واحد خمّن ما حدث، قبل سماعه أيّة عبارة من الرسالة، هو المصوّر، نبيل، الذي كان، هناك، دائبًا على التصوير بلا انقطاع؛ وعندما شهد ميرنا تبكي ذلك البكاء المرّ، التفت صوب زوجها، وقال له: «نقولا، أظنّ أنّ يسوع قد فرك أذن زوجتك». وعندما اطّلعنا على الرسالة، قلنا: «لقد كان نبيل على صواب».

كان يسوع قد أكّد، في إنجيله، بوضوح لا لُبْس فيه، أنّ إنكار الذات وحمل الصليب هما الشرط الأساسيّ لاتّباعه؛ ومذّاك، لم يكفّ يشدّد على تلك الحقيقة، من خلال إيحاءاته ورسائله لأوليائه، عبر القرون، وها هوذا يعود فيؤكّدها لنا، ولكأنّي به يقول: إنّ شرط إنكار الذات وحمل الصليب هو هو اليوم، مثلما كان دائمًا، لا مساومة فيه، ولا تنازل، ولا مزاح.

مذّاك، راحت ميرنا تكشّف صلاتها؛ ونحن، أيضاً، أخذنا نقرع صدورنا معترفين: «لقد آن لنا أن نعيش، بكثافةٍ أشدّ، حياة الصلاة، والمحبّة، والخدمة».

ولحسن طالعنا، رئف الربّ بنا، ولولا رأفته لكنّا هوينا الى دَرَكٍ مريع، ولكُنّا غدونا، في أعقاب أربع سنوات، أُضحوكةً مخزية، ومضغةً في فم الجميع. فتخيّلوا موقفنا، وموقف ميرنا، لو توقّف كلّ شيء، بعد كلّ تلك الأحداث الرائعة. إذن لقال الناس: من المؤكّد أنّ كلّ ذلك كان خديعةً وبهتانًا، أو ربّما قالوا: «أنظروا، ها إنّ الربّ نفسه يتخلّى عنهم، فماذا بقي، إذن، لهؤلاء التّعساء؟»

وكنّا نتوقّع الإجابة على ذلكم الإنذار الرهيب، في قلقٍ جمّ، مساء ٢٦ / ١١ / ١٩٨٧.

يومها كان الأب لورانتان حاضرًا؛ وقد بلّغ الربّ رسالةً لميرنا، فأثنى عليها لكونها اختارته، ولكنّه دعاها الى مزيدٍ من الإيمان والمحبّة في حياتها اليوميّة، وحثّها على الدعاء من أجل الذين يضطهدونها، ووعدها بالمجد، عن طريقهم، كما عاد فحرّضها على أن تكون قويّة في مواجهة الصّعاب، وأمينةً لوضعها كزوجةٍ وأُمّ، وأُختٍ لمن يأتون اليها. ومرّةً أُخرى، أعلن لها رسالته الكبرى، إلاّ أنّه، في هذه النوبة، أوكل اليها حمل تلك الرسالة الى العالم أجمع:

«إذهبي وبشّري في العالم أجمع، وقولي، بلا خوف، أن يعملوا من أجل الوحدة».

ذاك كان المنعطف الكبير، وأيّ تحوّل قد مثّل!

لقد سحب الربّ إنذاره، حبًّا بنا، وحبًّا بذاته

وها هوذا ينتدب ميرنا لرسالة:

«إذهبي وبشّري».

هذا الأمر: «إذهبي وبشّري»، التقطه، فورًا، طبيبٌ اتّصل هاتفيًّا من الولايات المتّحدة، هو الدكتور انطوان منصور، وطلب الاطّلاع على الرسالة، فتُليت عليه. وما هي سوى برهةٍ وجيزة حتى اتّصل، مُجَدَّدًا، ليقول: «حسن، سننفّذ أمر الربّ. إنّني أدعوكم، وسيبدأ التبشير من الولايات المتّحدة».

رسائل إنخطافات عام ١٩٨٨

١٨ – الأحد ١٤ آب في لوس أنجلس بالولايات المتحدة (السيِّد المسيح):

«أبنائي،

١ – سلامي أعطيتكم، لكن أنتم أيَّ شيءٍ أعطيتُموني؟

٢ – أنتم كنيستي، وقلبكم ملكٌ لي. إلاّ إذا هذا القلب امتلك إلهًا غيري.

٣ – لقد قلت: الكنيسة هي ملكوتُ السمواتِ على الأرض، من قسَّمها أخطأ، ومن فرح بتقسيمها، فقد أخطأ.

٤ – فَأهُونُ عليَّ أن يَدين كافرٌ باسمي على الذين يدّعون الإيمانَ والمحبّة ويحلفون باسمي.

٥ – عليكم أن تفتخروا بالله وحده.

٦ – صلُّوا من أجل الخطأة الذين يغفرون باسمي، والذين ينكرون أميّ.

٧ – أبنائي، أعطيتكم وقتي كلَّه، أعطوني جزءًا من وقتكم».

١٩ الأربعاء ٧ ايلول (السيِّد المسيح):

«إبنتي،

١ – لقد قلت لك: بأن تَقْوَي على جميع المصاعب، واعلمي بأن لم يمرَّ عليكِ إلاّ القليلُ منها.

٢ – قولي لأبنائي بأنّني أطلبُ منهم الوحدة، ولا أريدها من الذين يمثّلون عليهم بأنّهم يعملون من أجل الوحدة.

٣ – إذهبي وبشّري.

٤ – وأينمَا كنتِ فأنا معكِ».

٢٠ – الاثنين ١٠ تشرين الأول في كنيسة مار جريس (في معاد بلبنان) (السيِّد المسيح):

«إبنتي ماري،

١ – لماذا تخافين وأنا معكِ؟

٢ – عليكِ أن تتكلمي، وبصوتٍ عالٍ، بكلمةِ الحقِّ عن الذي خَلَقَكِ لِتَظهرَ قوَّتي فيكِ.

٣ – وأنا سأعطيكِ من جراحاتي لتَنْسيْ عذاباتِ البشرِ لكِ.

٤ – لا تختاري طريقَكِ، لأنّي أنا رسمتُها لَكِ».

الانخطافات

المرحلة الثالثة

الأَحد ١٤ آب – الاثنين ١٠ تشرين الأَوّل ١٩٨٨

هنا يبدأ ما أُسمّيه مرحلة الرسائل الثالثة.

ميرنا ونقولا شَخَصا الى الولايات المتّحدة، ومكثا فيها ستّة أَشهر؛ وفي لوس أنجلس، جدّد الربّ رسالة الصوفانيّة، من خلال الزيت الذي انسكب، ومن خلال الرسالة التي بلّغها عشيّة عيد انتقال العذراء، أي في ١٤ آب ١٩٨٨، أَثناء انخطاف حدث في نهاية القدّاس، الذي تمّ الاحتفال به في منزل الدكتور أَنطوان منصور.

وهنا قال يسوع:

«ابنائي، سلامي أَعطيتكم، ولكن، أَنتم، أَيّ شيءٍ أَعطيتموني؟» ولكأَنّ يسوع، هنا، يحاسب. أَوَلا يحقّ له، بعد سبع سنوات، بل ثمانٍ، أَن يسأل: «ماذا فعلتم!»

سؤالٌ يتردَّد، وله اليوم صدى أَكثر إقلاقًا من ذي قبل. فالذين رأَوا آيات الصوفانيّة، وظفروا معها بنِعَمٍ حُرِم منها الكثيرون، هل استجابوا حقًّا لمبادرته تعالى؟

أَمّا أُولئك الذين أَقعدهم الحذر والجبن عن الاشتراك في مشاهدة عجائبه تعالى، ما عساهم بَعدُ ينتظرون، وقد اقتحم الربُّ عقر ديارنا؟ أَأَوصدوا دونه الأَبواب؟

«سلامي أعطيتُكم، ولٰكن، أنتم، أيّ شيءٍ أعطيتموني؟

«أنتم كنيستي، وقلبكم ملك لي، إلاّ إذا هذا القلب امتلك إلهًا غيري».

تلاحظون هذه الموازنة التي يقيمها الربّ:

«أنتم كنيستي، وقلبكم ملك لي إلاّ إذا...

«سلامي أعطيتكم ولكن، أنتم، ماذا أعطيتموني؟»

ثمّ إنّه يتابع القول:

«لقد قلت: الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض، من قسّمها أخطأ، ومن فرح بتقسيمها فقد أخطأ».

ثم ينتهي الى القول:

«فأهون عليّ أن يدين كافرٌ باسمي، على الذين يدّعون الإيمان والمحبّة، ويحلفون باسمي».

إنّه لإقرارٌ بواقع يدعو الى أعمق الأسى، مثلما هو تأنيبٌ شديد.

وهو كذلك لأنّه يتّفق وما عشناه في الصوفانيّة.

فكم من الذين كانوا عن الله في منأى، ولكنّهم استسلموا له، بين ليلةٍ وضحاها، وأسلموا له ذواتهم، فظفروا بالفرح، والسلام، والتحرُّر في الربّ، كما أنّهم اكتشفوا مبرّرًا لوجودهم، في حين أنّ الكثيرين ممّن يدّعون تمثيل الربّ، والإيمان به، ما انفكّوا يرفضون الصوفانيّة ويعارضونها، في كثيرٍ من الازدراء والصَّلَف.

أجل، لقد شاهدنا عددًا ممّن يتبوّأون، في الكنيسة، أسمى المناصب، مقيمين على عنادهم في رفض كلّ الإشارات التي أومأ الينا بها الربّ.

هذا التأنيب يبدو وكأنّه يعبّر عن وقْرٍ باهظ يرين بثقله على قلب يسوع، كما تُظهر تتمّةُ الرسالة، حيث يقول:

«عليكم أن تفتخروا بالله وحده».

أجل، بالله وحده!

ثمّ إنّ يسوع يمضي قُدُمًا في إيضاح ما يرمي اليه، في الفقرة التي تلي مباشرة: «صلّوا من أجل الخطأة الذين يغفرون باسمي، والذين ينكرون أُميّ».

ومن هم الذين يغفرون باسم يسوع؟ أليسوا هم الذين أُعطوا سلطة الغفران؟ إنّهم، في الكنيسة الكاثوليكيّة، وفي الكنيسة الأورثوذكسيّة، رجال الإكليروس، أيّةً كانت رُتَبُهم: الكهنة، والأساقفة، والبطاركة، والحبر الأعظم. هم وحدهم يغفرون باسم يسوع.

ويسوع يذكّرنا بأنّنا خطأة، حتى لو أُعطينا أن نغفر باسمه، لا بل نحن أكثر تعرُّضاً للخطيئة، من جرّاء هذا الامتياز الذي أُعطيناه.

ويختم يسوع رسالته بعبارةٍ مقلقة، فلكأنّه، حيالنا، يستعطي:

«أبنائي، أعطيتكم وقتي كلّه، أعطوني جزءًا من وقتكم».

لا ريب أنّ الله لا يفتقر الى شيء، وأنّ الكون بأكمله لا يُعطيه شيئًا،

ومع ذلك، هو يسألنا جزءًا من وقتنا.

وإن لم يكن ذلك من أجلنا، فمن أجل من يكون؟

وما شأنه، هو، بوقتنا؟

إنّ الأبديّة والأزل ملك يديه

ومع ذلك يسألنا شيئًا من وقتنا،

عسانا، بفضل هذا الوقت الذي نهبه إيّاه، نكتشف ذواتنا، ونعثر على الربّ، فنكون، حقًّا، أبناء له،

لا أبناء هذا العالم، غارقين في هذا العالم، وغير مبصرين سواه.

وجديرٌ بالتذكير أنّ هذه الرسالة قد بُلّغت في لوس أنجلس، وقد بدا لنا أنّ الربّ، من خلال الصوفانيّة، يقصد الأميركيّين، في المقام الأوّل. فلئن وُجد نمط عيش يُمثّل هذا الأسلوب في الاندماج بالعالم، فهو نمط العيش السائد في الولايات المتّحدة.

ولكن من الجليّ أنّ الربّ يخاطبنا جميعنا، فنحن، جميعنا، مهدَّدون بهذه الحضارة، الحضارة الغربيّة المزعومة، التي تبلغ ذروتها في الولايات المتّحدة، ولكن لا يأمن أحدٌ شرورها، والتي شرعنا نلمس عواقبها لدينا. فقد بات الحيّز الذي يشغله الله في حياتنا يتضاءل يومًا فيومًا، ولا ينبغي يتضاءل باطّراد. إنّني عندما أتنقّل هنا في باريس، أتساءل: «أين يمكن أن يقيم الله، إن لم يكن في قلوب فئةٍ قليلة، وفي بعض بيوتٍ متواضعة، في بعض أديرة، أو في جماعات الصلاة الضئيلة العدد التي تمثّل جُزُرًا صغيرةً وسط محيطٍ رحب من الوثنيّة والماديّة؟»

في السابع من أيلول ١٩٨٨، بدأ فصلٌ جديد في هذه المرحلة الثالثة. وكانت ميرنا قد عادت الى دمشق في ٦ أيلول، بعد أن عانت، في الولايات المتّحدة، آلامًا جمّة. وقد قاستها في صمتٍ وكتمان.

وقد كشفت لنا، فيما بعد، في دمشق، النقاب عن الكثير ممّا عانت، وأكاد أقول إنّها فعلت ذلك مرغمة، كي تستطيع أن تفسّر لنا جوهر الرسالة التي تبلّغتها في ٧ أيلول. ففي ذلك اليوم، قال لها الربّ:

«ابنتي، لقد قلت لك بأن تقوي على جميع المصاعب، واعلمي بأن لم يمرّ عليك إلاّ القليل منها».

وهذا يعني: تأهّبي.

فالربّ ما انفكّ يثقّفها، ويُعدّها.

ثمّ إنّه يتلفّظ بعبارةٍ تبدو وكأنّها صفعة:

«قولي لأبنائي بأنّني أطلب منهم الوحدة، ولا أريدها من الذين يمثّلون عليهم بأنّهم يعملون من أجل الوحدة».

لقد وجدنا هذه العبارة من الصرامة بحيث خُيّل الينا، الأب معلولي وأنا، أنّ ميرنا قد تكون أخطأت في نقل الرسالة؛ فتلوتُ تلك العبارة، مُجدّدًا على مسامعها، وطلبتُ منها أن تنصت باهتمام اليها، وتفيدنا إن هي قد نقلتها بدقّةٍ أم أساءت نقلها. ولكنّها، لدى سماعها إيّاها أكّدت، أمام جميع الحاضرين: «هذا، بالضبط، ما سمعتُه».

وفي الغداة، حملتُ تلك الرسالة الى بطريرك السريان الأورثوذكس، فقرأها وقال: «إنّ الربّ خبيرٌ بنا، ويَصِفُنا كما نحن». وبعد فترةٍ أطلعتُ عليها أسقفًا آخر، هو المطران جورج هافوري، فقال، بدوره: «إنّ الربّ يعرفنا. هذا صحيح».

ثمّ يتابع يسوع رسالته فيقول لميرنا، أيضاً: «إذهبي، وبشّري!»

«إذهبي، وبشّري».

إنّها كانت عائدةً لتوّها؛ فقد وصلت الى دمشق، في اليوم السابق، السادس من أيلول مساءً. وفي السابع منه، يقول لها الربّ: «إذهبي، وبشّري»، ولكأنّي به يريدها ألاّ تكفّ تذرع الطرق، في كلّ اتّجاه.

ويضيف: «وأينما كنتِ، فأنا معك».

إنّ يسوع يريد ميرنا دائبةً، أبدًا، على مهمّة الرسالة.

ولكن، أوَليست تلك مهمّة كلّ مسيحيّ؟

وما انقضت أيّام معدودات، حتّى شخصت ميرنا الى لبنان، حيث كانت مدعوّةً. وفي لبنان، جرت أحداثٌ كثيرة، منها واحدٌ كان مدهشًا. فقد كانت ميرنا تحضر القدّاس، يوم الأحد العاشر من تشرين الأوّل ١٩٨٨، في كنيسة القدّيس جاورجيوس، في قرية معاد. وبعد انتهاء القدّاس، عادت الى الكنيسة، حيث يوجد صليبٌ من جصّ، تحبّه كثيرًا. فجثت أمامه، ولم تعد تعي شيئًا.

وراح الناس يبحثون عنها؛ ووافى بعضهم الكنيسة، حيث وجدوها تحت الصليب، ومن قدمي المصلوب، كان الزيت ينسكب على رأسها المحنيّ تحت رجلي يسوع المصلوب. كان الزيت ينسكب حتّى الأرض؛ وقد صوّر بعضهم المشهد بأكمله، طيلة نصف ساعة، بكاميرات الفيديو.

ولمّا خرجت من انخطافها، قالت لهم ميرنا: «لقد رأيت نورًا، وسمعت صوت يسوع يقول:

«ابنتي ماري،
لماذا تخافين، وأنا معك؟»

لايني الربّ يؤكّد: «أنا معك».

«عليك أن تتكلّمي، وبصوتٍ عالٍ، بكلمة الحقّ عن الذي خلقك، لتظهر قوّتي فيك.

«وأنا سأُعطيك من جراحاتي لتنسيَ عذابات البشر لك،

«لا تختاري طريقك لأنّي، أنا، رسمتها لك».

حيالَ عمق هذه الرسالة وروعتها يقف المرء مذهولاً.

إنّ الخوف لا يبارح ميرنا، رغم كلّ ما رأت، وكلّ ما تعيش. فالإنسان يبقى إنساناً، وميرنا تتألّم من أقوال الناس فيها، وهي ما زالت، حتى الآن، تتألّم.

إنّ الربّ معها، وهي تعلم ذلك. بيد أنّها تدرك، أيضاً، كم هي محدودة.

إنّها تتحاشى عن الكلام؛ فإذا ما طُرح عليها سؤال، وكان زوجها أو كهنة حاضرين، أجابت: «إسألوا نقولا» أو «إسألوا أبونا، فأنا لا أعرف شيئًا». إنّها، عادةً، تتصرّف، وكأنّ حَدَث الصوفانيّة لا يمتّ لها بصلة، وكأنّ لا شأن لها به. ولكن، إذا ما حوصرت، وقُسِرت على الكلام، أو إذا كانت وحدها – وقد شاهدت ذلك في صور فيديو – فهي تنطق بكلام مذهل. وهي نفسها، عندما تستمع الى تسجيل أقوالها تتساءل: «ولكن كيف استطعت أن أتكلّم هكذا؟». ففي الواقع، ليست هي التي تتكلّم.

ولذلك قال لها الربّ: «عليك أن تتكلّمي، وبصوتٍ عالٍ، بكلمة الحقّ، عن الذي خلقك، لتظهر قوّتي فيك».

وهذا يقودنا الى جوهر المسيحيّة.

فالله يرتضي بالصغار الذين يتقبّلونه.

ومن خلال هؤلاء الصِّغار يُظهر كلّ عظمته وقدرته.

هكذا كان، أوّلاً، في العهد القديم.

أمّا في العهد الجديد، ففي نظرنا السيّدة العذراء القدّوسة هي الخادمة المطلقة، وهي المتناهية الصغر،

فهي تعدّ نفسها أَمَةً حقيرة، مع أَنّها أُمّ الله.

وميرنا تلمس حدودها، وتخبر وَهنها وخوفها.

ولكن الربّ يقول لها: «لا عليك، تكلّمي».

إنه يرغمها على الكلام.

ثمّ إن الربّ يتلفّظ بهذه المفارقة:

«لا تختاري طريقك، لأنّي، أنا، رسمتها لك».

نحن نعلم كم الربّ يحترم الحرّيّة البشريّة.

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الحرّيّة، وخياره هو؟

هو، وحده، يعرف السبيل الى هذا التوفيق.

وأَعتقد أَنّ كلاً منّا، مهما كانت خبرته مع الربّ ضئيلة، عندما ينظر الى الوراء، لا يتولّد لديه انطباعٌ فحسب، بل يقينٌ بأَنّ الربّ كان يمسك بيده، وأَنّ يمينه هي التي كانت تقودنا، في فتراتٍ معيّنة، في حين كان يُخيّل إلينا أَنّنا كنّا نعمل بأنفسنا، بمبادرةٍ منّا، وبوحي عقلنا.

أنا لستُ أقول ذلك انتقاصاً من قدرات الإنسان،

كلاّ،

ولا أُريد استصغار طاقات الإنسان الجمّة،

ولكنّني أودّ الإقرار بأنّ الإنسان مهما فعل، يظلّ محدودًا جدًّا،

وهذا ما يعرفه الربّ وحده، فهو، وحده، يعرف الإنسان.

وبذلك نعود الى العبارة الأُولى التي وردت على لسان العذراء، في رسالتها الأُولى بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٩٨٢: «أنتم تعرفون كلّ شيء، ولا تعرفون شيئًا. معرفتكم معرفة ناقصة».

فمهما بلغت معارف الإنسان، أعتقد أَنّ الكائن الذي لا يعرفه إلاّ معرفة ضئيلة هو ذاته،

فكم بالأحرى الآخرون الذين يتوهّم معرفتهم.

ولذلك، من الأفضل، دائمًا، ألاّ يُصْدرَ الإنسان أحكامًا، وأن يحاول العيش في المحبّة.

ولو أنّ ذلك شبه متعذّر، كما علّمتني التجربة.

فكم من مرّة ابتهلت الى الربّ، «ربّي، ساعدني على ألاّ أدين الآخرين، بل على أن أحبّهم فحسب».

بيد أنّ تعرّضك لمواجهة العديد من الأشخاص والأشياء، حتى داخل الكنيسة، قد يدفعك الى إصدار أحكام، وقد تفعل ذلك، وأنت في غفلةٍ عن نفسك؛ وتحاول تحاشيه بابتهالك الى الربّ أن يجعلك في حالة محبّةٍ فحسب، ولكنّك، رغمًا عنك، تجد نفسك وقد عدت الى حالة إصدار أحكام.

وربّما أنت تفعل ذلك كي تتبيّن إن كنت في السراط السويّ، وإن كان عملك يرضي الربّ أم لا، إن كان يخدم الربّ أم لا،

وهكذا تُلغي نفسك، وأنت تصدر الأحكام على ذاتك وعلى الآخرين، ولو لم تقصد إصدارها.

وها إنّ الربّ يقول لنا:

«لا تختر طريقك، لأنّي، أنا، رسمتها لك».

٢١ – عشيّة الذكرى السنويّة السادسة
السبت ٢٦ تشرين الثاني (السيّد المسيح):

«أبنائي،

١ – هل كلُّ ما تفعلونه هو حبٌّ بي؟

٢ – لا تقولوا ماذا أفعل، لأنَّ هذا هو عملي.

٣ – عليكم بالصوم والصلاة، لأنَّكم بالصلاةِ تواجهون حقيقتي وتجابهون كلَّ الضربات.

٤ – صلُّوا من أجل الذين نسوا وعدَهم لي لأنَّهم سيقولون: لماذا لم أشعر بكَ يا ربِ وأنتَ كنتَ معي؟

٥ – كلُّ ما أريد هو أن تجتمعوا كلُّكم فيَّ، كما أنا في كلِّ واحدٍ منكم.

٦ – أما أنتِ يا ابنتي فسأتركُكِ.

٧ – لا تخافي اذا طالَ عليكِ سماعُ صوتي، بل كوني قويَّةً، ولسانُك سيفٌ ينطقُ باسمي.

٨ – تأكَّدي أنَّني معك ومعكم جميعًا».

رسائل إنخطاف عام ١٩٨٩

٢٢ – الجمعة ١٨ آب في لوس أنجلس بالولايات المتّحدة (السيّدة العذراء):

١ – «لا تخافي يا ابنتي، هذا كلُّهُ ليتمجَّدَ اسمُ الله.

٢ – بل افرحي لأنَّ الله سمحَ لكِ أن تأتي اليَّ لأقولَ لكِ: لا يهمُّكِ ما يقالُ عنكِ، بل كوني دائمًا بسلام لأنَّ الخليقة تنظرُ اليَّ من خلالكِ.

٣ – قولي للجميع أن يكثروا من الصلاة لأنَّهم بحاجةٍ الى الصلاة لارضاءِ الآب.

٤ – بركةُ الله تحلُّ عليكِ وعلى جميعِ الذين ساهموا معكِ لمحبَّته».

٢٣ – عشيَّة الذكرى السنويَّة السابعة
الأحد ٢٦ تشرين الثاني (السيّدة العذراء)

«أولادي،

١ – قال يسوع لبطرس: أنتَ الصخرة، وعليها سأبني كنيستي.

٢ – وأقول أنا الآن:

أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيَّته.

٣ – أريد أن تخصّصوا صلواتكم من أجل السلام، من الآن حتّى ذكرى القيامة».

رسائل إنخطافات عام ١٩٩٠

٢٤ – سبت النور ١٤ نيسان ١٩٩٠ (السيِّد المسيح)

«أبنائي،

أنتم ستعلّمون الأجيال كلمة الوحدة والمحبّة والإيمان.

أنا معكم.

لكن يا ابنتي، لَن تسمعي صوتي إلا والعيد واحد».

٢٥ – الأربعاء ١٩٩٠/٨/١٥ – بلدة براسكات / بلجيكا (السيِّدة العذراء)

«أبنائي،

صلّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق، لأنّكم كلُّكم أخوة بالمسيح».

٢٦ – عشيَّة الذكرى السنويَّة الثامنة
الإثنين ١٩٩٠/١١/٢٦ – (السيِّدة العذراء)

«لا تخافي يا ابنتي، إذا قلتُ لكِ بأنْ هذه آخر رؤيا، إلى أن يتوحّدَ العيد. إذًا قولي لأبنائي: هل يريدون أن يروا ويتذكّروا جراحات إبني فيكِ، أم لا؟ فإذا هان عليهم أن تتألّمي مرّتين، فأنا أمٌ لا يهون عليّ أن أرى إبني يتألّم مرّات.

كوني بسلام، كوني بسلام، يا ابنتي،

تعالي ليعطيكِ السلام، حتى تتمكني أن تنشريه بين البشر. أما الزيت فسيبقى يظهر على يديكِ تمجيد ابني يسوع متى يشاء، وأينما ذهبتِ. فإنّا معكِ ومع كل واحد يتمنّى أن يكون العيد واحدًا».

الانخطافات

المرحلة الرابعة

السبت ٢٦ / ١١ / ١٩٨٨ – الإثنين ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠

هنا يبدأ ما دعوناه المرحلة الرابعة من الانخطافات.

ففي ٢٦ / ١١ / ١٩٨٨، قال يسوع لميرنا:

«كوني قويّة، ولسانك سيف ينطق باسمي».

إنّها لغة أنبياء العهد القديم.

فميرنا، تلك التي تكاد لا تعرف الإجابة على سؤال، والتي إذا أُنِّبَتْ لا تستطيع الردّ، بل تلوذ بالصمت، لها يقول الربّ:

«وليكن لسانك سيفًا ينطق باسمي».

ثُمّ يمضي الربّ قُدُمًا في مطالبته بالوحدة،

الصلاة، والمحبّة والوحدة.

وقد أَوْجز مقتضياته الخاصّة بالوحدة في مطلبين، أحدهما يتعلّق به فقط، فيما يتّضح أنّ الآخر من شأن البشر.

وإليكم المطلب الأوّل المتعلّق به:

في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٩، رأت ميرنا، أثناء انخطاف، السيّدة العذراء التي بلّغتها رسالةً مدهشة، إذ قالت لها:

«قال يسوع لبطرس، أنتَ الصخرة، وعليها سأبني كنيستي،

«وأقول أنا، الآن: أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّته».

أيّ تكاملٍ في هذه المقابلة! فانطلاق المسيحيّة، ارتكز على بطرس (الصخرة)، والآن، ها إنّ مسيحيّة متجدّدة، ملتزمة بنفس الوفاء للربّ، تنطلق، ولكن أساسها ومرتكزها قلب البشر.

«وأقول أنا، الآن: أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّتهُ».

يسوع، هو، أبدًا، من يعمل ويبني، لا نحن.

يسوع قد بنى كنيسته على صخرة بطرس،

وها هي ذي العذراء تقول لنا الآن إنّه سيبني وحدانيّته في قلوبنا.

أمام صيغة هذه الرسالة وفحواها، يقف الإنسان حالمًا. فالأُسلوب هو أُسلوب «عظة الجبل». ففي تلك العظة عزا يسوع لنفسه حجمًا ودورًا، فيما يتعلّق بخطط الله الخلاصيّة، لم يكن ليتخيّلها معاصروه ومستمعوه؛ وأنا أرى أن العذراء مريم تعزو لذاتها دورًا في تنفيذ الإرادة الإلهيّة بشأن عودة الكنيسة الى وحدتها الأصليّة، لا يتخيّله معاصرونا.

وثمّة، من جانب آخر، استخدام لفظة «الوحدانيّة»، التي تعني أكثر من الوحدة، وتتجاوزها عمقًا، ولكأنّها أكثر جوهريّة. فيسوع وحيد؛ وعلى صورته، ينبغي أن يكون قلب المؤمنين وحيدًا. إنّ الوحدة تحتمل، إن لم نقل تقتضي تعدُّدًا في المؤسّسات، وفي أساليب التعبير عن الإيمان والحياة. ولكن، فيما يختصّ بالقلوب، لا يجوز أن يسود فيها سوى وحدانيّة الإيمان والمحبّة. فإزاء يسوع المسيح الأوحد، ثمّة قلبٌ أوحد يجمع من يُحبُّ بعضُهم بعضاً.

من المؤكّد أنّ مثل هذا الكمال، على المستوى البشريّ، مستحيل. ولكن من قال أنّه عمل بشر؟ إنّ يسوع هو صاحب العمل، وهذا ما تذكّرنا به العذراء مريم. إنّه هو الذي «سيبني وحدانيّته»، وقد آن لنا أن ندرك هذه الحقيقة.

إنّ المبادرة مبادرته، والعمل عمله، وما نحن سوى أدوات بين يديه.

وما يطلبه منّا المسيح هو أن نكون أكثر استجابةً، بالصلاة، لكي يحقّق عمله فينا.

ولنستجلِ، الآن، ما يطلبه يسوع ومريم من البشر، في مضمار الوحدة، وما قصراه على الحدّ الأدنى من المطالب، من خلال الرسالتين التاليتين:

فيوم سبت النور، ١٤ نيسان ١٩٩٠، بعد أن قال يسوع لميرنا: «أبنائي، أنتم ستعلّمون الأجيال كلمة الوحدة، والمحبّة، والسلام» انتهى الى القول:

«أنا معكم،

«لكن، يا ابنتي، لن تسمعي صوتي إلاّ والعيد واحد».

منذ ثماني سنوات، لم يكفّ يسوع يطالب بالوحدة؛

ويبدو، الآن، أنّه يحصر طلبه في توحيد تاريخ العيد، عيد الفصح، وكأنّه يقول: «لقد ضننتم عليّ بالوحدة، فأعطوني، أقلّه، توحيد العيد،

هذا أقلُّ ما أطلبه منكم

إنّ الوحدة الحقّة، الوحدة العميقة، ليست مهمّتكم،

أمّا توحيد تاريخ العيد، فبوسعكم تحقيقه، ولا سيّمَا وأنّه قد تحقّق هنا وهناك، في مناطق شتّى من الشرق العربيّ».

ثمّ، بعد فترةٍ وجيزة، أي في ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠، قالت السيّدة العذراء لميرنا:

«لا تخافي، يا ابنتي، إذا قلت لك بأنّ هذه آخر رؤيا الى أن يتوحّد العيد».

ولكأنّي بالربّ قد طالب، وطالب، وطالب،

واتّضح له، أخيرًا، أنّ ما من مجيب،

فقال: «حسن، تصدَّقوا عليّ، إذن، على الأقلّ، بتوحيد العيد، عيد الفصح».

ولا يتوقّف الربّ عند ذلك، بل إنّه يبلّغ ميرنا، مُجَدَّدًا، على لسان العذراء، أنّه، أبدًا، معها، ومع جميع الذين يريدون توحيد كنيسته وعيده.

ويترك لها إشارة، هي إشارة الزيت على يديها:

«أمّا الزيت، فسيبقى يظهر على يديك، لتمجيد ابني يسوع متى يشاء...»

إذن، العلامة هي ماثلةٌ أبدًا،

ولكن لتمجيد الربّ فقط.

وهكذا نعُود الى نقطة البدء: «أُذكروا الله، فالله معنا».

وإذا كان الله هنا، حاضرًا، فعلى حياتنا أن تتبدّل.

ولْنَعُدْ الآن بمزيدٍ من التفصيل الى هذه المرحلة الرابعة.

في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٨ كانت ميرنا في دمشق، وكما أسلفت القول، كان كثيرون يتساؤلون عمّا يتوجّب فعله في مضمار توحيد الكنيسة. لا بل كان يبدو للبعض أنّ الصوفانيّة قد زادت في شقّ الكنيسة، أكثر ممّا هي أسهمت في توحيدها، فهل هذه هي، حقًّا، إرادة الربّ، وهل هو يرتضي انقسامًا جديدًا يُضاف الى كلّ الانقسامات الموجودة؟

ومع كلّ محاولاتنا إقناع من توجّسوا انقسامًا جديدًا في الكنيسة، أنّ حَدَث الصوفانيّة ما زال في مُسْتَهلّه، وأنّ مخطّطات الربّ تتخطّى كثيرًا رؤيتنا الحسيرة، إلاّ أنّ الناس كانوا يُلحّون في سبيل اتّخاذ خطوات فعليّة:

وقد جاءت رسالة ٢٦ / ١١ / ١٩٨٨، كي تضع النقاط على الحروف، وتذكّرنا بأمْرَيْن جوهريَّيْن: أنّ الربّ معنا، وأنّه يقتضي منّا أن نكون فيه مثلما هو فينا، على حدّ قوله.

غير أنّ تحقيق إرادة الربّ، ولا سيّمَا فيما يتعلّق بوحدة الكنيسة، لا قِبَلَ لنا، نحن، به. ولكأنّ يسوع كان يفهمنا، بأسلوبٍ مُهَذَّب: «إنّ تاريخ ماضيكم من الاكفهرار والارتباك بحيث، بشريًّا، يتعذّر عليكم الانعتاق منه، والتحرّر،

فدعوني اضطلع بالمهمّة.

كلّ ما أطلبه منكم هو أن تصوموا وتصلّوا.

وما سوى ذلك، فهو شأني».

وقد تضمَّنَت الرسالة عبارتَيْن على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة، يقول الربّ في أولاهما:

«كلُّ ما أُريدُ هو أن تجتمعوا كلُّكم فيّ، كما أنا في كلِّ واحدٍ منكم».

ويقول الربّ لميرنا، في العبارة الثانية: «تأكَّدي أنّي معك، ومعكم جميعًا».

والربّ يقول، أيضاً، لميرنا أقوالاً أُخرى، مثل:

«لا تخافي إذا طال عليك سماع صوتي، الخ...

أمّا القول الجوهريّ، على صعيد الكنيسة، فهو التالي:

إنَّ الربَّ معنا، لا بل هو فينا،

ويُريد أن نكون نحن، أيضاً، فيه.

وإذ يعلم عجزَنا عن أن نكون فيه، لا بل جهلَنا أنّنا فيه، ما لم يُؤكِّد، هو، لنا ذلك – وكم يحدث لنا، من جرّاء أوضاعٍ شخصيّة أو جماعيّة، ولألف سبب وسبب، أن يستولي علينا شعورٌ بأنّنا منفصلون عن الربّ، فنظنّ أنّنا بعيدون عنه،

وإذ إنّه يعلم ذلك، يقول لنا:

«أنا معكم».

إنّ حبّه للإنسان يتخطّى الإدراك.

فحتّى لو أنا قلت له: «يا ربُّ، ابتعد عنّي، فليس لي فيك رغبة، وأودّ القيام بأعمال معاديةٍ لك».

يجيب: «مهما فعلتَ، فأنا فيك».

أجل، مهما فعلت فأنا فيك، ولست فقط معك؛

وإليكم العبارة التي أوجز بها رسالته:

«كلُّ ما أُريد» – إنّه لم يستخدم تعبيرًا آخر –

«كلُّ ما أُريد هو أن تجتمعوا كُلّكم فيّ، كما أنا في كلِّ واحدٍ منكم».

وإنّه لممّا يفعم القلب حبورًا وثقةً، أن نعلم أن الربّ حاضر، وأنّه يؤكِّد وجوده فينا.

بالرغم من جميع أوهاننا، سواء الشخصيّة أو الجماعيّة،

وأنّ هذا هو كلّ ما يريد.

ولكن أيّ جمال يجده الربّ لدينا، فيرغب في الاقامة فينا، وهو الجمال اللامتناهي، وما عساه واجدٌ فينا؟

ذلكم هو سرُّه، ويا له من سرّ!

ولذلك يبدو وكأنّه يقول لنا: «أنتم لا تدركون، ولا تعلمون ما يتوجّب عليكم فعله،

فعلى الأقلّ، افعلوا ما أنتم عليه قادرون؛ وما أقوله لكم: «صوموا وصلّوا» أنا لا أقتضي منكم فوق ذلك».

وقد كانت لنا تلك الرسالة عبرةً كُبرى.

ثمّ توالت رسائل أُخرى،

وعادت العذراء تظهر لميرنا، بعد انقطاع أو غياب تمادى أربع سنوات، وأربعة أيّام. لقد ظهرت، من جديد، كي تقول لميرنا، في لغةٍ متناهية البساطة، أنّها، هي، أيضاً، معنا. فعلى ميرنا أن تُقصيَ عنها الخوف، وتقيم في الفرح، وتعمل، فكلّ ما يحدث، يحدث تمجيدًا للربّ؛ فلتكن، إذن، ميرنا، في فرحٍ وسلام، ولتدعُ الجميع الى الصلاة.

وتؤكّد العذراء أنّ جميع الذين يُسهمون في عمل ميرنا ينعمون، هم أيضاً، بمثل السلام الذي يهبها الربّ إيّاه.

قولٌ بسيط، ولكنّه رائع، رائع.

ولا بُدَّ هنا من تنويه: فالعبارة الأُولى من رسالة العذراء في لوس أنجيلس، بتاريخ ١٨ آب ١٩٨٩، هي نفس العبارة التي كانت العذراء قد استهلّت بها رسالتها الأُولى، أثناء الانخطاف الأوّل بتاريخ ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٣، إذ قالت لميرنا: «لا تخافي، هذا كلُّه ليتمجّد اسم الله».

ومرّةً أُخرى، في ١٨ آب ١٩٨٩، أعادت العذراء القول عينه حرفيًّا:

«لا تخافي، يا ابنتي، هذا كلُّه ليتمجَّد اسم الله».

ولكأنَّ العذراء تُحكم طوق الدائرة،

والدائرة، الربُّ قد رسمها، وهو الذي ينفّذها،

ولكنّه يقول لنا: «أبنائي، اجهدوا في أن تساهموا، ودعوني أُتمِّم».

وثمّة دعوةٌ لميرنا كي تبتهج،

ولكن علامَ تبتهج؟

على أنّ الربّ أتاح لها أن تأتي الى مريم،

فلقد اقتادها من بعيد.

ثمّة سرٌّ حقيقيٌّ، هو، في الواقع، سرّ كلّ علاقةٍ طبيعيّة بين الخالق والخليقة، وكلّ علاقة مُمَيَّزة بين الخالق وخليقةٍ «مصطفاة».

كان يسوع قد أعلن لميرنا، أثناء انخطاف ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥:

«إذهبي الى الأرض التي عمّ فيها الفساد...».

ثمّ جاءت العذراء فقالت لها، اثناء انخطاف ١٨ آب ١٩٨٩:

«إفرحي لأنّ الله سمح لك أن تأتي إليّ».

«أين» و «كيف» يبقيان سرًّا حتّى لميرنا التي تعيش تلك اللقاءات الفذّة، أمّا نحن، الشهود، فلا نلحظ سوى الإشارات الظاهرة، العابرة.

ثمّ إن العذراء تقول، أيضاً، لميرنا، كي تربّيها: «لا تهتمي لما يقال عنك، بل كوني دائمًا في سلام».

ويعلم الله كم كانت ميرنا تعاني من الاتهامات، والتميمة، والافتراءات التي انصبّت عليها من كلّ صوب، وما انفكّت تَنْصَبّ.

وتضيف العذراء:

«كوني دائمًا بسلام، لأنّ الخليقة تنظر إليّ من خلالك».

ويا له من قولٍ مُؤَثِّر! فلكأنّ العذراء تقول لميرنا أنّها قد غدت إيقونةً لها. وكنتُ قد طالعت هذه العبارة، في مقالٍ للأب لورنتان عن الصوفانيّة، حيث يتساءل إن لم تكن ميرنا قد أمست، هي أيضاً، إيقونةً للعذراء، بما أنّها تنضح زيتًا.

ولمَ لا؟

لمَ لا؟

العذراء تؤكّد «بلى» بقولها:

«الخليقة تنظر اليّ من خلالك».

ثمّ إنّ العذراء توكل الى ميرنا مهمّةً جديدة:

«قولي للجميع أن يكثروا من الصلاة».

مرّةً أُخرى، دعوةٌ الى الصلاة:

«لأنّهم بحاجةٍ الى الصلاة لإرضاء الآب».

إنّ العذراء في مُنتهى الرقّة، ولكنّها، أيضاً، بين فينةٍ وفينة، قلقةٌ علينا؛ وتُنذرنا بأنّ الربَّ غيرُ راضٍ، إذْ إنّ ثمّةَ خَلَلاً، وأنّ الصلاةَ وحدَها، الصلاة القادرة على تحويل حياتنا، من شأنها أن تُرضيه، فعلينا أن نُكِبَّ على الصلاة.

ثمّ إنّها تُفضي الى ميرنا بهذا القول المُفْعَم بالعزاء:

«بركة الله تحلّ عليك، وعلى جميع الذين ساهموا معك لمحبّته».

أجل، محبّةً به، لا محبّةً بأنفسهم.

كما ترون، إنّها مسؤوليّةٌ روحيّةٌ كُبرى، بها تُذكّر العذراءُ ميرنا بأنّ كلّ ما يحدث هو لتمجيد الله.

فمن كان، حقًّا، في خدمة الربّ،

عليه ألاّ يبالي بأقوال الآخرين،

وأن يقيم في الفرح، وفي السلام،

لأنّ من يتجنّد لخدمة الربّ، يغدو للربّ إيقونة، سواء شاء أم أبى.

إنّ الناس ينظرون الى الربّ من خلالنا؛

قد نكون خالين من الجمال، وقد نكون مُثقَلين بالعيوب، ولكن من خلال هذه الصورة التي نبرزها لهم، يرى الناس الربّ.

وهذا صحيح.

علّمونا أنّ الكاهن يُمثّل يسوع المسيح.

وكلّ مسيحيٍّ أيضاً.

فلْيسأل كلٌّ منّا نفسه:

أأُمثّل فعلاً، أنا، يسوعَ الفادي، أمام الذين ألقاهم كلَّ يوم، وقد يكونون بالعشرات، من كل المِلَل والنِّحَل؟

فالصورة التي يُقدِّمُها كلٌّ منّا للنّاس عن نفسه، عن استقامته وأخلاقه، هي التي قد تهديهم الى يسوع.

فليُسائل كلٌّ منّا أيضاً ذاته:

ألم أكن على العكس، حجَر عثرة للغير، بسلوكي المُلْتوي والمشبوه؟

الرسالة الثانية، من المرحلة الرابعة، هي التي بُلِّغتْ في لوس أنجيلس.

أمّا الرسالة الثالثة، فقد بُلّغت لميرنا في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٩، وهي من أكثر الرسائل خطورة؛ وقد سبق لي أن تكلّمت عنها، بيد أنّني أودّ التوقّف عند أحد بنودها. فقد قالت العذراء:

«أولادي،

«قال يسوع لبطرس: أنت الصخرة، وعليها سأبني كنيستي.

«وأقول أنا الآن: أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّته».

هذه كتلةٌ أُولى.

ثمّ إنّ هناك عبارةً أُخرى تُمثّل بندًا آخر، سنعود إليها.

إنّني أرى أنّ العذراء، هنا، تُمسكُ بطرفَيْ طوق الملكوت:

في البدء أشاد يسوع كنيسته على بطرس

وهو الآن يبني كنيسته في قلوبنا.

فتأمّلوا هذا التوازن: يسوع قال... وأنا أقول.

نحن نعلم أنّ العذراء تدرك كونها مخلوقةً وخادمة،

ولكن، هنا، من المؤكّد أنّ الربّ قد سمح لها باستخدام هذه العبارات، وهذه اللهجة التعليميّة، كي يُذكّرنا بأمرٍ قد نسيناه، للأسف:

«أنتم القلب».

فالكنيسة ليست حجرًا.

«أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّته».

لقد غمرني فرحٌ جمّ إزاء هذه المقابلة:

«قال يسوع لبطرس / وأقول أنا الآن...»

هذا «الآن» يعني بدايةً جديدة، ستكون من صنع مَنْ هو وحدَه البداية والنهاية.

ليس، ثمّة، أيّ تعارض، بل ثمّة تكامل واضح.

الكنيسة هي عمل الله.

وإذ تقول العذراء: «سيبني يسوع وحدانيّته»،

فهي إنّما تُؤكّد لنا أنّ هذه الوحدانيّة، التي تفوق الوحدة الى حدٍّ بعيد، هي عَمَلُ يسوع.

كما ترون، ثمّةَ تكاملٌ، والحلقة تكتمل وتنغلق:

يسوع بنى كنيسته، فالكنيسة هي عمل الله،

ويسوع سيبني وحدانيّته في قلوبكم، فالوحدة ستكون عمل يسوع، لا عملنا.

فلكأنّ أحدهم يقول لي: «هاتِ هذه الحجارة، وضَعْها هنا، فأنا سأبني».

حسنٌ، سآتي بالحجارة، وعليك الآن أن تبني ما تشاء، ومتى تشاء، وكما تشاء.

ويبدو لي أنَّ كلّ ذلك يندرج في صميم الواقع. فإن نحن قرأنا ما يُقال ويُكتب حول وحدة الكنيسة، ورصدنا التحرّكات المتعدّدة، التي تتشابك الى ما لا نهاية منذ سنوات، وتبدو، غالبًا، أنّها تراوح مكانها، بانتظار اندماج قد يُمثّل مخرجًا؛ وإذا سمعنا كلّ الصلوات التي تُنظّم، هنا وهنالك، ولكنّها لا تفلح في زحزحة المصلّين ولا رعاتهم؛ عندما نرقب كلّ ذلك، أرى أنّه يسوغ الاستنتاج، ومن غير أيّ ادّعاء، أن لا أحدَ يرى حلاً ملموسًا لفضيحة انقسام الكنيسة. إلاّ أنّ الربّ سيَضَعُ لكلّ ذلك حدًّا.

«ما أجمل هذا المكان. فيه سأُنشئ ملكي وسلامي».

«أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّته».

لا أحد يُدرك ما يراه الربّ، ولا ما سيفعله.

كنتُ أقرأ، مؤخّرًا، كتاب «كنيسة العرب» للأب جان كربون، وهو كتابٌ رائع يقول فيه إنّ تعثّراتٍ وأخطاء قد حدثتْ، وإنّ مبادراتٍ كثيرةً اتُّخِذَتْ، ولكن، في نهاية المطاف، الربُّ هو الذي سيقوم بالعمل.

وهذا بالضبط ما يقوله الأب كوتورييه، رائد المسكونيّة: «إنّ الربَّ سيحقّق الوحدة، بالأسلوب الذي يراه، وفي الوقت الذي سيختاره».

وإذن، فهنا العذراء تُذكّرنا أنّه، إن كانت الكنيسة هي عمل الله، فوحدة الكنيسة هي، أيضاً، عمل يسوع.

ثمّ تنتقل العذراء الى مجالٍ آخر. فهي تُشدّد، من جديد، على أهمّيّة الصلاة، وتستخدم عبارةً لم تستخدمها، قطّ، من قبل:

«أُريد أن تخصّصوا صلواتكم من أجل السلام».

ولكأنّي بها تقول: «لا تكن صلواتكم بلا هدف، بل صلّوا لأجل السلام».

ثمّ إنّها تُحدّد تاريخًا:

«من الآن، وحتّى ذكرى القيامة».

ولقد تساءلنا: «ما عسى أن يحدث؟».

ولم تلبث حوادث لبنان أن وفرّت لنا التفسير، عندما شنّ المسيحيّون هناك، بعضُهم على بعض، حربًا محزنةً.

إنّ العذراء تذكّرنا بواجب الصلاة من أجل السلام،

والسلام، هو أيضاً، عمل الله!

العذراء تُعلّمنا أنّ الصلاة هي الوسيلةُ الوحيدة التي نمتلكها، بنعمة الله، ويمكنني القول أنّها وسيلتنا للتوسُّل الى الربّ. وكانت العذراء قد أدلت، في مديوغوري بقولٍ قد يبدو مذهلاً الى حدٍّ بعيد، وكان يسوع قد سبقها اليه، ولكن بأسلوبٍ آخر. إنّها، في مديوغوري، قد أكّدتْ أنّ من شأن الصلاة درء الكوارث الطبيعيّة، كما من شأنها وقف الحروب. وعندما قال يسوع: «صلّوا كيلا يحدث ذلك في الشتاء، أو يوم سبت» فلعلمه بأنّ الصلاة قد تكون ذبيحة يرضى عنها هو تعالى.

هكذا تقدّمنا، بتؤَدة، في هذه المرحلة الرابعة، وها إنّنا نبلغ قمّتها المتمثّلة في رسالة سبت النور، يوم ١٤ نيسان ١٩٩٠. يومها كشف لنا الربُّ، بعبارتَيْن مقتضبتَيْن، عن بقعَتَيْ نور مدهشتَيْن. قال أوّلاً:

«أنتم ستعلّمون الأجيال كلمة الوحدة والمحبّة والإيمان.

«أنا معكم».

وإذا ما اعترضتُ على قوله: «أنتم ستعلّمون».

أجاب: «أنا معك، فلا تتردّد».

كم مرة تقول: «يا ربُّ، ها أنذا بكُلّيتي لك». ثمّ لا تلبث بعد هنيهة أن تتقاعس وتتراجع.

هو يقول لك: «أنا معك، فلا عُذْرَ لك». وأنت تتذرّع بأنواعٍ من الحجج لا نهاية لها، تبتكرها كي ترفع عنك المسؤوليّة.

هنا علينا أن نأخذ كلامَ يسوع بحرفيّته: «ستُعلّمون..»، ونفهمها كما يجب أن تُفهم، إذ عندما يُصفّي كلٌّ منّا نيّته ويصير جاهزًا لتلقّي إرادته تعالى، فهو الذي

ينطق بلسانه. فكلمات المحبَّة والوحدة والإيمان «لن تُحقِّقوها بأنفسكم. ولكن سيروا» «فأنا بحاجةٍ إليكم».

إنّ الله في حاجةٍ الى البشر، وهو الذي شاء أن يكون الأمر كذلك. فما أعظمه من أمر، وما أعظم المسؤوليَّة التي يولينا إيّاها!

الشقّ الأوّل من هذه الرسالة هو، إذن، قول الربّ: «ستعلّمون».

فهنا الربّ يؤكّد لنا رسالته، من جديد،

ويثبت أنّه، عبر كلامه الى ميرنا، يكلّمنا جميعنا.

وهو، في هذه الرسالة بالذات، لم يقل: «يا ابنتي، قولي لهم» بل: «أبنائي، أنتم ستُعلّمون».

أمّا الشقّ الثاني، فهو الوحدة. فكيف علينا أن نُحقّقها؟

ولكأنّ الربَّ يبدأ بالتعبير عن شيءٍ من الاستياء،

مستخدمًا ميرنا بمثابة كبش فداء، كي يُذكّرنا بأخطائنا: «لن تسمعي صوتي إلاّ والعيد واحد».

ولكن ما الذي اقترفته المسكينة من ذنب، كي تُعاقَب على هذا النحو؟

فإن نحن لم نُفْلِحْ في توحيد العيد، ليس الذنب ذنبها.

بل نحن جميعنا مسؤولون،

ولا ريب أنّ ميرنا تحمل قسطاً من التَّبِعَة، فجميعنا متضامنون، متضامنون في النعمة، تضامننا في الخطيئة.

ولكن لا بُدَّ أن يكون، ثمَّةَ، وسيطٌ يُذكِّر الآخرين، أمام الله، أنَّ هناك خَلَلاً.

ويبدو، هنا، أنَّ الربَّ قد شرع يُرخي قبضته. ففي أعقاب ثماني سنوات من مطالبته الدائبة بتوحيد الكنيسة، ارتضى أن يقول لنا: «حسن، إن كنتم عاجزين عن توحيد كنيستي، فعلى الأقلّ وحّدوا عيدي».

وحّدوا عيدي،

ولا سيّمَا أَنّ بلاغًا رسميًّا مُشتَرَكًا كان قد صدر، لسنتين أو لثلاث سنواتٍ خلتْ، عن بطاركة دمشق الثلاثة، يُؤَكِّد أَنَّ التباين في تواريخ عيد الفصح بين الطوائف الأورثوذكسيّة والكاثوليكيّة ليس قضيّةً لاهوتيّة، بل هو قضيّة تقويمٍ زمنيٍّ فحسب.

ممّا حمل الناس على القول: «إن كان الأمرُ أمرَ روزنامة فحسب، فعلامَ الانتظار؟» فلو كانت القضيّة لاهوتيّة، رُبَّما قالوا: «حسن، فقد تكون، ثمَّة، عقبات»، أمّا الروزنامة فلتُقلَب صفحاتها، وينقضي الأمر. فليس الأمر عسيرًا.

إذن، ثمّة، نقطتان جوهريّتان، أو بالأحرى، رسالتان:

«أنتم ستعلّمون».

و «أنا أريد توحيد عيد الفصح».

الفصح هو أساس المسيحيّة.

وينبغي أن يُمثِّل، في نظر الجميع، وحدةَ الكنيسة؛

ولكنّنا كنّا، وما زلنا، عاجزين عن الاستجابة لمقتضيات كلتا المُهمَّتَيْن.

وبين القضيَّتَيْن ينهض يقينٌ عظيم: «أنا معكم». «أنا معكم».

إزاء وهج هذا التأكيد، يجول بخاطري أَنَّ هذا القول الذي لا يكفُّ الربُّ يُكرِّره لنا عبر رسائله: «أنا معكم، أنا معكم»، إنّما هو صدى لما كان يسوع قد قاله في الإنجيل: «ها أنذا معكم كلَّ الأيّام، الى انقضاء الدهر» (متى ٢٨: ٢٠).

وإنّه لمن دواعي الأسف أنّنا، في حياتنا اليوميّة، قد أَلِفْنا ضربًا من البيروقراطيّة في الكنيسة، ونَمَطاً من التخطيط الذي يشمل كلَّ شيء، بحيث خُيِّل إلينا أَنَّ بوسعنا تخطيط عَمَل الرّوح القدس، وحضور الربّ.

لا بل تصوَّرْنا أَنّ قول يسوع لنا في الإنجيل: «أنا معكم»، يُحاكي عباراتٍ شائعة مثل: «وداعًا! سنراكم غدًا! الى اللقاء».

ولكن لا. فيسوع قد قال: «أنا معكم».

ولا بدّ لي، هنا، أنا الكاهن، من التساؤل كم من مرّة حاول الربّ، في الصوفانيّة أو خارجها، أن يقرع بابنا، وباب الآخرين، قائلاً:

«أنا معكم».

وكم من مرّة أغمضنا عيوننا، وأصمَمْنا آذاننا، وأوصدنا قلوبنا، لكيلا نرى الطارق؟

سرُّ سينجلي لنا في السماء،

ما لم تكن خياناتُنا التي لا حَصْرَ لها، ومحاولاتُنا المتكرّرة لِكَمِّ صوت الله، كفيلةً بحرماننا سعادة السماء ومعرفتها...

وإذن، فهذه العبارة تتجلّى لي، وكأنّها قمّة مرحلة الرسائل الرابعة، التي نجد لها في الرسالتَيْن التاليتَيْن، ثلاثة تعابير يمكنني وصف أوّلها باللاّهوتيّ، وثانيها بالمسكونيّ، وثالثها بالإيقونوغرافيّ.

وأرى التعبير اللاهوتيّ مكثّفًا في الرسالة التي بلّغتها العذراء لميرنا في بلدة براسكات البلجيكيّة، ليلة ١٥ آب ١٩٩٠، في كنيسة القلب المقدّس.

هنا أتاح يسوع للعذراء القدّوسة أن تدعونا، من خلال ميرنا، الى الصلاة، من أجل السلام، في وقتٍ كان العالم كلُّه يمسك أنفاسه، وَجَلاً وقلقًا.

وإليكم ما قالتْهُ العذراء:

«أبنائي، صلّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق، لأنّكم، كلّكم، إخوة في المسيح».

أليس هذا ما كان القدّيس بولس قد قاله لألفي سنة خَلَتْ؟

«فليس بعد يهوديٌّ ولا يونانيّ، ليس عبدٌ ولا حُرّ، ليس ذكرٌ وأُنثى، لأنّكم، جميعًا، واحدٌ في المسيح يسوع» الذي مات من أجلكم؟

أيُّ انقلاب سيشمل العالَمَ، لو طُبّق هذا القول حرفيًّا؟

إنّ العذراء، بترديدها قول القدّيس بولس هذا، تدمّر جميع الحواجز التي نهضت عبر التاريخ، بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، والتي بلغت ذروتها فيما أُطلق عليه، في تعبيرٍ مُشبَع بالرياء، اسم أزمة الخليج، وحرب الخليج.

وها هي ذي العذراء تُذكّرنا بأنّنا جميعنا، أيًّا كنّا، بيضاً أو سودًا، غربيّين أو شرقيّين، عربًا، مسلمين أو يهودًا، فنحن، كلُّنا، «إخوةٌ في المسيح»، إخوةٌ في

الواقع، أو مُؤَهَّلون ليكونوا إخوة، وفي كلا الحالين، جوهريًّا إخوة، والجميع مُفْتدون بالدم عينه الذي سكبه المسيح الواحد.

التعبير الثاني، الذي دعوتُه مسكونيًّا، أراه في الرسالة الأخيرة المُبَلَّغة الى ميرنا بمناسبة الذكرى الثامنة، بتاريخ ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠.

ففي الجزء الأوّل من هذه الرسالة تُعبِّر العذراء عن ألمها وألم ابنها، لتبيُّنها عدم تحقّق حتّى الحدّ الأدنى من وحدة الكنيسة، الذي قد يُمثِّله توحيد عيد الفصح. هذا التباين في تواريخ الفصح، والمتبدّل من عام لآخر قد يكون – وكثيرًا ما كان – حجرَ عثرة بالنسبة للآخرين.

كما أنّه، في الوقت ذاته، يُؤْلم مريم وابنها. وقد قالت العذراء لميرنا: «فإن هان عليهم أن تتألمي مرّتَيْن، فأنا أُمٌّ لا يهون عليّ أن أرى ابني يتألّم مرّات».

إنّ ألَم يسوع هو، أيضاً، ألم مريم.

فعند أقدام الصليب كانت مريم واقفة.

وسيظلّ الصليب مغروسًا في جسد يسوع، وإذن، في قلب مريم، طالما ظلّ المسيحيّون منقسمين. فوحدة الكنيسة هي شرطٌ جوهريٌّ للتبشير.

العذراء، إذن، تتألّم من أبنائها، تتذمّر منهم، ولا سيّمَا وأنّ إشاراتها، منذ ثماني سنوات، ما انفكّت تتكاثر بوتيرةٍ مذهلة، وتتّخذ أشكالاً متنوّعة، على نحوٍ لستُ أعرف له نظيرًا، في تاريخ الكنيسة الشرقيّة.

فلا عجب، بالتالي، إن نحن سمعنا العذراء تشكو من عدم إيمان البعض، ومن سُبات الآخرين. ولذلك هي تعلن وقف الرؤى والانخطافات، وربّما الرسائل، حتى يتوحّد العيد، ولن تبقى سوى إشارة الزيت على يدي ميرنا، تمجيد ابنها يسوع. فمن الجليّ أنّ الإشارات مرتبطة بتوحيد عيد الفصح. وخليقٌ بالتذكير أنّه، في السنوات التي كان يحتفل فيها الكاثوليك والأورثوذكسيّون معًا بالعيد، في يوم واحد، كانت تظهر سمات الصلب على جسم ميرنا، ويحدث لها انخطاف ترافقه رسالة، كما أنّ الزيت كان ينسكب من الايقونة في فجر العيد.

وتُشيع رسالة السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٩٠ انطباعًا بأنّ يسوع ومريم قد ضاقا ذرعًا، إن صحّ التعبير، وانتابها ضربٌ من السأم. وإلاّ فأيّ تفسير

لهذه العبارة التي قالها يسوع لميرنا، يوم سبت النور، عام ١٩٩٠: «لن تسمعي صوتي إلاّ والعيد واحد»؟ وما الذي يفسّر استهلال مريم رسالة ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠ بقولها:

«لا تخافي، يا ابنتي، إذا قلت لك بأنّ هذه آخر رُؤْيا الى أن يتوحّد العيد»؟

ألا يعني ذلك بجلاء، وبوضوح موجع، أنَّ الربَّ والعذراء يتألّمان من استمرار هذا الانقسام الذي لا شيء يُبرِّره؟ وأنّهما لا يتوقّعان منّا سوى ما يمكننا عمله، أي توحيد عيد الفصح، كي تعود إشارات الصوفانيّة تتجلّى من جديد، وربّما على نحوٍ أكثر تألُّقًا؟

وكم نرجو، مخلصين، أن يتحقّق ذلك سريعًا، فإن كانت كلُّ الإشارات التي يُظهرها لنا الربّ غير كافية لإسماعنا صوته، فإلامَ عساه سيلجأ كي يوقظنا قسرًا؟ ليست الوسائل هي التي تنقصه.

إنّنا نصلّي، من صميم أفئدتنا، قبل فوات الساعة.

نصلّي كي يفتح الربّ قلوب الجميع، بدءًا بمن يتبوأون أرفع المقامات، وأكثرها مسؤوليّة.

نصلّي كي يتأثّر الإكليروس، ولا سيّمَا المسؤولين فيه، خطى العلمانيّين في هذا المضمار،

ولو أنّ الأمور كان يجب أن تحدث على نقيض ذلك،

فمن الطبيعيّ أن يسير الراعي على رأس القطيع.

ولكن من دواعي الأسف أن العلمانيّين، في هذا المجال، يتقدّمون الإكليروس بشوطٍ بعيد،

وأعني علمانيّي جميع الطوائف المسيحيّة.

أمّا المسؤولون الكنسيّون فيودّون أن يقيسوا الأمور بمعايير مختلفة جدًّا، معايير تتعارض، في نظري، مع رغبة المؤمنين، ورغبة الربّ، وحتّى مع الواقع الماثل.

ألا فليشأ الربُّ وأُمُّه البتول تعجيل مشروع توحيد العيد، كي يُتاح لنا أن نرى، من جديد، تدفّق كرمها على جميع أبنائها بلا استثناء ولا تمييز، انطلاقًا من دمشق، وامتدادًا الى ما هو أبعد منها بكثير.

وها أناذا أصل الى التعبير الثالث الذي دعوْتُه إيقونوغرافيًّا، والذي يتجلّى، تجلّيًا ساطعًا، في الجزء الثاني من رسالة العذراء مريم بتاريخ ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠:

«قولي لأبنائي: هل يُريدون أن يروا ويتذكّروا جراحات ابني فيك، أم لا؟..

«أمّا الزيت فسيبقى يظهر على يديك لتمجيد ابني يسوع، متى يشاء، وأينما ذهبت».

إنّ جراح ميرنا هي صورة لجراح يسوع.

وسيظلّ الزيت ينسكب من يديها، كما انسكب وكما هو ينسكب بين آنٍ وآخر، من الإيقونة المقدّسة، أو من نُسَخِها، هنا وهنالك.

وأيُّ معنًى لا يمكن استخلاصه من هذا القول سوى أنّ ميرنا هي إيقونة الربّ، بمشيئة يسوع، ووفقًا لتأكيد أُمِّه؟

إنّ ميرنا إيقونةٌ حيّة، كما يتوجّب أن يكون كلُّ إنسانٍ مخلوقٍ على صورة الله.

إنّها إيقونةٌ حيّة، بامتيازٍ إلهيّ، لا يَدَ لها فيه، ولا استحقاق.

وإنّما الفضل كلُّه لاختيار الربّ، اختياره السرّيّ، الذي يتعيّن على المختار أداءُ ثمنه.

وميرنا تؤدّي الثمن بكونها أمستْ ضحيّةً مُختارة، كي تُكَفِّر، بعضَ الشيء، عن الخطيئة الجماعيّة الكبرى، خطيئة انقسام المسيحيّين.

ومن ثمَّ فهي ستُحْرم من رؤية الربّ والعذراء، أقلّه حتّى يتوحّد العيد، ممّا يسبّب لها، على حدّ قول العذراء، ألمًا مزدوجًا.

إنّها ضحيّة تكفير، ولكن عليها أن تقيم في سلام، كي تواصل مهمّة التبشير الموكلة إليها.

وقد قالت لها العذراء:

«كوني بسلام، كوني بسلام، يا ابنتي».

وليس هذا فحسب، فالعذراء تقول لها أيضاً:

«تعالي ليعطيك السلام، حتّى تتمكّني أن تنشريه بين البشر».

من الواضح أنّ العذراء تكرّس ميرنا لرسالة التبشير التي انتدبتها لها، ويا لها من مهمّة تُنتَدَب لها شابّةٌ لا تعرف شيئًا، ولا تستحيي من الإقرار بجهلها.

إنّها إيقونة يسوع، وإيقونة العذراء. هكذا شاءها يسوع، وهكذا شاءتها العذراء.

وقد أعلنا لها عن مشيئتها تلك.

وإن هي، مع ذلك، لم تنتفخ كبرياءً، فذلك دليلٌ بيّنٌ إضافيّ على قدرة النعمة الإلهيّة، التي تستخدم المتواضعين والممحيّين، كي تبني «ملكها وسلامها».

هذا هو منطق الله.

ولا بدّ من الإقرار أنّه على نقيض منطق العالَم تمامًا.

الجزء الثاني

إشعاع الصوفانيّة

تواصل حَدَث الصوفانيّة

الأَحداثُ الخارقة الحسّيَّة، في الصوفانيَّة، مِثْل انسكاب الزيت من الإيقونة العجائبيّة، وسمات الصلب، والانخطافات، توقّفتْ جميعها بتاريخ ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠، أي في الذكرى الثامنة لبدء الحَدَث. يومذاك ظهرت العذراء لميرنا، أثناء انخطاف، وقالت لها:

«لا تخافي، يا ابنتي، إذا قلت لك بأنَّ هذه آخر رؤيا الى أن يتوحّد العيد (عيد الفصح). إذًا قولي لأبنائي: هل يريدون أن يروا ويتذكّروا جراحات ابني فيك أم لا؟ فإذا هان عليهم أن تتألّمي مرّتَيْن، فأنا أُمٌّ، لا يهون عليّ أن أرى ابني يتألّم مرّات.

«كوني بسلام، كوني بسلام يا ابنتي، تعالي ليعطيك السلام حتى تتمكّني أن تنشريه بين البشر. أمّا الزيت فسيبقى يظهر على يديك لتمجيد ابني يسوع متى يشاء، وأينما ذهبتِ. فإنّنا معكِ، ومع كلّ واحدٍ يتمنّى أن يكون العيد واحدًا».

وكان يسوع، عبر رسالةٍ سابقة، يوم سبت النور ١٩٩٠، قد كلّم ميرنا، التي خرجتْ من الانخطاف منتحبةً، إذ أفضى لها يسوع بهاتَيْن العبارتَيْن:

«أبنائي،

«أنتم ستُعلّمون الأجيالَ كلمةَ الوحدة والمحبّة والإيمان،

«أنا معكم،

«ولكن، يا ابنتي، لن تسمعي صوتي إلاّ والعيدُ واحد».

إذًا، أعلن يسوع لميرنا أنَّ رسائله ستنقطع، وأنّها، هي، لن تراه بعدُ. ولكنّنا ظَنَنّا أنّه لو توارى يسوع عنها، فالعذراء، هي، لن تتوارى، وأعلنّا ظنّنا هنا على مسامع الجميع.

وفي الواقع، ظهرت العذراء لميرنا مرّتَيْن، بعد ذلك، كانت أولاها يوم ١٥ آب ١٩٩٠، أثناء زيارة ميرنا لبلجيكا، بدعوةٍ من الأب فرانزفان درفورت. وقد

مكثت هناك منذ ٩ آب حتّى ٢ أيلول. ومساء ١٥ آب، في أعقاب الاحتفال بالذبيحة الإلٰهيّة، حدث لها انخطاف فيما كانت تشارك الأب فان درفورت الصلاة، في أسفل الهيكل الكبير.

أثناء هذا الانخطاف، رأتْ يسوع الذي لم ينطق بكلمةٍ، بل اقتصر على مباركة الحضور. ثمّ رأت العذراء مريم التي قالت لها:

«أبنائي، صلُّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق، لأنّكم كلّكم إخوةٌ في المسيح».

ثمّ، في ٢٦ / ١١ / ١٩٩٠، بمناسبة الذكرى الثامنة، بلّغتها الرسالة التي أوردتُها آنفًا. وفي هذه الرسالة الثانية، بعد رسالة يسوع يوم سبت النور، قالت العذراء، هي أيضاً، لميرنا، إنّها لن تراها من جديد، حتّى يتوحّد العيد.

ومنذئذٍ لم نعد نشهد لا انفتاح سمات الصلب، ولا انخطافات، ولا انسكاب زيتٍ من إيقونة الصوفانيّة نفسها.

بيد أنّ انسكاب الزيت من يدي ميرنا قد توالى، وأذكر أنّه حَدَث لا أقلّ من خمس عشرة مرّة، منها تسع مرّات، على الأقلّ، بحضور الأخوين جاكار[1]، اللّذَيْن دوّنا شهادتَيْهما بهذا الشأن. وقد اتّفق أن انسكب الزيت، بحضوري، من صورة فوتوغرافيّة لسيّدة الصوفانيّة استنسخها الأخوان جاكار في فرنسا، وسلّماها لميرنا، أثناء زيارتها الأولى للصوفانيّة، وزيارتها الثانية لدمشق، في أواخر شهر نيسان ١٩٩٠. كان الجميع يُصلُّون أمام الإيقونة، وميرنا ممسكةٌ بالصورة المذكورة، وقُبَيْل انتهاء الصلاة، كان الزيت يغمر، في الصورة، وجهَيْ يسوع ومريم.

(١) الأخوان ريمون وبيير جاكار كاهنان فرنسيّان كرّسا نفسَيْهما للعمل الرسوليّ وسط أكثر الشعوب فقرًا في العالم، وقد شرعا بخدمة البُرَص، وشيئًا فشيئًا انتهيا الى مساندة العديد من الأعمال الاجتماعيّة لمساعدة المُطلَّقين، والمعاقين، ومتعاطي المخدّرات، الخ... وهما منظِّما «مهرجان الأمل» الذي ينعقد في بيزانسون، سنويًّا، منذ نحو عشرين عامًا، ويُتيح للأكثر فاقةً أن يعبّروا عن أوضاعهم وتطلُّعاتهم.

ظاهرة الزيت، إذًا، مستمرّة. وقد روى لي صديق كثيرًا ما يختلف الى دمشق، أنّه زارها مؤخّرًا، برفقة مجموعة من اللبنانيّين، وفيما كانوا يصلّون غطّى الزيت يدي ميرنا.

هذه الظاهرة الحسّيّة ما زالت، إذًا، متواصلة. وكأنّها إيماءةٌ من الربّ، بها يشير الى وجوده فيما بيننا.

وهي ظاهرةٌ تُذْهل جميعَ العُلَماء.

خطورة الصلاة

ولكن، فضلاً عن تلك الظاهرة المحسوسة، ثَمَّةَ ظاهرةٌ أُخرى أَشدُّ خطورة: الصلاة.

الصلاة، هي، أَوَّلاً وآخرًا، الصفة المُمَيِّزَةُ للصوفانيَّة.

وفي معزلٍ عن الصلاة، لا شيء.

بين الله والإنسان، الاتّصال الأكبر، بَلْهَ الأوحد، هو الصلاةُ التي يجب أَن تتطوَّر فتُصبح حُبًّا، وخدمة.

ولئن كان الربُّ قد منَّ علينا بتلك الطائفة الثرَّة من الإشارات، فمُبْتغاه الحقُّ، والجوهريُّ، هو دعوتُنا الى الصلاة.

إنّ أصل لفظة صلاة، في اللغة العربيّة، يعني «الوصل».

«الصلة» هي علاقة، و«الصلاة» هي الاتّصال بالربّ، هي صلة الإنسان بالله.

وإن انتفت تلك الصلة، لاضْمحلَّ كلُّ ما سواها ولما بقي شيء.

إنّ الله على ضفّة، والإنسان على الضفّة الأُخرى.

ولئن ارتضى الربُّ أَن يَهَبَنا كلَّ تلك الإشارات، فَبُغْيَةَ مساعدتنا على إعادة عَقْد صِلَة الصلاة، التي رُبَّما كانت آخذةً في التَّراخي.

وتوثيق تلك الصلة، من شأنه أَن يقودنا، بتُؤَدةٍ، اليه تعالى.

إذًا، كانت الصلاة هي حقيقة الصوفانيّة الكبرى. وقد استجاب الناس، بتوجّه تلقائيٍّ وكثيفٍ الى الصلاة، منذُ اللَّحظة الأُولى، وحتّى الآن.

لا ريب أَنَّ الإقبال الكثيف الذي وَسَم بدء الظاهرة، قد تضاءل. بيد أَنَّ استمرار وجود الجموع في الصوفانيّة، جموع قادمة من دمشق، ومن مختلف مناطق سوريّا، ومن شتّى الأرجاء، سحابة النهار، هذا الاستمرار متواصل. وحتّى في

الفترات المقفرة، كتلك التي امتدّت من تشرين الثاني ١٩٨٥ حتّى تشرين الثاني ١٩٨٦، حيث لم تحدُثْ أيّة ظاهرةٍ خارقة، لم تَغِبْ الظاهرة الجوهريّة، ظاهرة الصلاة.

والآن، أيضاً، إذ لا شيء يظهر للعيان سوى بعض الزيت ينبثق من يدي ميرنا، ثمّةَ الظاهرة الجوهريّة، ظاهرة الصلاة، وهي، في نظرنا الأسمى أهميّةً.

ومن هذا الواقع، قد انطلق تيّارٌ روحيّ شمل شتّى فئات المسيحيّين، ليس في دمشق فحسب، بل في شتّى مناطق سوريا، ولاسيّمَا في حلب.

ففي حلب نشهد، منذ ٢٤ كانون الثاني ١٩٨٨، ما يمكن أن أدعوَه امتدادًا ماديًّا لظاهرة الصوفانيّة. فمن نسخةٍ عن إيقونة الصوفانيّة قد انسكب الزيت في منزل أُسرةٍ أرمنيّة حيث الزوج أورثوذكسيّ والزوجة كاثوليكيّة، وتدعى، هي أيضاً، ماري. ثمّ انسكب الزيت، في حلب، من صُوَرٍ أخرى، ومن صورةٍ لإيقونة الصوفانيّة، في بيت أُسرةٍ أرمنيّةٍ أُخرى متواضعة جدًّا، ثمّ في بيوتٍ عديدة.

وفي المنزلَيْن الأوّلَيْن اللّذَيْن انسكب فيهما الزيت، في حلب، انتظمت الصلاة، بإشراف كهنة، وكلتا الأسرتَيْن أورثوذكسيّتان، ولكن، للأسف، الكهنة الكاثوليك، وحدهم، هم الذين يُشرفون على تنظيم الصلاة فيها. وقد وافى الأسقف الأرمنيُّ الأرثوذكسيُّ منزل الأسرة الأولى حيث انسكب الزيت، ورأى، وصلّى، وقال: «هذه بركة لكم»، ولكنّه لم يَعُدْ الى ذلك البيت قطّ. بيد أنّ الحَدَث استفزّ حركة صلاة امتدّت الى بيوتٍ أخرى في حلب.

وانطلاقًا من هاتَيْن الواقعتَيْن، ومن ظواهر أخرى يقتضي عرضُها استفاضةً لا مجالَ لها، هنا، وأقتصر على التلميح اليها تلميحًا عابرًا، انبعث تيّارٌ روحيٌّ يتعذّر على من لم يعِشْه أن يَصِفَه؛ ولا بدَّ من المثول الى موقع الحَدَث للمسه. ومن المحقّق أنّ حلب تشهد، في مجال الصلاة، انبعاثًا مُدهشًا حقًّا.

وقد أدّى ذلك الى فتح أبواب عدّة كنائس من أجل ساعاتٍ إضافيّة من الصلاة. وتلك الكنائس، حتّى الآن، هي كنائس لشتّى الطوائف الكاثوليكيّة تُفتَح لأجل ساعات سجود، كلّ يومٍ، بالتناوب، في أوقاتٍ مختلفة، بحيث أنّ من

يتسنّى له اليوم أن يصلّي، ويتعذّر عليه غدًا، بجد الكنيسة التي تلائمه، في الوقت الذي يُؤثره.

ولا يقتصر الأمرُ على إقبالٍ أشدَّ كثافةً على الكنائس، ولكنَّه انبعاثٌ روحيٌّ حقٌّ يطال أشخاصاً كثيرين لا أعرف سوى قلّةٍ منهم، وأُسَرًا عديدةً بكاملها تعيش تجدُّدًا روحيًّا مُذهلاً حقًّا.

ذلكم هو الحَدَث الأعظم. ولئن كنتُ تكلّمتُ هنا عمّا يجري في سوريا، إلاّ أنّ بوسعي القول، أيضاً، أنّني قد شهدت بنفسي، في أماكن شتّى، كفرنسا على سبيل المثال، تيّاراتِ صلاة انبثقتْ من الصوفانيّة، وما انفكّت تستمدُّ من الصوفانيّة غذاءها، بفضل صورة سيّدة الصوفانيّة الصغيرة.

بالإجمال، تلك هي ظاهرة الصوفانيّة الأكثر خطورةً: الصلاة، وعودة الإنسان الى الله، عبر الصلاة.

لتمجيده، وشكره.

لاستغفاره، وعيش نفحاته على الأرض، بانتظار رؤيته وجهًا لوجه، رؤيةً أبديّة.

أُلفةٌ مع الله

منذ الوهلة الأُولى، في الصوفانيّة، صلّى الناس، في كثير من البساطة، وفي أُلفةٍ كبيرة مع الله، ولاسيَّمَا في مُسْتَهلِّ الظاهرة، قبل أن تُنظَّم الصلاة. آنذاك، كنّا نقف أمام الإيقونة، فيرتجل كلّ دعاءً، ونبقى، هكذا، نصلّي، ساعاتٍ طوالاً، في الليل والنهار.

وإليكم مثالاً: يوم الجمعة، ١٠ / ١٢ / ١٩٨٢، اتّصل بي نقولا، هاتفيًّا، في الساعة السادسة والنصف صباحًا وقال: «أبونا، الزيت ينسكب من الصورة» فأجبته: «إنّني قادم». وبعد دقيقتين، كنت في بيت العذراء، حيث شاهدتُ ما يحاكي دموعًا تسيل من الصورة.

وفي الساعة السابعة، إذ لم يكن، بعدُ، في البيت هاتف، قصدتُ بيت الجيران، واتّصلت بعدّة أشخاص، من طوائف مختلفة، يتمتّعون بنفوذٍ اجتماعيّ ودينيّ، كي يأتوا فيشهدوا، وينقلوا الى الآخرين شهادتهم.

ووافى صديقان، ممّن اتصلتُ بهم، هما جورج معرّاوي، وإدوار هلال، معًا، في تمام الساعة الثامنة. كلاهما متزوّجان، وفي نحو الرابعة والأربعين من العمر، ويتمتّعان بصوتٍ رخيم. أحدهما من طائفة الروم الكاثوليك، والآخر من طائفة الروم الأُورثوذكس. وقد ظلاً، منذ الثامنة صباحًا حتى الواحدة بعد الظهر، يُرنّمان ويصلّيان أمام الصورة، فيما الناس لا يكُفّون يدخلون ويخرجون، في صمتٍ تامّ، بحيث سَجّلتُ في مذكّرتي: «هذا اليوم ذكّرني بالزيارة التي قمت بها الى لورد مع الجوقة». فنفس الجوّ كان سائدًا هنا وهناك.

وعندما بارح إدوار وجورج الغرفة حيث كنتُ قد ظلَلْتُ، أَنا نفسي، طول الوقت، الى جانب الإيقونة، لحقتُ بها وسأَلْتُهما: «كم الساعة الآن؟». فنظر إدوار وقال: «هذا غير ممكن! إنّها الواحدة بعد الظهر!». فأكّدتُ له: «أجل، إنّها الواحدة!». فقال حينئذٍ: «ولكن هذا غير ممكن! فهل يُصدّق أنّني أمضيتُ خمس ساعات مع جورج، ونحن نُرتّل أمام العذراء؟ هل هذا ممكن، وأنا لا أُغادر البيت

أبدًا قبل تناولي الإفطار؟». وكانا، كلاهما، قد هرعا منذ تلقّيا الهاتف؛ ومن غير أن يشعرا بمرور الوقت، مكثا خمس ساعات يُصلّيان ويرتّلان أمام الإيقونة!

وكم رأيتُ من قوم يقدمون حاملين مرضاهم، فيطرّحون عند قدمي العذراء ويكلّمونها بعفويّة وبقلبٍ مفتوح! صدّقوني انّ مآقيّ تزدحم بالدموع عندما تجول بذاكرتي تلك المشاهد المؤثّرة الى أبعد حدّ. وكم شاهدتُ من يقفون، وحدهم، أمام الإيقونة، فيرتجلون الصلوات، ويُرتّلون بعفويّة تامّة!

في الأسابيع الأولى، سارت الأمور دائمًا على هذا النحو؛ ثمّ شيئًا فشيئًا كان لا بدّ من التنظيم، فأدخلنا صلاة المسبحة، وبين كلّ عُشرٍ وعُشرٍ، كانت تُصعَّد التراتيل، وتُرتجل الأدعية؛ وكم تساءلنا، في دهشةٍ، كيف كانت تتفجّر الترانيم والأدعية، هكذا، من القلب!

شقيق نقولا الأكبر، عوض، كان شِبْهَ أُمّيٍّ، وعاملاً بسيطاً، محبًّا للشراب، مفرطاً في التدخين، ولا تعني له الحياة سوى العمل من أجل إعالة أسرته الصغيرة. بيد أنّ حياته انقلبت رأسًا على عقب، فراح يُؤلّف ترانيم للعذراء، بلغةٍ عربيّةٍ مهلهلة، ويجهد في تلحينها كيفما اتّفق له، مستلهمًا، أحيانًا، بعض الألحان الشعبيّة الشائعة. وقد أفلح، في هذا المجال، بحيث ألّف، حسب ما أعلم، لا أقلّ من عشرين أنشودة، واحدةٌ منها ما زلنا نرتّلها كلّ يوم، في الصوفانيّة، وقد انتشرت في أماكن شتّى من العالم. وقد ترجمتُها الى الفرنسيّة، وستقوم الجماهير بإنشادها في «مهرجان الأمل» في بيزانسون، في أيلول ١٩٩١. إنّه نشيد يأخذ بمجامع القلب.

لقد كان عوض، شقيق نقولا، واحدًا من الذين خاطبوا الربّ بعفويّة!

وحتّى الآن، رغم كلّ ما أحَطْنا به الصلاةَ من تنظيم، ما برح، ثمّة، مكانٌ للارتجال. فكم نسمع من يتحدّثون مع العذراء بصوتٍ مرتفع! فهنا، حقًّا، ألفةٌ مع الحضور الإلهيّ.

وذلك هو الانطباع الذي تولّد لدى عميد كلّيّة اللاهوت في مونستر، بألمانيا، الأب عادل خوري، الكاهن اللبنانيّ الأصل، والذي صرّح لي: «في الصوفانيّة، يسود الشعور بأنّ الإنسان يُقيم مع الله، وأنّ العذراء موجودةٌ حقًّا. فعندما أسمع

صلاة الناس، ألمس لمسَ اليد، أنّ الناس يُكلّمون العذراء التي تقيم معهم، ولا يتوجّهون الى كائن بعيدٍ عنهم. إنّها حاضرة بينهم بكلّ بساطة».

إنّني لواثقٌ بأنّ هذه الأُلفة هي التي ستُخلّصنا.

حقًّا، هذه الأُلفة مع الله، ولا سيّمَا من خلال أُمّه مريم، هي التي ستنقذنا.

فرغم كلّ شيء، الله قريبٌ منّا، قريبٌ جدًّا.

أُمومة العذراء

في الصوفانيّة تذكّرنا العذراء بأُمومتها بإلحاح.

وقد عبّرت عن ذلك، بقوّةٍ، من خلال الكلمة التي أفضت بها الى ميرنا، أثناء أحد الانخطافات الأولى، يوم الجمعة، ١٤ / ١١ / ١٩٨٣.

حينئذٍ كان والدا ميرنا يبكيان. وبغتةً فتحت ميرنا عينيْها، وأشارت بإصبعها الى أُمّها، داعيةً إيّاها باسمها، وقائلةً: «أنا ابنتها قبل أن أكون ابنتك»، ثمّ عادت فغرقت في الانخطاف.

ولدى خروجها منه، سألها الأب معلولي، الذي كان حاضرًا: «ما الذي حدث؟» فأجابتْ: «رأيتُ العذراء القدّوسة، وقد أمرتني أن أقول لوالديّ أنّني ابنتها، قبل أن أكون ابنتهما». وسألها الأب معلولي، مرّةً أُخرى: «وماذا فعلتِ أنت؟»، فأجابتْ: «لست أدري».

فهي، في الواقع، كانت قد امتثلت للأمر، في غفلةٍ عن ذاتها.

ومن خلال قول ميرنا هذا لوالديها، امتثالاً لأمر العذراء، بوسعنا أن نذكر، جميعنا، أنّنا أبناء مريم، قبل أن نكون أبناء والديْنا،

لأنّنا، في جوهر ذواتنا، نحن أبناء الله.

والى الله نعود.

والله قد جعل منّا آلهةً، شئنا أم أبينا.

ولئن نحن أدركنا ذلك أم لا، فنحن، حقًّا، على حدّ قول القدّيس يوحنّا، أبناء الله؛

وهذا ما جاءت العذراء كي تذكّرنا به،

بمجرّد تكرارها، في كلّ رسائلها، قولها: «أبنائي، أبنائي».

وهي، أحيانًا أُخرى، مثلما تفعل كلُّ أمّ، تدعونا الى الالتفاف حول يسوع، فإنّها، عبرَ الرسائل، لم تكُفّ تُذكّرنا بأنّها هنا كي تجمعنا عند أقدام يسوع، لكي تحقّق وحدة الكنيسة.

وهذا ما أكّدتُ عليه، أثناء ظهورها، بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٨٣، إذ قد جاء في رسالتها، يومذاك:

«أسّسوا كنيسة؛ لم أقُلْ: ابنوا كنيسة.

الكنيسة التي تبنّاها يسوع، كنيسةٌ واحدة، لأنَّ يسوع واحد.

الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض. من قسّمها فقد أخطأ، ومن فرح بتقسيمها، فقد أخطأ.

بناها يسوع، كانت صغيرة، وعندما كبرتْ انقسمتْ، ومن قَسَّمَها ليس فيه محبّة.

اجمعوا.

أقول لكم: صلّوا، صلّوا، صلّوا.

ما أجمل أبنائي راكعين، طالبين.

لا تخافوا، أنا معكم.

لا تتفرّقوا مثل تفريق الكبار.

أنتم ستُعلّمون الأجيال كلمة الوحدة والمحبّة والإيمان».

ذلكم هو حضور العذراء مريم مع بنيها،

إنّها تلمُّ شملهم.

وتدعوهم الى الصلاة.

وتوكل اليهم مهمّة جمع شمل بنيها،

وتَجْعلُ منهم مُرْسَلين.

أَمَةُ الربّ

من المؤكّد أنّ العذراء لا تعمل بذاتها،
بل باسم ذاك الذي هي أَمَتُه.
ولذلك استهلّت رسالتها بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٨٣ بقولها:
«أبنائي، مُهمّتي انتهتْ».
وقولها: «مهمّتي» يعني أنّ العذراء، تَعُدّ نفسها، في الصوفانيّة، أَمةً للربّ.
ومن ثمّ فهي تُتبعُ عبارة: «أبنائي، مهمّتي انتهت» بقولها:
«في هذه الليلة، قال لي الملاك: مباركةٌ أنتِ في النساء. ولم أستطع أن أقول له الاّ: ها أنا أَمَة الربّ».
لقد لقّنّتنا العذراءُ، في الصوفانيّة، درسًا مُدهشًا في الخدمة،
فهي، الكلّيّة البهاء،
وسلطانة السموات والعالمين،
تُقرُّ، مع ذلك، بأنّها أَمَة الربّ،
وأنّها جاءت الى الصوفانيّة، لتُعِدّ سُبُل الربّ،
مثلما كانت، على نحوٍ ما، قد أعدّتها في فلسطين.
وعندما حضر الربّ، توارتْ.
وهذا ما حدث في الصوفانيّة،
كما اتّضح لنا بعد بضع سنوات.

إحدى الرسائل الأخيرة التي بلّغتها العذراء في الصوفانيّة، أو بالأحرى، الرسالة الأخيرة التي بلّغتها قبل أن تتوارى سحابة أربع سنوات وأربعة أيّام، كانت أثناء صلاة مساء ١٤ / ٨ / ١٩٨٥، عشيّة ١٥ آب، وآنذاك قالت العذراء هذه العبارة:
«كلّ عام وانتو بخير،
«هذا هو عيدي لمّا بشوفكنّ كلّكُنْ مجتمعين مع بعض،

«صلاتكُنّ هي عيدي،

«إيمانكُنّ هو عيدي،

«اتّحاد قلوبكُنّ هو عيدي».

إنّها أُمٌّ تدعو أبناءها الى التجمّع، علّهم، بوحدتهم، يُثلجون صدرها.

ففرح كلّ أُمٍّ، في كلّ مكان، يكمن في رؤية أبنائها ملتئمين.

فكيف، بالحريّ، أولئك الذين يخصّون يسوع؟

وفي أعقاب هذه الرسالة، توارت العذراء تمامًا

سحابة أربع سنوات، وأربعة أيّام.

وكم في ذلك من عميق المغزى!

لقد غاب عنّا ذلك الواقع، بادئَ الأمر، ولكن لم نلبث أن أدركنا حقيقتَيْن على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة،

أولاهما أنّ دور العذراء يقتصر على التمهيد لمجيء يسوع، فهي بهذا المعنى، «أَمَة للرب» كما تقول.

ثانيهما أنّ يسوع الصوفانيّة للجميع، سواء في ذلك المسلم والمسيحيّ، المؤمن والملحد، البوذيّ والحياديّ.

وعلامَ التمهيد؟

علامَ العذراء قبل يسوع، إذا كان يسوع هو الألف والياء؟

هنا تكثر الافتراضات والاحتمالات.

الأمر الذي لا شكَّ فيه هو أنّ مريم العذراء التي كرّمها القرآن الكريم – ونحن في هذا البلد الطيّب، ما نبرح نطلب شفاعتها – فهي، وإن كان دورها قد اقتصر في نظرها على التمهيد، فقد رافقت يسوعًا في رحلته الينا واستمراره معنا، وسترافقه الى ما شاء الله. فالصوفانيّة كُرِّست من الأصل عند جميع الناس، صوفانيّة العذراء مريم.

وبالتالي فعندما تفجّرت الظاهرة، من خلال صورةٍ صغيرةٍ عديمة الشأن، للعذراء ولابنها يسوع، تقبّلها الناس باندفاع. لا نكرانَ أنّها قوبلت ببعض مظاهر الرفض والنقد، ولكن، في نظر الأغلبيّة، كانت العذراء هي التي حضرتْ فيما بيننا، فأُشرعت لها القلوب. وعندما حلّ يسوع، فيما بعد، محلّ العذراء، في الانخطافات وتبليغ الرسائل، كان السبيل قد مُهّد. فتقبّله الناس.

وقد وُزّعَت النشرات الصغيرة المحتوية على الرسائل بآلاف النسخ، بل بعشرات الآلاف.

وكان الناس يلتمسونها ويطالعونها، بحيث غَدَتْ للكثيرين موضوع قراءتهم المُفَضَّل، ومادّة تأمُّلاتهم.

وهكذا أعطتْنا العذراء، هنا أيضاً، درسًا في الخدمة.

فمع أنّها ملكة كلّ شيء،

إلاّ أنّها ظلّت خادمةً لإلهها وابنها.

وكانت إحدى أروع العبارات التي تلفّظت بها، أثناء الظهور الخامس، مساء ٢٤ آذار ١٩٨٣:

«أبنائي، مُهمّتي انتهت.

«في هذه الليلة، قال لي الملاك: مباركةٌ أنتِ في النساء. ولم أستطع أن أقول له إلاّ: ها أنا أَمَة الربّ».

الوسيطة

لأنَّ العذراء هي أُمُّ يسوع، فهي الوسيطة الكُبْرى.

إنَّ واحدةً، على الأخصّ، من الصلوات التي تُرفَع يوميًّا في الكنيسة البيزنطيَّة للعذراء، قبل الرسائل والإنجيل، تُخاطِب القدّيسةَ مريم بالقول: «أنتِ يا نصيرةَ المسيحيّين التي لا تخيب...». وهذا اعتراف بأنَّ للعذراء سلطةً كاملةً على ابنها يسوع.

ولذلك هي قالت، في واحدةٍ من أَشدّ رسائلها تأثيرًا، خلال الانخطاف الثاني، يوم الجمعة ٤ / ١١ / ١٩٨٣، بلهجةٍ عربيّةٍ عاميّةٍ، أَخّاذة، أَخّاذة بكلّ ما تنطوي عليه من قوّةٍ وحنان في آنٍ معًا:

فيومها، بعد أن قالت لميرنا: «إنزلي وقوليلُنْ إنّك بنتي قبل ما تكوني بنتُنْ...» أضافت: «قلبي احترق على ابني الوحيد، ما راح يحترق على كلّ أولادي».

هذه العبارة، على نحو ما وردت في اللَّهجة العربيَّة العاميَّة، تعني بوضوح: «لئن كنتُ، حيالَ موت ابني، قد وقفتُ عاجزةً عن إنقاذه، ولئن احترق قلبي وأنا أشاهده يتألَّم، إلاَّ أنّني سأعمل المستحيل من أجل إنقاذكم، أنتم أبنائي الآخرين».

«قلبي احترق على ابني الوحيد».

تلك المسكينة، كانت قد وقفت عند أقدام الصليب، في عجزٍ مطلق،

ولكنّها، بعد أن تُوّجتْ ملكةً على السماء والأرض، وبعد أن انتقلت بالجسد الى السماء، غدت كلِّيَّة القُدْرة.

أَوَلم يُسمِّها أحد القدّيسين: «المتوسّلة الكليّة القدرة»؟

وهي عازمةٌ على عمل المستحيل من أجل إنقاذ بنيها،

ولن تدعهم يهلكون من جرّاء خطأهم أو خطأ الآخرين،

بل ستعمل المستحيل.

هنا، حقًّا، نلمس الأُمومة الإلهيّة.

وأُمومة مريم حيال جميع أبنائها البَشَر.

وفي فَترةٍ لاحقة، أي في ١٤ آب ١٩٨٧، بلّغَنا يسوع رسالةً تُؤكّد، بجلاء، تلك القدرة الكلّيّة التي تمارسها مريم القدُّوسة على قلب الله، في عبارةٍ تفصح أبلغ إفصاح عن المكانة التي تحتلُّها العذراء في قلب الثالوث الأقدس:

«ابنتي،

هي أُمّي التي وُلدتُ منها،

من أكرمها أكرمني،

من نكرها نكرني،

ومن طلب منها نال لأنّها أُمّي».

أؤكد لكم أنّ الأب معلولي، عندما تلا علينا تلك الرسالة، كان من شدّة التأثُّر بحيث لقي كثيرًا من العناء في تلاوة بضعة الأسطر التي تتألّف منها تلك الرسالة الموجزة: «من طلب منها نال، لأنها أُمّي».

ويبدو من حديث يسوع أنّه لم يُقِمْ وزنًا للاهوتٍ أخذ أصحابه يتساءلون اليوم ما إذا كانت العذراء وسيطة وحسب، أم إنّها قادرة على العطاء.

في وجه لاهوت كهذا، يؤكد يسوع:

«هي أمّي، فلا أستطيع أن أردَّ لها طلبًا».

وإذًا، قد ذكّرتْنا العذراء، كما ذكّرَنا يسوع، في الصوفانيّة، أنّها كلّية القدرة، مع أنّها تبقى مخلوقة تدرك حدودها،

ولكنّها، أيضاً، تُدرك سلطانها على ابنها، بصفتها أُمّه،

وابنها هو الأُقنوم الثاني من أقانيم الثالوث الأقدس،

ومن ثمّ تدرك العذراء سلطانها على الثالوث نفسه.

ولذلك فهي، في الرسالة التي بلّغتها لميرنا بتاريخ ١٨ آب ١٩٨٩، خلال زيارتها الثانية للولايات المتّحدة، قد أطلقت هذا النداء الى جميع المؤمنين:

«قولي للجميع أن يُكثروا من الصلاة، لأنّهم بحاجةٍ الى الصلاة لإرضاء الآب».

ويلتقي هذا القول مع ما تقوله العذراء، أيضاً، في مديوغوري أو في كيبيهو، وما سبق أن قالته في ساليت. فذراع الربّ قد أخذت تثقل، وقد أزِفَتْ ساعةُ الصَّلاة.

وإلاّ فأيُّ تفسيرٍ لتعدُّد الظهورات الإلٰهيّة، اليوم، في شتّى أرجاء العالم؟

لقد تجرّأ أُسقف شرقيّ من طائفة الروم الكاثوليك، هو المطران الياس زغبي، فكتب لسنتين خلتا، في «مجلّة لبنان» اللبنانيّة التي تصدر بالفرنسيّة، مقالاً بعنوان: «أيّها العالم، الى أين أنت ماضٍ؟»، تساءل فيه عن معنى تعدّد ظهورات العذراء الحاليّة، في مختلف مناطق العالم، وارتأى أنّه، إن كان الله يظهر على هذا الشكل الواضح، في معظم الأماكن، فذلك يُنبىء بأنّ ثمّة خَلَلاً، وأنّ الربَّ يرى الى أين نحن سائرون، وأنّنا، على الأرجح، نتعرّض لدمارٍ ذاتيّ شامل يعمُّ المعمورة. وبما أنّ الله يُحبُّنا حبًّا جمًّا، ويأبى هلاكنا، فهو يحاول تحذيرنا: «كفاكم، توقّفوا، وتأمّلوا، وفكّروا، وصلّوا».

قدسيّة الزواج

بوسعي القول إنّ اختيار الربّ لزوجَيْن، كي يُطلِق، من خلالهما، ظاهرة الصوفانيّة، هو اختيارٌ موفّق الى حدٍّ بعيد. ففي الوقت الذي تتداعى فيه الأُسرة، في معظم أرجاء العالم، وتتناثر حطامًا، وهي النواة الجوهريّة لكلّ مجتمع، في هذا الوقت يضع الربُّ يدَه على زوجَيْن.

هذا الواقع قد استفزّ تيّارًا عارمًا من التساؤل، سواء لدى ميرنا ونقولا، أو لدى عَدَدٍ كبيرٍ من المحيطين بهما، في دمشق وخارجها. وقد خطر لميرنا، في فترةٍ ما، أن تهجر نقولا، وتفزع الى دير، وقد استشارتني في الأمر، فأجبتها:

«ميرنا، لو أنّ الربَّ شاء اختيار فتاة عزباء، أو امرأة عزباء، لما لقي عناءً في العثور عليها وسط حشد الفتيات والراهبات المنتشرات في العالم.

«ولكنّه، وقد اختار امرأةً متزوّجةً، بل شابّةً متزوّجة، فذلك يعني أنّه يتوخّى إبلاغنا عِبَرًا عن الزواج.

«الزواج مقدّس

«والقدّيس بولس يشبّه الصلة بين الرجل والمرأة بالصلة بين المسيح والكنيسة

«الزواج علاقة مقدّسة

«فعلامَ تفكّرين بالتملّص منها؟»

وقد هزّت تلك الحجج ميرنا في الأعماق.

وكان لدى نقولا ردّ فعل مماثل، بحيث صرّح، فيما بعد، أي في أواخر تشرين الثاني ١٩٨٦ للأب داريغو: «في مُستَهلّ الأحداث، بقيتُ ثلاثة أشهر لا أجسر على النظر الى ميرنا على أنّها زوجتي. فمجرّد ذلك التفكير كان يبدو لي خطيئة. ومع كلّ ما قيل لي، وما أكّده لي الكهنة، لم أستطع أن أستوعب، إلاّ ببطءٍ شديد، أنّ ميرنا، مع أنّ الربَّ قد اختارها، لا بل لأنّ الربَّ قد اختارها، هي زوجتي، على مستوى أسمى».

أمّا عامّة الناس، فكثيرون منهم قالوا: «إن كانت ميرنا هي، حقًّا، موضع اختيارٍ ربّانيّ، فلا يسعها مواصلة حياتها الزوجيّة، لا بل لا يسوغ لها أن تواصل حياتها في العالم».

مع أنّ المسكينة لا تمارس أيّ نشاطٍ عالميّ، فهي أكثر انزواءً من راهبةٍ في ديرها.

ومع ذلك كان البعض يدّعون: «عليها أن تتوارى في دير».

للأسف، لا يزال من ينظرون نظرةً خاطئةً الى اختيار الربّ، والى الحياة الزوجيّة، وسرّ الزواج، يتشدّقون قائلين: «لا، هذا غير ممكن؛ على ميرنا أن تترهّب».

على تلك الإدّعاءات ردّ يسوع،

وعليها أعطى، هو والعذراء، جوابًا.

وقد ورد جواب العذراء، من خلال انخطاف ٢٥ / ١١ / ١٩٨٣، إذ قالت لميرنا:

«ما جئتُ لأُفرّق

«حياتك الزوجيّة ستبقى كما هي».

ثمّ، في ٧ أيلول ١٩٨٤، قالت لها العذراء أيضاً:

«عيشي حياتك.

ولكن الحياة لا تمنعك من أن تتابعي الصلاة».

وكان يسوع في منتهى الوضوح، بتاريخ ٢٦ / ١١ / ١٩٨٧، إذ قال لها، من خلال رسالة مستفيضة بلّغها إيّاها في تلك الليلة:

«استمرّي في حياتك زوجةً وأُمًّا وأُختًا».

إنّه لبرنامج كامل: زوجة وأمّ وأخت!...

طيلة عدّة سنوات، لم ترزق ميرنا طفلاً،

وفي الأوّل من أيار ١٩٨٥، بعد أن وجّهت العذراء رسالة دعوة الى الوحدة، أمسكت يد ميرنا في يدها.

وعلى حدّ وصف ميرنا، كانت العذراء تحدّق في الأرض، وقد تجهّم محيّاها، وقالت لها:

«أولادي، اجتمعوا

قلبي مجروح

لا تدعوا قلبي ينقسم على انقسامكم».

ثمّ أردفت:

«ابنتي، سأُعطيكِ هديّة أتعابك».

ولم تلبث ميرنا أن حبلت.

وفي ١٥ / ١٠ / ١٩٨٥ وضعت طفلتها ميريام.

وبعد أربعين يومًا، بالتحديد، أي في ٢٦ / ١١ / ١٩٨٦، جرى لها انخطاف.

وإذًا، إنّ إحدى رسائل العذراء، من خلال أحداث الصوفانيّة، هي رسالة تذكير بقُدْسيّة الزواج، وبلزوم تقديسه، وهو أمرٌ على جانبٍ من الأهمّيّة في وقتٍ تحطّم فيه الزواج، في الغرب، منذ عهدٍ بعيد، ونشهد للأسف، تداعيه الآخذ في التفاقم، في شرقنا.

نقولا

إنّ نقولا مدهشٌ، حقًّا،

نظير القدّيس يوسف، الى حدٍّ ما.

كثيرًا ما يُقال له ذلك، ولكنّه يُجيب، دائمًا، بتواضع: «ولكن ما أنا؟».

لا يستطيع تقييمه، اليوم، إلاّ من عرفه من قبل.

أنا لم أكن أعرفه، ولكن، في بدء الظاهرة، كان الجميع يشاهدونه، مفرط الأناقة، شديد الاهتمام بهندامه. ثمّ، شيئًا فشيئًا، صقله يسوع والعذراء، وبخطًى وئيدة، دخل في نوعٍ من الألفة مع الله، وفي ضربٍ من التجرّد، وإنكار الذات حيالَ الله.

بحيث إنّك تشعر، اليوم، بحضوره، ولكنّه حضورٌ مُغْرِقٌ في الامّحاء، صامتٌ، مرهفُ الإنصات، شديد الاهتمام بالحفاظ على أَوْلويّة الله والصلاة، حريصٌ على ألاّ يسمح بأيّ تجاوزٍ يُفسد جوَّ الصلاة،

غيرُ ساعٍ الى إبراز ذاته، أبدًا.

إلاّ أنّه، حالما يلحظ أيّ خروج على ما التزَمتْ به الصوفانيّة من سلوك، سواء بالقول أو بأيّة وسيلةٍ مشبوهة لاستغلال الصلاة، يبادر الى وضع حدٍّ للخَلَل.

ولكن في أكبر قدرٍ من الكتمان.

وفيما يلي بعض أمثلة، أو بعض أجوبة أدلى بها نقولا، وهي كفيلة بإبراز ملامحه أكثر من أيّ خطابٍ مُسْهَب:

وأبدأُ بردّ فعل شخصٍ عايش نقولا، وكان له صديقًا حميمًا، وله مثل سنّه، أي نحو خمسين عامًا، وكان، في صباه، يقطن في الصوفانيّة. إنّه يدعى جورج

برصا. وقد هاجر الى الولايات المتّحدة، ويُقيم فيها منذ لا أقلَّ من أحد عشر عامًا. وقد زرتُه عام ١٩٨٤ في نيويورك، فدعاني الى الغداء، على مائدةٍ ضمّت ضيوفًا كُثُرًا، بينهم مسلمون. وبعد الطعام سألني: «أبونا، حدّثني عمّا يجري في الصوفانيّة، فتلك هي حارتي». وبعد أن حدّثتُه، بُرهةً، عنها، سألني: «ولكن ما اسم زوج ميرنا؟» فقلت: «نقولا نظّور». وأؤكّد لكم أنّه لو أنّ أفعى لدغته لما هبَّ منتفضاً كما فعل آنذاك، وقال: «هذا مستحيل. نقولا، لا أحد يعرفه مثلي، فأنا كنت أُنظّم سهرات العربدة التي كنّا نقضيها معًا». فحدّقتُ فيه، وقلت:

«جورج، أنت تنسى أنّه يطيب لله أحيانًا استخراج جواهر من الحمأة.

أغاب عن ذهنك القدّيس بولس؟

ومريم المجدليّة، ماذا كانت؟

وتلاميذ يسوع، ماذا كانوا؟

والقدّيس أوغوسطينوس؟

استعرضْ تاريخ الكنيسة،

ليس نقولا مختلفًا عن هؤلاء،

ولسنا نحن من يصنع القدّيسين.

إنّ الله ينتزعنا من حمأتنا، وإن نحن استجبنا لنعمته، بات بوسعنا أن نصبح قدّيسين،

وعلى هذا الدرب يسير نقولا».

لقد تحوّل نقولا، تحوُّلاً مُذْهلاً، وإليكم بعض ردودِ فعله:

في مُسْتَهلّ الظاهرة، جاء الصوفانيّة مسؤولٌ أمنيٌّ رفيع، وتحدّث الى نقولا على انفراد، وانتهى الى القول: «إنّني أُشفق عليك، يا نقولا، فالظاهرة ما برحت في

فجرها، وها أنتم قد أصبحتم غُرَباء في بيتكم. فإلامَ سيؤول اليه الأمر، بعد بضع سنوات؟ خيرٌ لك أن تُغلق بابك».

فردّ نقولا: «هذا الباب، لستُ أنا من فتحه،

والذي فتحه هو الذي سيُغلقه!»

ردُّ فعل آخرو مثقّلٌ بالمغزى جرى يوم زار بيت الصوفانيّة وزير الدفاع بنفسه، العماد مصطفى طلاس، وشاهد انسكاب الزيت، ثمّ عاد برفقة أركان الجيش السوريّ للصلاة؛ وحينئذٍ انتحى بنقولا جانبًا، وقال له: «يا نقولا، أظنُّ أنّ هذا البيت سيُصبح مكان حجّ، ولا يسوغ أن تمكثوا فيه، وإنّ الحكومة على استعداد لكي تهبكم شقّة يمكنكم اختيارها أينما تشاؤون، حيث ستعيشون في هناء».

فأجاب نقولا: «ما باركه الربّ لن أبادله بأيّ شيء في العالم»!

هذا كان قد حَدَث في مُسْتَهلّ الظاهرة. ثمّ، فيما بعد، يوم خميس الأسرار، في ١٦ نيسان ١٩٨٤، أثناء انفتاح السماء الثاني، كان جرح جنب ميرنا بطول ١٠ سنتمترات، وبعمق سنتمترين، بحيث نَصَح أحد الأطبّاء نقولا بضرورة قطب ذلك الجرح. فأجاب نقولا عفويًّا: «حكيم، هللي فتح الجرح، هو بسكرّو»! وفي ذلك المساء عينه، كان الجرح قد التأم.

أجل، في ذلك المساء عينه!

في شهر تشرين الثاني ١٩٨٧، كنت في فرنسا، وعدت الى دمشق يوم ٢٢ منه. وقبل شخوصي الى منزل ذويّ، عرّجتُ على الصوفانيّة، حيث كان صحن البيت وسطحه قد أُصلحا، إصلاحًا اتّسم بالبساطة، تأهُّبًا للذكرى الخامسة.

وقادني نقولا الى السطح حيث كانت العذراء تتراءى لميرنا؛ ولحظتُ أنّهم كانوا قد بلّطوا أرض السطح كلّها، ما خلا المكان الذي انسكب فيه الزيت من يدي ميرنا، وحيث قالت إنّ العذراء قد وقفَتْ. فوق هذا المكان كانوا قد أقاموا قاعدةً نُصِبَ فوقها تمثالٌ جميل للعذراء.

وقال لي نقولا: «فيما كنّا نصلح صحن الدار، كنّا نصلّي ههنا كلّ يوم»، فسألته: «وهل كان، ثمّة، حشدٌ من الحضور؟» فأجاب: «نحو سبعين شخصاً، ينقصون قليلاً أو يزيدون قليلاً»، فقلت: «ولكنّكم مجانين! نقولا، هذا بيتٌ عتيق، ومع كلّ ما أضفتموه من إسمنت مسلّح، ومن بلاط، والقاعدة والتمثال، أفلا تخشون أن ينهار البيت بسبعين شخصاً؟».

فحدّق فيّ وقال: «ولكن، أبونا، ألا ترى أنّها ليست الجدران هي التي تحمل العذراء، بل العذراء هي التي تحملنا جميعنا!».

إنّ هذا الردّ يدلّ أفصحَ دلالة على ما طرأ على هذا الرجل من تطوُّر. ولستُ أُخفي أنّني شعرت بضآلتي أمامه، عندما ردّ عليّ بهذا الجواب.

وكنتُ، مرّةً أُخرى، في الصوفانيّة، أستعرض أحداثها أمام مجموعةٍ من الحجّاج، وإذ بامرأةٍ تلتفت الى نقولا، وتقول له: «ما أسعدك! لا ريب أنّ الله حباكَ بهذه النعمة لأنّك طيّب».

فأجابها: «إنّك مخطئةٌ يا سيّدتي، بل هو وهبني النعمة كي أُصلح نفسي».

وذاتَ يوم مررتُ بالصّوفانيّة، فسلّمني نقولا ظرفًا دُوِّن عليه: «الأب الياس زحلاوي – أبرشيّة الصوفانية – دمشق – سوريا» فقلت، ضاحكًا: «ماذا؟ أبرشيّة الصوفانيّة؟ إذًا هذا البيت لي». فأجاب نقولا: «ولكن، أبونا، متى كان هذا البيت لي؟ إنّه لم يكن قطّ ملكي». مع أنّ البيت يخصّ، حقًّا، نقولا وأُسرته.

من خلال هذه اللمحات والطّرَف والإجابات يمكنكم استخلاص قَسَمات نقولا، الذي ما انفكّ يعيش في بساطةٍ متناهيةٍ.

اللمحة الأخيرة التي أودّ ذكرها تعود لنحو سنةٍ ونصف السنة؛ يومها كنتُ في مكتبي، وإذ بنقولا يدخل عليّ بغتةً، ويجلس، فنتحادث برهةً؛ وأثناء الحديث أورد هذه العبارة التي بادرتُ الى تسجيلها فور خروجه: «أبونا، لقد اتّضح لي أنّ الربَّ يتوخّى تجريدي تجريدًا تامًّا. يريد أن يقذف بي عند أقدامه، عاريًا تمامًا، على

حصيرةٍ زريّة. فكلّ مشاريعي، منذ مُسْتَهلّ الظاهرة، حتى الآن، باءت بالفشل. ولقد ترسّخ لديّ اليقين بأنّ الربَّ يسعى الى تجريدي، تجريدًا كاملاً، كي أُصبح أسيرًا له وحدهُ. وإنّي على أُهبةٍ لذلك».

إنّك، إذ تسمع مثل هذا القول، في لهجةٍ عفويّة مُغْرِقَةٍ في البساطة، خاليةٍ من أيّ تصنُّع، تعيش، حقًّا حضورًا إلٰهيًّا، من خلال ما طرأ من تطوُّر على هذا الرجل الذي يُدعى نقولا!

صفحةٌ من الإنجيل

لقد كانت لي الصوفانيّة، وأعتقد أنّها كانت للكثيرين، صفحاتٍ من الإنجيل المعاش.

راقبوا، مثلاً، ليس فقط تحوُّل نقولا وميرنا، بل جاهزيّة الأُسرة كلّها، وآخرين كُثُر، لاستقبال الربّ. إنّني أُؤكّد، قاطعًا، أنّه سحابة الخمسة والأربعين يومًا الأُولى، كان، ثمّة، فضلاً عن نقولا وميرنا، سبعة وعشرون شخصاً، في تأهّبٍ تامّ لخدمة الظاهرة.

سبعة وعشرون شخصاً كانوا جندًا متأهّبين للمعركة، جاهزين جاهزيّةً كاملة، مندفعين لخدمة متواصلة، من أجل استقبال القادمين، ولا سيّمَا المرضى، ولمشاركتهم الصلاة.

والدا ميرنا، أخواها وأُختاها، والدة نقولا الطاعنة في السنّ، التي لا تتجاوز إلاّ قليلاً مترًا ونصف المتر طولاً، و ٣٥ كيلوغرامًا وزنًا، والتي ما فتئت، حتّى الآن، تردّد: «أنا طوع أوامر العذرا»، وتنفق أيّامها ولياليها تنظّف البيت، من غير تذمّر، كي يظلّ لائقًا بزائري العذراء مريم؛ ناهيك عن إخوة نقولا، وأخواته وأزواجهنّ، وأولادهنّ، والجيران.

لقد أحصيتُهم طيلة الخمسة والأربعين يومًا الأُولى: سبعةٌ وعشرون شخصاً دائمو التأهُّب، يُصلّون، ويخدمون، مستعدّون لكلّ شيءٍ وللجميع.

وبالطبع، كما هو واردٌ في الإنجيل، ثمّة، أيضاً، من حاولوا استغلال الحَدَث، أُناسٌ ادّعوا الرؤى والكرامات، وشتّى التخرّصات، ساعين الى استمالة الأنظار، واستدرار التكريم؛ وثمّة من حاولوا الإفادة من الحَدَث كي يبرزوا.

الاستغلال هذا، نجد له مثيلاً في تاريخ المسيحية، منذ أيّام الرسل الى أيّامنا.

صدّقوني، وحدهم ميرنا ونقولا وذوووهما كانوا يواجهون الحَدَث في امّحاء تامّ.

في امّحاء، وارتباكٍ، وحيرة، يجهدون في الصلاة، ولكنّهم، أحيانًا، لا يعرفون كيف يُصلّون، وبالتالي يستسلمون لضربٍ من العفويّة الفطريّة.

كان، ثمّة، نداءٌ واستجابة. وقد تكون الاستجابة أنواعًا. ولكنّها، في الصوفانيّة، كانت، عمومًا، تأهُّبًا، وفَرَحًا، وامّحاءً تامًّا، أمام الله، في الصلاة.

«بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا»

أودّ، هنا التنويه بأمرٍ هو مجرَّد استنتاجٍ مُستخلَص من تطوّراتٍ عديدة، جرت في الصوفانيَّة، أو بفضل الصوفانيَّة.

في الصوفانيَّة، أُلفةٌ مع الله، أكاد أقول حسِّيَّة.

ولكن، أمام أيّ تحوُّلٍ روحيّ نتبيّن عجزنا الذريع،

فالله، وحدَه، قادرٌ على إحداث التحوّل الروحيّ، ولو كان طفيفًا،

فيما نحن عنه عاجزون، مهما سعينا وجهدنا.

لستُ أعني، بذلك، أنّ عجز الإنسان مطلقٌ، وأنّ الله هو فاعل كلّ شيء،

غير أنّني، في الواقع، بقدر ما أُوغل في التأمُّل،

وفي مراقبة المصلّين في الصوفانيَّة، الذين تبدّلوا بفضل الصوفانيَّة،

أتبيّن عمق كلام يسوع الذي كان يُثير ضيقي عندما كنت في الإكليريكيّة الكبرى، والذي طالما استفزّ نفوري:

«إنّكم بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا» (يو ١٥: ٥).

أمّا الآن، في الصوفانيَّة، فقد لمستُ الحقيقة لمس اليد، الحقيقة البعيدة الغَوْر، الإنسانيّة والإلهيَّة الى حدٍّ بعيد، الكامنة في هذا القول:

«بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا».

لستُ أُخفي أنّه، في بعض الأيّام، ينتابني شعورٌ مرهِقٌ بالقنوط. أعلمُ أنّ الربّ قادر على تغييرنا،

ولكن، ربّاه، لمَ لا تغيّرني؟

وههنا أُدرك قول القدّيس بولس: «إنّني أستطيع كلّ شيء في الذي يقوّيني» (فيلبي ٤/١٣).

هاتان العبارتان تتوازنان.

«بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا».

و «إنّني أستطيع كلّ شيء في الذي يقوّيني».

حسبُنا أن نهتف له:

«ربّي، أُدخل، واستولِ عليّ».

ولكن كم من الحواجز والعتمة فينا!

وكم بين أَمْرَين قلبنا يتأرجح!

كم نودّ أن نقول للربّ:

«هيّا تملّكْني، هدّمني، وابنني من جديد».

ولكن، للأسف، كم من الظروف المؤثّرة فينا تجعلنا نناقض، في واقعنا المعاش، ما يهتف به لساننا!

في مواجهة الإغراء المادّيّ

في بلادنا ظاهرةٌ ينبغي ألاّ تغرب عن بالنا: إنّ الله موجودٌ في كلّ مكان، حقًّا في كلّ مكان. فإذا ما سألتَ أحدًا: «كيف حالك!» أجاب: «الحمد لله». إنّ اسم الله على كلّ شفة، بحيث يُخيّل لمن يمرّ ببلادنا، أنّنا قومٌ مُغْرقون في التديُّن.

وفي الواقع، نحن العرب، في أعماقنا، شديدو التديّن. ولكنّ ما نخضع له من عوامل التطوُّر الداخليّ، ومن ضغوط المجتمع الاستهلاكيّ، قد أدّى الى استهلاك الله نفسه، إن صحّ التعبير، وهكذا يظلّ الله بارزًا على سطح أمورٍ كثيرة، ولكنّ مجتمع الاستهلاك الآخذ في التهامنا ينذر بالتهام الله فينا.

وبما أنّنا نستيقظ الآن من سُباتٍ كان يلفُّنا في مجالاتٍ عديدة، ونتطلّع الى تطوّرٍ جدير بمستوى إنسانيٍّ ما، يتراءى لنا أنّ العلم، وحدَه، كفيلٌ بتحريرنا من التخلّف، الذي عانينا منه قرونًا، بحيث نصّبنا العلمَ، وفي فترةٍ ما، نصّبنا، مع العلم، الماركسيّةَ، إلهًا خليقًا بإعتاقنا من تخلّفنا.

وهذا ما يُفسّر وَلَع الناس، ولا سيّمَا الشبّان منهم، بالعلم، وبخاصّةٍ العلم الوافد إلينا من الغرب، وبالفلسفة الوافدة الينا من الغرب، وبالإلحاد الوافد الينا من الغرب.

وممّا يدعّم هذه النزعة ما نشهده من صراع الأديان الشرس أحيانًا، والذي يستفزّ لدى البعض ردّ فعل يقول: «فلنتخلّص من هذه الأديان التي لا ينجم عنها سوى المشادّة والفرقة، بل الحروب الأهليّة، أحيانًا».

وهكذا يبرز جهدٌ رام الى إقصاء الله، والتشبُّث بالقِيمَ الإنسانيّة الصِرفة، ولا سيّمَا العلم والفلسفة. وإذا أضفتَ اليها السلطة والمال، اكتملت صورة ما نعتقد أنّه الكلّ الذي لا نبتغي سواه. العلم والفلسفة، أي رؤية معيّنة للوجود، ومعهما السلطة والمال، فما حاجتنا الى أكثر؟ تلك كانت وما برحت التجربة التي تستهوينا.

وإذا بنقطة زيتٍ صغيرة تُشرِع شَرخًا في هذا البناء الذي نحن جاهدون في إشادته، ذلك البناء المعلق، تلك الإنسانيّة المغلقة على ذاتها.

لقد جاءت نقطة الزيت الصغيرة لتقول:

«ولكن الى أين أنتم صائرون؟

ومن تظنّون أنفسكم؟

وعلامَ تنسون الله.

والله معكم

ويحبّكم؟»

وعلى سبيل المثال، أُورد ردّ فعل شابٍّ غير مسيحيّ ويدّعي الإلحاد، فنّانٍ ناشئ، تخرّج من كلّية الفنون الجميلة بدمشق، وبرهن عن مواهب في الرسم والنحت والموسيقى. لقد اتّصل بي، هاتفيًّا، ذات صباح، وهو يرتجف، فدعوته الى مقابلتي.

وجاءني، شاحبًا. فقلت له: «ما بك؟» أجاب: «لقد جفاني النوم، طول الليل. وإنّي لتائهٌ، يا أبتِ» قلت: «علامَ؟».

كنتُ قد عرفته منذ أكثر من سنة، وأُعجبتُ بتفانيه، ومجّانيّته، وامّحائه، مع كلّ ما يتمتّع به من مواهب. ولكنّه لم يطلعني، قطّ، على كونه ماركسيًّا. وكان يختلف الى قاعة الكنيسة، فيُسدي بعض الخدمات، مثل إنجاز بعض الرسوم الخاصّة بالمسرح، في القاعة الكائنة تحت الكنيسة. وكان قد رسم لنا، مجّانًا، لوحةً جسيمة، لتكون خلفيّة للمسرح. ويوم حاولتُ أن أُقدّم له مكافأةً، بكى قائلاً: «أبونا، إنّ ما فعلتُه، فعلتُه محبّةً بك، لا من أجل المال».

وفيما كان يرسم، في القاعة، كانت تترامى الى سمعه أحاديث الناس عن زيت الصوفانيّة. وأخيرًا التمس من أحدهم اصطحابه الى الصوفانيّة.

وهناك، أخذ صورة سيّدة الصوفانيّة، وراح يراقب المصلّين، والصورة في يده، وإذ بالزيت ينسكب من تلك الصورة، في يده.

وأحسّ بمثل ضربة هراوةٍ على رأسه.

وقبض على الصورة، وانسلّ قافلاً الى بيته، حيث انزوى في سقيفته.

وقضى الليل كلّه يقلّب الأفكار. كان رأسه، حتّئذٍ، «محشوًّا» بالماركسيّة، على حدّ قوله. وكان قد قرأ مئات المؤلّفات عن الماركسيّة، وانتهى الى الاعتقاد بأنّ الوجود موصد، ضمن حدودها.

وقد أشرعت نقطة الزيت ثغرةً في ذلك العالَم المُغْلَق. وسألتُه: «ماذا فعلتَ، بعد ذلك؟» فقال: «أبونا، قد توضّأتُ، وتلوتُ شيئًا من القرآن، وصلّيت». وكان ما تلاه، في القرآن، سورة مريم. وسألته أيضاً: «منذ متى لم تكن قد قرأت القرآن، وصلّيت؟» فأجاب: «لم أقرأه قطّ، قراءة مؤمن، ولم أُصلّ، قطّ، بل تلك كانت هي المرّة الأولى».

إنّ لردّ الفعل هذا مغزًى عميقًا!

فثمّة نداء الله، عبر نقطة الزيت تلك، لا مجال لإنكاره.

وهذا النداء يتجلّى، أيضاً، من خلال سمات الصليب، والانخطافات، وظاهرة الصلاة.

إليكم، أيضاً، ردّ فعل كاهن شابّ من دمشق، هو الأب بولس فاضل. ويعلم الله كم كان اكليروس دمشق مناوئًا لظاهرة الصوفانيّة، سنواتٍ طويلة. ولا يزال قسم كبيرٌ منه مناوئًا حتّى الآن، مناوأةً اعتباطيّةً ليس ما يبرّرها. وإذ بكاهن شابّ، قد شرع يختلف الى الصوفانيّة، ويشترك في الصلاة، وكان عمر الظاهرة يناهز ثلاث سنواتٍ ونصف السنة. وذات يوم، في نهاية الصلاة، انتحيت به جانبًا وسألته: «ما الذي دفعك للمجيء الى الصوفانيّة؟» فأجاب: «أبتِ، إنّ مُجرَّد رؤية الناس يصلّون هنا منذ ثلاث سنوات ونصف، جعلني أُفكّر أنّ هؤلاء القوم ليسوا حمقى جميعهم، وأنّهم لا بُدّ أن رأوا شيئًا، فأحببْتُ أن أُشاركهم الصلاة» فقلت له: «طوبى لك، امضِ قُدُمًا في ما عزمتَ عليه».

وفيما بعد، غدا شاهدًا لأحداث كثيرة، وبات في قلب الظاهرة، بحيث قلتُ له إنّه سيضطلع بمهمّةٍ ذات بال في الصوفانيّة. فالأب معلولي قد طعن في السنّ، وأنا، مع ما أبدو عليه من نشاطٍ ومنعة، أشعر أحيانًا بدنوّ أجلي. ولذا قلت له: «تهيأ، يا بولس، كي تتسلّم الشعلة، فرسالتك في الصوفانيّة ستكون خطيرة».

وفعلاً، في الصيف المنصرم، عندما دعا الأب فرانز فان درفورت ميرنا ونقولا الى بلجيكا، آثر الأب معلولي البقاء في دمشق، وكنت أنا منشغلاً بسلسلة من المخيّمات مع الشبّان، ووحده الأب بولس كان جاهزًا لمرافقتها، وهكذا شرع يخرج من دمشق، ويؤازر ميرنا. لقد كان موقفه من الصوفانيّة، منذ البدء، سليمًا، وقد كافأهُ الربّ.

ومع ذلك، ما برح، هناك، من يرفضون حتى الحوار بشأن الصوفانيّة. العلمانيّون منهم يتّسمون، عمومًا، بالتهذيب وقدرٍ من الاعتدال، وحتّى إن هم لم يؤمنوا، فهم يُنصتون، في حين أنّ بعض الكهنة، للأسف ما برحوا يأبون سماع أيّ شيءٍ عن الصوفانيّة؛ ومنهم ثلاثة كهنة، قد تحدّيتُهم، أنا نفسي، اثنان منهم من كهنة الروم الكاثوليك، والثالث يسوعيّ.

لقد تحدّيتهم قائلاً: «على الأقلّ تعالوا، واطّلعوا على ما يحدث. لا يحقّ لكم أن ترفضوا مبدئيًّا، وبالأحرى لا يحقّ لكم أن تدّعوا أمام الناس أنّ الأمر مهزلة وخدعة. في يوم ما سيحاسبكم الله، فبمَ ستجيبونه، عندما ستمثلون في حضرته، ويسألكم: «لقدْ كنت أقرع على أبواب دمشق، وكان عليكم نشر البشرى، فماذا فعلتم؟» ولكن إذا ما استمرّ رؤساؤنا متمترسين في بُرجهم العاجيّ، فمن ذا الذي سيزوّدهم بالمعلومات الكفيلة بإطلاعهم على ما يجري، إن لم يكن أنتم، وأنا؟».

وللأسف، حتّى الآن، لا يزال بعضُهم جامدين.

ردود فعل مختلفة

أكثريّة سُكّان سوريا من المُسلمين، وكذلك أكثريّة أعضاء الحكومة. ويوم بدأتْ أحداث الصوفانيّة، كان الحكم على صدام عنيفٍ مع أُصوليّين مسلمين يُدعون الإخوان المسلمين. وكان بعض الاضطراب يلفّ البلاد.

ومع ذلك برهنت الحكومة السوريّة عن حنكة، وحِسٍّ دينيّ، بإيفادها الى الصوفانيّة لجنةً مؤلّفةً من طبيب وأربعة ضباط أمن، اثنان منهم عرّفا على نفسيهما، فيما اندسّ آخران بين الجمع؛ وبذلك إنّما كانت الحكومة تؤدّي واجبها، إذ كان لا بدّ أن تقف على حقيقة ما يجري.

وقد قامت تلك اللّجنة بتحقيقها على مرأى من الجميع، ولخّص الطبيب ما انتهوا اليه من نتيجة بقوله: «الله كبير». وقبل أن يُغادروا المكان، أخذ كلٌّ منهم قطعة قطن مبلّلة بالزيت، ومعبّأة في كيسٍ صغير من البلاستيك.

ومنذئذٍ اتّخذت الحكومة موقفًا من الصوفانيّة يتّسم باحترام شديد، فلم يضايقونا، قطّ، على الإطلاق. لا بل في ١٦ كانون الأوّل ١٩٨٢، أمّ الصوفانيّة مسؤولون أمنيّون، في كثيرٍ من الاحترام، تحدوهم الرغبة في أن يروا ويسمعوا بأنفسهم ما يحدث ثمّة، وأعلنوا: «إن ما احتجتم الى أيّة مساعدةٍ، في سبيل الحفاظ على النظام، فما عليكم إلاّ أن تُبلّغونا، وسنكون حاضرين». وفي الواقع، كانت الجماهير التي تتقاطر، حينذاك، الى الصوفانيّة كثيفةً جدًّا.

ولكن لم نحتجْ أبدًا الى مساعدة رجال الأمن، ولم نشهد سوى مظاهر الاحترام، سواء من قبل الحكومة، أو ممّن كانوا يأتون للاستعلام والصلاة.

وقد زار الصوفانيّة وزير الدفاع، عدّة مرّات، كانت إحداها ليلة عيد ميلاد ١٩٨٢. وفي تلك الليلة، على مشهدٍ منه ومن زوجته، ومن رئيس وزراء سابق، هو محمود الأيُّوبي، انسكب الزيت من الصورة، التي كانت، قبل لحظاتٍ، ناشفةً تمامًا.

وفيما بعد، صرّح لي وزير الدفاع مرّتَيْن، مرّةً أُولى في مكتبه، ومرّةً أُخرى في منزله، بحضور أحد أساقفة سوريا، المطران بولس برخش، قائلاً: «أبونا، عندما ستُدوِّنُ مذكّراتك عن الصوفانيّة، لا تنسَ أن تقول إنّني شاهد». قال ذلك، وهو يقرع صدره، ممّا يعني، وفق تقاليدنا، أنّه يُشهِّد الله على ما يقول.

بالإجمال، حتّى الآن، موقف الحكومة يتميّز باحترامٍ جمّ للظاهرة، ونحن واثقون أنّه سيبقى كذلك.

أمّا السلطة الكنسيّة، فقد التزمت بالحيطة، وهذا واجبها، ولئن هي أحيانًا غالت في حيطتها. ولكن سرعان ما طرأ على هذا الموقف تطوُّرٌ هامّ. فقد أصدرت البطريركية الأورثوذكسيّة بيانًا رسميًّا، بتاريخ ٣١ / ١٢ / ١٩٨٢، اعترفت فيه بأنّ أحداث الصوفانيّة هي «رؤيةٌ غير عاديّة» كما وصفتها. وخلافًا للتقليد اللاهوتيّ الشرقيّ، ولا سيّمَا الأورثوذكسيّ منه، وصف البيان الصورة الورقيّة الصغيرة بإيقونة مُقدَّسة. وقد أعلن ذلك البيان عن أمرين هامّين: ضرورة تأليف لجنة تحقيق لاهوتيّة وطبّيّة، وكذلك نقل «الإيقونة المقدّسة» الى كنيسة الصليب المقدّس الأورثوذكسيّة، القائمة على نحو ٥٠٠ متر من بيت العذراء في الصوفانيّة.

وقد تمّ نقل الصورة في تظاهرةٍ فخمة حاشدة. ولكن، للأسف، بعد ثلاثةٍ وأربعين يومًا، أُعيدت الى البيت في كتمانٍ تامّ. ومُذّاك اتّخذتْ كنيسةُ الروم الأورثوذكس موقفًا سلبيًّا، وهي الكنيسة التي ينتسب اليها نقولا، في حين أنّ ميرنا تابعة لكنيسة الروم الكاثوليك.

أمّا سائر الكنائس، فقد وقفت شيئًا فشيئًا على حقيقة ما يجري في الصوفانيّة، وكذلك فعل القاصد الرسوليّ. ومنذئذٍ واكبت السفارة البابوية مسيرة الحَدَث، عن كَثَب، وإنّي أعلم علم اليقين أنّ روما تولي ظاهرة الصوفانيّة اهتمامًا جدّيًّا.

وقد وجد بعض الأساقفة أنفسهم مقحمين في ظاهرة الصوفانيّة، عن غير قصدٍ منهم، على حدّ ما حدث للمطران بولس برخش. أمّا المطران جورج هافوري، وهو من طائفة السريان الكاثوليك، والذي كان رافضاً للظاهرة، ساخرًا منها، فقد انحاز

لها، يوم شاهد الزيت ينسكب بكثافةٍ من صورةٍ لسيّدة الصوفانيّة، في منزل أخيه ببيروت، في شهر تشرين الأوّل ١٩٨٦. وقد وافى الصوفانيّة كي يشهد بما رأى، في ١٥ كانون الأوّل ١٩٨٦. وفي ذلك اليوم اغرورقت عيناه بالدموع مرّتَيْن، فيما كانوا يُصوِّرونه بالڤيديو، ولم يعترض على ذلك التصوير. وفيما بعد، كان أوّل من أطلع العالم على ظاهرة الصوفانيّة، بنشره مقالاً عنها، كتبه بنفسه، في مجلّة «نجمة البحر» الصادرةِ في فريبورغ بسويسرا. وكان ذاك أوّل مقال يُنشر، في الخارج، عن الصوفانيّة.

ثُمَّ انضمَّ الى القافلة أساقفةٌ آخرون، وأجدرهم بالذكر قداسة البطريرك زكّا، بطريرك السريان الأورثوذكس، الذي، بدءًا من شهر آب ١٩٨٧، سعى الى الاطّلاع على حقيقة ما يجري في الصوفانيّة، فتقصّى ملفّها بعناية، وشَهِد أفلام الڤيديو التي صوّرت بعض أهمّ أحداثها، كما استمع اليّ مُطوّلاً، في لقاءات جمعتنا معًا، في مكتبه، تحدوه الرغبة في الإلمام بالوقائع إلمامًا دقيقًا.

وهو ما انفكّ يتابع مسيرة الحدث؛ وفي ٢٨ أيار ١٩٩٠ ارتضى أن يُدلي بشهادته أمام كاميرا ڤيديو، ومن خلال هذه الشهادة أعلن اعترافه رسميًّا بالصوفانيّة، وقد جاء إعلانه هذا في عباراتٍ مؤثّرةٍ في بساطتها، وصِدْقِها، وعُمْقِها.

وقد تحلّى بشجاعةٍ نادرةٍ عندما أهاب، مرّاتٍ عديدة، بأشخاصٍ كُثُر، بينهم من كانوا يهاجمون الظاهرة أمامه، قائلاً: «أبنائي، روحوا صلّوا في الصوفانيّة، فيد الله تعمل فيها». ولقد نشر، حديثًا، في مجلّة بطريركيّته، تقييمًا مسهبًا عن كتابي حول أحداث الصوفانيّة، مؤكّدًا، بذلك، تبنّيه للظاهرة.

أمّا على صعيد الشعب، فقد كان ردُّ الفعل الأوّل هو الصدمة حيال زيتٍ ينسكب من صورة، فتقاطر الناس، أفواجًا، الى البيت الذي يأوي الحَدَث. بينهم، مثلما كان حول يسوع، كان المؤمنون وغير المؤمنين، والساخرون؛ ومدّعو الذكاء، والذين يزعمون عدم قدرتهم على التورّط بسبب مراكزهم الاجتماعيّة، أو الماليّة، أو السياسيّة. ولكن كان، أيضاً، ولاءاتٌ مُؤثّرة، واهتداءاتٌ غير عاديّة، أقلّه بين تلك التي كنتُ عليها شاهدًا.

غير أنّ الصدمة قد ولّدت، تلقائيًّا، الصلاة. وهذا هو المهمّ في نظري، في حين يبدو كلّ ما سواه عديم الشأن. فقد كان، ثمّةَ، نقدٌ وسخرية، وسيستمّران، كما سيظلّ الشكّ، والرفض العنيد، ولا سيّمَا في أوساط أثرياء دمشق، وحتّى بين صفوف الإكليروس. فرغم تواصل الظاهرة، منذ ثماني سنوات ونصف، لا يزال من يصرّون على الرفض، مبدئيًّا، وبعناد، وقد يتذرّعون، في هذا السبيل، بتفسير بسيكولوجيّ، أو فيزيولوجيّ، أو ماديّ.

هناك من زعم أنّ ميرنا تتناول أقراصاً زيتيّة تجعل جسمها يفرز زيتًا! ولكن أيّ تفسير يمكنهم ادّعاؤه عن صُوَرٍ تفرز زيتًا، في كلّ مكانٍ تقريبًا: في سوريا ولبنان، وفرنسا وأميركا، وحديثًا في الموصل، بالعراق منذ شهر كانون الثاني ١٩٩١؟ أيّ أقراص تتناول هذه الصور كي تفرز زيتًا؟

آخرون قد عزوا الظاهرة لمداخلةٍ شيطانيّة. و إنّه ليصعب تخيّل إنسانٍ عاقل يتجرّأ على القول، في أعقاب ثماني سنوات ونصف، كرّستْ حياةً من الصلاة، على هذا القدر من الكثافة، واتّساع الرُّقْعة، أنّ الظاهرة هي من صنع إبليس. ومع ذلك، فبعض من يُدلون بمثل هذا القول، للأسف، يتبوأون أرفع المناصب الكنسيّة.

بالمقابل، على الصعيد الشعبيّ، كان ردّ الفعل، عمومًا، هو الصلاة. ففي أعقاب الصدمة الأولى، التي استدعت تقاطر الجموع الغفيرة الى الصوفانيّة، اكتست الحركة، شيئًا فشيئًا، حجمًا أكثر طبيعيّةً واعتدالاً، وتواضعًا. وأظنّ أنّ هذا التطوّر قد تمّ بفعل العناية الإلهيّة.

ففي حين كان الحَدَث يأخذ في دمشق – وفي سوريا عمومًا – حجمًا متواضعًا بل يكاد يكون ممحيًّا، ولا يطال سوى فئةٍ محدودةٍ من الناس، إلاّ أن أمواج أصدائه، في الخارج، كانت ماضيةً في الاتّساع، بحيث بات سوريّون كثيرون يقولون: «لقد حدّثونا عن الصوفانيّة، في الولايات المتّحدة، في حين أنّنا، هنا، في دمشق، لم نُكلّفْ أنفسنا عناء الشخوص اليها للصلاة».

وأُورد، في هذا السياق، مثالاً. فلبضعة أشهرٍ خلت، قابلتُ طبيبًا صديقًا لي، وزوجته، فسألاني: «أبونا، حدّثنا عن الصوفانيّة». وأجبتها: «علامَ إرجاؤكما هذا

السؤال حتى الآن؟». فقالت الزوجة: «إنّ شقيقة زوجي قد جاءت من كندا لتزورنا. وما كادت تهبط من الطائرة، وهي بعد في المطار، حتّى قالت: «خُذوني الى الصوفانيّة»، ممّا أصابنا بصدمةٍ: فكيف، هي القادمة من كندا، تطالبنا باصطحابها الى الصوفانيّة، في حين أنّنا، نحن المقيمين في دمشق، لم يخطر ببالنا الشخوص الى الصوفانيّة؟». وألحّت في سؤالها: «أبونا، حدّثنا عمّا يجري فيها».

فاتّفقنا على لقاء، وفي الموعد المضروب ذهبت اليهم، وكان منزلهم يضمّ خمسة أطبّاء، منهم تلك المرأة القادمة من كندا، ونحو ثلاثين شخصاً آخرين. وقد قضينا السهرة كلّها في حديثٍ عن الصوفانيّة، وقد استعرضتُ مُجْمل الحَدَث. وبعد فترةٍ، انتحى بي جانبًا صاحبُ البيت، وهو طبيب، وقال: «أبونا، حتّى الآن، كنتُ في راحة بال، ولكنّني لن أستطيع أن أبقى كذلك، بعد الآن، فالصوفانيّة تتحدّاني».

وهذا هو شأن الكثيرين.

وبالتالي، على صعيد الأهالي، قد تحقّق ضربٌ من التجربة الإنجيليّة، كما أَلِفنا أن نقول مع الأب معلولي. هناك صدمةٌ، وردّ فعل صلاة، ثمّ، لدى عددٍ غفير من الناس، توغّلٌ في التأمُّل. وبتُؤَدَةٍ، ورفقٍ، تَغَلْغَل الحَدَث.

تَغَلْغَل في صمت.

فعمل الله صامتٌ، كَتوم.

علامة الزيت

الزّيت غنيٌّ بالرموز في شرقنا الأوسطيّ. فشجرة الزيتون، والكرمة، من النباتات الحيويّة الأساسيّة. فشجرة الزيتون هي رمز السلام، وهي التي تعطي الزيتون، ومن الزيتون الزيت.

والزيت رمز النور،

ورمز الغِذاء،

ورمز القوّة: فَبِهِ تُدهَن أجسام المصارعين.

وهو رمز الشفاء. ففي مَثَل السامريّ الرؤوف، نرى أنّ الزيت قد صُبَّ على جراح الرجل الذي رماه اللصوص، بين حيٍّ وميت، على قارعة الطريق.

والزيت، في العهد القديم، هو رمز مَسْح الملوك، ومَسْح الماسيّا.

وأخيرًا هو، لنا، نحن المسيحيّين، رمز الروح القدس.

وإنّ استمرار ظاهرة الزيت في الصوفانيّة لمدهش. ففي شهر تشرين الثاني ١٩٩٠، أنذرت العذراء ميرنا بأنّ الانخطافات ستتوقّف حتى يتوحّد عيد الفصح، ولكنّها طمأنتها بأنّ الزيت سيظلّ يظهر على يدَيْها.

ولكأنّ العذراء، هنا، تُذكّرنا بأنّ إيقونة الله الكبرى هي الإنسان.

أجل، إيقونة الله الكبرى، هي الإنسان.

إنّ صورة الصوفانيّة تُمثّل العذراء ويسوع.

ولا شيء، عندنا، فوق يسوع والعذراء القدّوسة.

بيد أنّ الصورة تبقى قصاصة وَرَق،

وها إنّ الزيت ينبجس من جسمٍ بشريّ.

وإذ بنا نلمس، من جديد، حقيقة الإنسان، الذي سُمّي، منذ البدء، إيقونة الله.

ولكأنّي بالربّ، من خلال ميرنا، ومن خلال أشخاصٍ آخرين يظهر عليهم الزيت، يودّ أن يُؤكّد لنا مُجدّدًا أنّ الإنسان هو إيقونة الله.

وإنّه لأمرٌ رائع،

يُعيد الى أذهاننا أهمّيّة الإنسان في نظر الله، وأولويّة الإنسان في فكر الله.

أمرٌ يدعو الى التأمّل،

وخليقٌ بنا أن نتمعّن فيه، من خلال ظهور الزيت المستمرّ في الانسكاب والانتشار.

لم يكن أحدٌ ليتخيّل، في مُستهلّ ظاهرة الصوفانيّة، أنّها قد تدوم مثلما دامت، فعمّا قريب سيكون قد انقضى على بدئها تسعُ سنوات. إنّ إصرار الربّ هذا يستفزّ التأمّل. ويمكننا لحظ استمرارٍ مماثل لظاهراتٍ أخرى تزامنت والصوفانيّة. فاعتبارًا من مطلع الثمانينات، بدأت ظاهرات مديوغوري في يوغوسلافيا، وكيبيهو في رواندا، وسان نيقولاس في الأرجنتين، وظاهراتٌ أخرى عديدة، وجميعها قد امتدّت في الزمن ودامت.

ولكأنّي بالربّ، حيال ظُلُمات عالمنا المدلهمّة، وحيالَ رفضه الجماعيّ للبُعْد الروحيّ، يُؤكّد حضوره بكثافة، وأكثر من أيّ وقتٍ، يبدو ملحاحًا، يَبعثه إشاراتٍ حسّيّةً لا يقوى أحدٌ على دحضها.

وهو، في دمشق، يبعث إشارة الزيت، الزيت المنسكب من صورةٍ صغيرةٍ زريّة؛ وكم هذا يدعو للتأمّل!

سرّ النعمة

بيد أنّ، ثمّة، أمرًا يظلّ مُغلّفًا بالسرّ؛ فكيف يقوى إنسانٌ يشهد إشاراتٍ على هذا القَدْر من الاتّساع، والاستمراريّة، والديمومة، أن يبقى غير مبالٍ، أو، بالحريّ، سلبيًّا؟

كيف يستطيع أن يُتيح لنفسه التنكُّب عن محاولة إدراك ما يجري، ولا سيّمَا إن هو كان، على مستوى ما، مسؤولاً عن إيمان الآخرين؟

حقًّا، إنّ في ذلك لسرًّا!

إنّني، هنا، ألمس، شخصيًّا، ألم يسوع، عندما كان، حسب الإنجيل، يومئ بإشارات، لا بُغيةَ إجراء الخوارق، بل في سبيل فتح عيون الناس البسطاء، والمسؤولين الرفيعين على حدٍّ سواء.

ومن هنا أدركتُ سبب إطلاق يسوع، في غروب حياته على الأرض، صيحات الغضب، غضبٍ متفجّر من حبّه الجمّ الخائب: «الويل، الويل، الويل!».

لقد فعل المستحيل،

ونحن نقف الآن مشدوهين، إذ نشهد كيف سعى رؤساء الكهنة، لا الى قتل يسوع وحْدَه، بل أيضاً لعازر، من أجل إزالة هذه الإشارة الكبرى التي يُمثّلها لعازر الذي أقامهُ يسوع من الموت.

نعم، لعازر أيضاً.

إنّ في ذلك لسرًّا، حقًّا!

عندما كانوا يعلّموننا، في الإكليريكيّة، في دروس اللاهوت، أنّ الإيمان نعمة، وأنّ الإنسان قد يرفضها أحيانًا، كنت أنتفض استنكارًا، إذ كان يعني لي ذلك، آنذاك، محوَ دور الإنسان. ولكنّي، هنا، في الصوفانيّة، قد تبيّنْتُ أنّه رغم

كلّ ما يكنّه الله من احترام لحرّيّة الإنسان، إلاّ أنّ عالم النعمة، وعالم الإيمان، كلاهما من شأن الله.

فهو الذي يهب.

حتّى الإيمان، هو الذي يهبه.

صحيحٌ أنّ على الإنسان أن يشرع بالعمل، وأنّه مقابل خطوةٍ واحدة يخطوها، يخطو الله ألفًا.

ولكن، هنا، أيضاً، لا بدّ أن يهب الله شيئًا.

ولذلك، في نهاية المطاف، فالذين وُهِبوا نعمة معرفة الصوفانيّة، وعيش الصوفانيّة، لا فضل لهم، في ذلك، بَدْءًا منّي.

أجل لا فضلَ لنا، على الإطلاق.

فلئن شاء الربُّ أن أغوص في الظاهرة، فأنا لم أفعل ذلك بمبادرةٍ منّي، وبمحض إرادتي، إذ كان الأمر يعارض فطرتي، ونزعاتي، ونشأتي، والتزاماتي حيال كنيستي ووطني.

حقًّا لم يكن لي في الأمر شأن، وفي بعض الأيّام، كانت تُراودني رغبةٌ في أن أنأى بنفسي عمّا أُقحِمتُ فيه.

أحداث الصوفانيّة وحياتي ككاهن

إذا ما سئلتُ أيّ تبدّل قد أجرت أحداث الصوفانيّة في مجرى حياتي الكهنوتيّة، لقُلتُ إنّها بدّلت الكثير، ولم تُبدّل سوى القليل.

أوّلاً، ما تبدّل هو أنّي لمستُ، لمسَ اليد، أنّ كلّ مبادرةٍ، إنّما تأتي، دائمًا، من الربّ،

أجل، كلّ مبادرة.

إنّني فُطرتُ على السعي، والاستقلاليّة، والاعتراف للإرادة بدورٍ خطير في مصير الإنسان.

ولكنّني، هنا، رأيتُ أنّ الله قد جرّني «من أنفي» قَسْرًا.

وقد جَهدتُ، ما استطعتُ، أن أفهم،

رُبّما للتملُّص، ورُبّما لهَتْك حُجُب الحَدَث، ورُبّما فقط لفهمه،

ورُبّما للفرار من مواجهة معارضةٍ كانت تَعُمُّ البلاد.

ولكنّني أحسستُ، فِعْلاً، وكَرّةً إثر كَرّة، أنّ الربَّ كان قد أحكم عليَّ قبضته.

وكلّما توغّلتُ، والتفتُّ الى ماضيَّ، كنتُ ألمس، لمسَ اليد، أنّ قبضة الربّ كانت مُطبقةً عليَّ منذ زمنٍ بعيد.

ورويدًا، رويدًا، أدركتُ قول القدّيس بولس: «إنّه فرزني من جوف أُمّي».

إذًا، لم يكن لي في الأمر حيلة.

إنّني عندما أُجيل الفكر في ما مضى من حياتي، في ما كانت أُمّي ترويه عن طفولتي، في سلوكي في حارتي، وفي الإكليريكيّة، وفي مُختلَف مراحل مسيرتي فإنّني، بصراحة، لا أستطيع سوى شكر الربّ، لأنّه، «جرّني من شعري» كما يقال في لغتنا العاميّة، وأحكم عليَّ قَبْضةَ يمينه.

أحدُ مرشديَّ الروحيّين، الأب بول تيرنان، في القدس، كان قد رأى ذلك، بحَدْسه الثاقب، إذ قال لي يومًا: «الياس، إنّني مُتيقّن أنّ الربّ يجرّك من شعرك، ولن يدعك تسقط».

مع أنّ الله يعلم، وأنا نفسي أعلم كم قد تعرّضت للتيه والضياع! وصدّقوني، لست أسعى الى التفاخر، فليس لي أيُّ فضل، لا بل يبدو لي أنني كنت، وما أزال، الى حدٍّ ما، أنهض عقبةً في وجه الصوفانيّة لكثيرين، وربّما كان منهم مسؤولون كنسيّون رفيعو المستوى.

فأنا أسير بعكس التيّار، ليس فقط في كنيسة دمشق، بل في كنيسة طائفتي كلّها في الشرق العربيّ، وليس لي في ذلك فضل؛ بل هو ضربٌ من الحدْس قد وَمَضَ لي، ومن المُحقّق أنّه كان للربّ فيه شأنٌ كبير، إن لم أقل الشأن كلّه. وقد ظننتُ أنني قادرٌ على الالتزام به. وقد أَوْجَزْتُه في صورة ذكرى سيامتي الكهنوتيّة.

هذه الصورة تُمثّل المسيحَ ينحدر من الصليب لكي ينتزع من بؤسه الإنسان المتهاوي، المنهار كُلّيًّا. صورةٌ رائعة كان قد رسمها بالحبر الصينيّ، مرشدي الروحيّ في الإكليريكيّة الصغرى، الأب جاك بوديه، من الآباء البيض. وقد طلبتُها منه كي أجعل منها ذكرى رسامتي، ودوّنتُ عليها ثلاث عبارات، تختصر كلَّ مُثُلي:

فعلى وجه الصورة كتبتُ: «في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة الله، والكلمة صار جسدًا، وسكن فينا بيننا»، وبذلك عبّرتُ عن إرادتي في التجسّد، كاهنًا عربيًّا، في العالم العربيّ.

وقد اخترتُ للوجه الآخر من الصورة العبارتَيْن التاليتَيْن: «قال الربّ: «لا يستطيع أَحَدٌ أن يَعْبُد ربَّيْن. لا تستطيعون أن تعبدوا الله والمال»، وبذلك أشرتُ الى تصميمي على العيش في تحرُّر من المال، وفي معزلٍ عنه، ليقيني بأنّه إن كان هناك شرٌّ قد نَخَر وما أنفكّ يَنْخر الكنيسة، فهو المال.

أمّا العبارة الأُخرى فهي: «قال الربّ لبولس: «لا تخفْ، بل تكلّم. لا تسكتْ، فإنّي معك» (أعمال ١٨: ٩). فقد اخترتُ، منذ البدء أن أكون صادقًا. مع كلّ ضعفي، وكلّ الأوهان التي وَسَمَتْ حياتي، والتي لم أَستَطِعْ تقدير عمقها واتساعها، مع كلّ ذلك، قلتُ في نفسي: «عليَّ أن أجهد في أن أكون كاهنًا حقًّا، كاهنًا مُتَجسّدًا في العالم العربيّ، متحرّرًا تجاهَ المال، وصادقًا». وقد وضعني ذلك في معارضةٍ، غالبًا ما كانت مباشرةً، مع طائفتي.

بأيّ قدْرٍ غيّرتني أحداث الصوفانيّة؟ إنّها إنّما رسّختني في توجُّهاتي أكثرَ فأكثر، وهذا الرسوخ قد زادني تحرُّرًا، وأتاح لي ألاّ أهاب شيئًا. بالطبع لديَّ أوهاني

الشخصيّة، وإنّني أُعاتب يسوع أحيانًا على عدم إعتاقي منها. وإنّ لكلٍّ منّا، نظير القدّيس بولس، شوكةً في الجسد.

فضلاً عن ذلك، كانت الصوفانيّة لي غوصاً في الله، وشبهَ غَوْصٍ في الأبديّة. ولكنّه غوْصٌ كان يضعني في مواجهةٍ مع الواقع بكلّ ما ينطوي عليه من بؤس، ومع تساؤلٍ موجع مُتْرَع بالسرّ: «ولكن، يا ربّ، إن كنتَ تُحبُّ الإنسانَ بهذا القَدْر، فعلامَ تسمح بانتشار كلّ هذا البُؤس؟» تساؤل يطرحه كلُّ إنسانٍ، بل إنّ الأطفال أنفسهم يطرحونه.

وإنّني ما زلت أتساءل.

وأحاول أن أُجيب من خلال بُؤسي وصغارتي. والحقيقة أنّ الصلاة قد احتلّت من حياتي حيّزًا أكبر، وإن لم يكن، بعدُ، كبيرًا جدًّا، وربّما غدت صلاتي، صلاة تنفّس.

فيما مضى، كنت في جوع الى الصلاة، ولكنّني لم أَكُنْ أُفلح في إشباعه، إذ كان العمل يلتهمني. فقد كنت حريصاً على المُضِيِّ قُدُمًا في خدمة الشباب، وعندما يتصدّى المرء لخدمة الشباب يحتاج الى أيّام من ٤٨ ساعة.

بيد أنّ الصوفانيّة، منذُ البَدْء، قد جعلتْني ألمس لَمْسَ اليد، بُطْلانَ جهودنا البشريّة في خدمة الله، وضرورةَ الصلاة، بحيثُ صرّحْتُ لأسقفي، في ٣٠ / ١٢ / ١٩٨٢، أي في مطلع الظاهرة: «سيّدي، يُساورني شعور بواجب التخلّي عن كلّ شيء، والانزواء في مغارة كي أتفرّغ للصلاة. فوحدَهُ الله قادرٌ على تحقيق شيءٍ ما». وأذكر أنّني قلتُ له أيضاً: «يبدو لي أنّ ما نُنجزه، نحن، خلال مئة عام، يُنجزه الربُّ في دقيقةٍ واحدة!» فأجابني: «أبونا الياس، عندما يشاء الربّ ذلك، سيُعطيك إشارة؛ ولكن، في الوقت الراهن، ثمّةَ من يحتاج اليك».

وبالتالي، فقد حاولتُ مضاعفة صلاتي، أقلّه بصلاة تنفّس، بنَفْحة صلاةٍ أُحاول عيشَها أثناءَ النهار، وآناءَ اللّيل، عندما أكون مع الشباب، وعندما أكتب، وعندما أكون في الكنيسة، على غرار الحاجّ الروسيّ، وإن كنت، حتّى الآن، لم أُفلح في الاستغراق في الصلاة الكثيفة، كما أتمنّى.

غير أنَّ الصوفانيَّة قد حرّرتني، حقًّا، كما أسلفتُ القول، إذ إنّها وضعتني، سحابة سنواتٍ عدّة، في مواجهةٍ فعليّة مع الكنيسة، ومع المجتمع الذي ما انفكّ، في بلادنا، ورغم ممارساته المادِّيَّة، تابعًا للكنيسة. والناس، في تركيبتنا البسيكولوجيّة هم، نوعًا ما، هَرَميُّون، تابعون لقمَّة الهرم الاجتماعيّ، وطالما ظلّت القمّة جامدة، فالقاعدة تكاد لا تتحرّك.

ونحن، في الصوفانيَّة، ظلَلْنا، أمَدًا طويلاً، رغم تدفُّق الجماهير، نصطدم بضربٍ من الرفض، الذي لا يُخفي نوعًا من العداء. وكثيرًا ما ساورني شعورٌ بأنّني في خصومة مع مدينة دمشق بأكملها، إذ إنَّ عدد الذين كانوا يَؤُمُّون الصوفانيَّة، بالمقارنة مع تعداد المسيحيّين، وسكّان المدينة عمومًا، كان ضئيلاً جدًّا، ويكاد لا يُذكر. ومن ثمّ، فقد طالما استحوذ عليَّ إحساسٌ بأنّني مُحاطٌ بالعداء، وما أقساه من إحساس! وقد بلغ ببعضهم الأمرُ أن ألبسوني تُهَمًا دنيئةً جارحة، لم يتحرّج أحد البطاركة من قذفها في وجهي، ولو أنّه غلّفها بشيء من التورية.

ومن ثمّ، فعندما صدر إليَّ، في ٢١ شباط ١٩٨٣، الأمر بعدم زيارة الصوفانيّة، بدا لي ذلك الأمر وكأنّه فَرَج. وببقائي عشرة أشهر في منأى عن الصوفانيَّة، تنفَّستُ، بعض شيء، الصُّعَداء، وأنا أقول في نفسي: «أخيرًا، فليَدَعوني وشأني».

ولكن، عندما اتّضح لي أنّ بعض الكهنة قد أخذوا يستغلّون غيابي عن الصوفانيَّة كي يُروِّجوا أنّني، أنا أيضاً، قد اكتشفتُ أنّ الظاهرة خِدْعة، قلت: «بل سأعود، فخيرٌ لي أن أُطيع الله، وأعصى البشر. وإذا ما استجوبني أُسقفي عن داعي عودتي، فلديّ ما أُدلي به». وفي الأوّل من أيار ١٩٩١ يوم سفري الى فرنسا، لأجل نشر كتابي بالفرنسيَّة، قصدت أُسقفي، وسلّمتُه نسخة من الكتاب بالعربيّة، حيث دوّنت أحداث الصوفانيّة.

وتسلّم الكتاب وقال: «كنتُ أنتظره». إذًا، هو كان يعلم، وإن لم يطرح عليَّ أيّ سؤال عن الصوفانيّة، منذ عام ١٩٨٤. وما زلت أختلف الى الصوفانيّة، كأنّ شيئًا لم يكن.

وحدة الكنيسة

أحد أعمق التحوُّلات التي استفزّتْها الصوفانيَّة، هو وَعْيُ جمهور المُؤْمنين بأنَّه لم يَعُدْ يحقّ لنا أن نبقى منقسمين،

وأنّ خطيئة الانقسام يجب أن تنتهي.

وقد بات الكثيرون يقولون: كفانا. فعَلامَ نحن منقسمون، علامَ ينبغي أن نظلّ منقسمين؟ هل، ثمّة، أسبابٌ لاهوتيّةٌ حقّة، أم هو مجرّد تاريخ قديم؟

للأسف، في أوساط الإكليروس، ما انفكّ البعض متشبِّثين بما يَظنّونه امتيازات؛ غير أنَّ الشعبَ، في جُمْلته، وفيما خلا استثناءاتٍ قليلة، حسب تقديري، وحسب ما ألحظ بين معارفي الكُثُر، في دمشق وخارجها، فالعلمانيّون، في سوادهم، قد تخطَّوْا الإكليروس، شأوًا بعيدًا، في المشاركة بالمسيح الواحد.

أجل، شأوًا بعيدًا.

رغبتنا الآن، ومسعانا هما، على وجه التحديد، الحدّ الأدنى الذي اقتضاه يسوع ومريم، أي توحيد عيد الفصح.

فبالنسبة الينا، توحيد عيد الفصح، حافلٌ بالرمز،

فلولا الفصح، لما كانت المسيحية، على حدّ قول القدّيس بولس (١ كور ١٥: ١٧).

ومن ثمّ، فكيف نرتضي أن يكون الفصح الآن، وهو مرتكز المسيحيّة كلّها، رمزًا لانقسام المسيحيّين؟

وذلك في عالَم، هو في أغلبيّته، غير مسيحيّ.

كيف يمكن قبول ذلك؟

ولا سيَّمَا وأنّنا نعلم، يقينًا، أنَّ خلافنا حول تاريخ العيد ليس خلافًا لاهوتيًّا، بل قضيّة روزنامة، ليس إلاّ.

ولكن وراء قضيّة التوقيت هذه، يكمن تاريخٌ طويل قديم من الخلافات بين الشرق والغرب، ومن الامتيازات التي لا بُدَّ من التشبُّث بها، ومن الهيبة التي لا بدَّ من مداراتها.

وكلُّ هذا ينبغي أن يزول.

لبضع سنواتٍ خَلَتْ، كنتُ قد أطلقتُ، من خلال إحدى عظاتي، فكرةَ ضرورة توحيد عيد الفصح. وعقب القدّاس، جاءتني فتياتٌ ثلاث من طوائف مختلفة، قائلات: «أبونا، ينبغي ألاّ يظلّ الكلام كلامًا، بل نريد شيئًا حسّيًّا».

وفي الحال دوّنتُ، معهنّ، بضعة أسطر أوْجَزْنا فيها أسباب رغبتنا في توحيد عيد الفصح، واقترحنا أن يتبنّى الكاثوليك تاريخ الفصح الشرقيّ، وكنّا عازمين على جَمْع أكبر عَدَدٍ من التواقيع على ورقتنا تلك.

ولكن، قبلَ الشروع بأيّة خطوة، حَرِصْتُ على إطلاع أُسقفي على ما عزمنا عليه أمرنا، وعندما فعلتُ ذلك، ووصفتُ له الاندفاعَ الشعبيَّ الذي يحدو هذه الرغبة في توحيد العيد، قابلني بهذا الجواب المحزن، المعبِّر عن عقليَّة فئةٍ من السُّلطة الكنسيّة، وفئةٍ من الإكليروس:

«لا، لن ننحني أمامهم».

فحدَّقتُ، حينئذٍ، في عينَيه، وقلت له:

«يا سيّدي،

عندما انحدر الربّ الى أرضنا،

ألم ينحنِ أمام الإنسان؟»

فلم يُجِرْ جوابًا؛ ثمّ قال: «حسن، إنّني موافق».

إثرَ ذلك، طبعنا ذلك النصّ الموجز، وطلبنا من كلّ من كان عليه موافقًا، أن يُثبت عليه توقيعه. وفي غضون أسبوعين تجمّع لدينا عشرة آلاف توقيع. غير أنّ ذلك المسعى أفضى الى الفشل، لأنّ فئةً من السُّلطة الكنسيّة قد جمّدته.

ولكن، يبدو الآن، أن السُّلطة الكنسيّة لم تعد قادرةً على الوقوف سدًّا في وجه مثل تلك المساعي، لا بل يكاد يكون هذا الواقع يقينًا.

وقد علمتُ، حديثًا، أنّ قرارًا مبدئيًّا قد اتّخذ، في لبنان لتوحيد عيد الفصح، اعتبارًا من العام المقبل. أمّا في مصر والأردن، فقد تمّ توحيده إذ بات الكاثوليك يحتفلون به مع الأورثوذكس، الذين يُمثّلون الأغلبيّة.

فإن تعذّر على أخي أن يأتي اليّ، مضيتُ أنا نحوه،
وحتى لو فقدتُ كبريائي،
فالكسبُ لي،
إذ إنّني، في نهاية المطاف، اكتسب محبّة أخي.
وأمام المسلمين، على الأقلّ، نؤدّي شهادة وحدتنا، وهذا أضعف الإيمان.
قد لا تكون تلك هي الوحدة الكاملة، ولكنّها علامة على طريق.
وما فعله مسيحيّو الأُردنّ ومصر، لمَ لا نحقّقه في سوريّا ولبنان والعراق؟ لمَ؟
إنّنا لنرجو أن يتحقّق ذلك قريبًا.
ما زال، ثمّةَ، بعضُ عقبات، ولكنّنا نأمل في تجاوزها.
وإذًا، بفضل الصوفانيّة، تحقّقَ، على الصّعيد الشعبيّ، هذا التحوُّل الخطير، المُتمثّل في الرّغبة في الوحدة،
رغبة في الوحدة قد أخذتْ تتحقّق واقعًا، بالسّعْي، بل بالمطالبة بتوحيد عيد الفصح.
ومن وراء هذه الرّغبة في توحيد عيد الفصح، تكمن إرادةُ توحيد الكنيسة والقضاء على كلّ انقسام.
فالكنيسة المنقسمة لا تقوى على الشهادة.
ولكن، بشريًّا، لا يجد أحدٌ السبيل الى القضاء على تلك الانقسامات. فقد جرت، على سبيل المثال، لقاءات بين قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، والبطريرك زكّا، بطريرك السّريان الأُورثوذكس، اللّذَيْن أعلنا، عام ١٩٨٤، من خلال بيانٍ رسميّ، أنّ لاهوت الكنيستَيْن واحد؛ وإذًا، إن لم يكن هناك سببٌ للانشقاق، وإن لم تكن، ثمّةَ، هرطقة، وإن كان اللاهوتُ واحدًا، فماذا ننتظر حتّى نتوحّد؟ وكيف سيتمُّ التوحيد؟ هل بإذابة الكنيسة الصغيرة في الكنيسة الكبيرة؟ أو بالإبقاء على احترام هذه الكنيسة، وبتوثيق العلاقات مع الكرسيّ الرسوليّ؟ وكيف ستسلك الكنائس الأُخرى؟ وبالإضافة الى موقف الكنائس الأُورثوذكسيّة، ماذا يتوجّب على

مختلف الكنائس الكاثوليكيّة: من روم، وسريان، وموارنة، وأرمن وكلدان؟ هل يجب إلغاء مزاياها الفرديّة، وإذابتها في كنيسةٍ واحدةٍ تضمّ جميع كنائس الشرق العربيّ؟ كيف ستتمُّ الوحدة؟

لا أحدَ يعرف.

ولذلك، وَعَد الربُّ، في الصوفانيّة، بأن يبني، هو نفسُه، الكنيسة،

فهو هنا، يرى، ويعرف؛

وعلينا، فقط، أن نحاول فعل ما يطلبه منّا:

فنصلّي، ونخدم بتواضع،

ونجهد في أن نكون، حقًّا، معه، مثلما هو يريدنا أن نكون،

لا مثلما نتخيَّل أنفسَنا، ومثلما صاغنا التاريخ،

بل مثلما يريد، هو، أن نكون.

وحينئذٍ هو يستخدمنا لبناء كنيستِه الواحدة،

كنيسةٍ تعيش بالحبّ،

وتغدو مُؤَهَّلة للعَمَل في سبيل السَّلام،

وتكون، كما قال هو نفسُه، في رسائله، «ملكوتَه وسلامَه».

فتلك هي كنيستُه،

«الكنيسة هي ملكوت السموات على الأرض».

وحينئذٍ، هو نفسُه، وبواسطة هذه الكنيسة التي ستكون ملكوتَه وسلامَه، سيُحقّق وحدانيّتَه،

التي لا نفقهها، نحن.

الأمر الجوهريّ هو أن نبدأ بتحقيق وحدتنا مع الربّ، بخضوعنا لنعمته، الى أقصى مدى ممكن.

ومن خلال هذه الوحدة في الكنيسة، ملكوت الله، وسلامه وحُبّه، ستقوى الكنيسة على العمل في سبيل تحقيق تلك الأخوّة الشاملة في المسيح يسوع، التي ذكّرتنا بها العذراء بقولها: «كلّكم إخوةٌ في المسيح».

فهل سيتهيّأ للكنيسة، كما تهيّأ لها في عَهْد القدّيس أُوغوسطينوس، أن تصير الى غير أبنائها، بعد أن تتحرَّر من كلّ ما يمنعها أن تكون ذاتَها تمامًا وبصِدْق، فتسعى الى أبنائها الذين ما برحوا يجهلون المسيحيّة؟

حينئذٍ، لا ريب أنَّ الله سيُحقِّق فيها معجزاتٍ مدهشة،

وربّما هو سيوجد فيها أوضاعًا قائمةً على الصداقة والصلاة، تُمهِّد لغير المسيحيّين، بلوغ المسيحيّة؛ رُبّما!

ولكنَّ الواقع هو أنّ الربَّ يَعِدُنا، حقًّا، بوحدةٍ ستتحقّق بيمينه هو، وبمبادرته، هو، فتكون «سلامه وملكوته»، وبالتّالي إخاءً شاملاً.

في قلب العالَم العربيّ

إنّه لممّا يبعث على التفكير العميق أن تجري أحداث الصوفانيّة في قلب العالَم العربيّ.

وفي حقبة يواجهُ فيها العالمُ العربيّ ازدراء القوى الكبرى، وظُلْمَها وافتئاتَها أسوأ ظلم وافْتِئات، والمسيحيُّون أسرع من غيرهم الى الهرب.

وإنّي لأجد مدهشًا أن يشاء الربُّ إعطاءنا إشارةً في هذا الوقت بالذات.

وهذا يُذكّرني بواحدةٍ من أثمن الهدايا التي قدّمها لي، يومًا، أحدُ الأصدقاء، هو أبٌ لولدَيْن، ومعظم ذويه في الولايات المتّحدة؛ وكانت فكرة الهجرة تراوده، هو أيضاً. غير أنّه، حيالَ ظاهرة الصوفانيّة قد أعمل الفكر وصلّى، وانتهى الى قرار بالبقاء في سوريّا، وعندما أطلعني على عزمه، قلتُ له: «هذه واحدةٌ من أروع الهدايا التي تلقّيتُها سحابةَ حياتي».

أو يحقّ لإنسان مغادرة دمشق، عندما يتّخذ منها الربّ مقرًّا؟ إنّ رَدَّ فعله رائعٌ وغنيٌّ بمغزاه.

فها هوذا رجلٌ قد أدرك، حقًّا، أنّ الرَبَّ يُخاطبنا، عبرَ أحداث الصوفانيّة قائلاً:

«أبنائي، أنا هنا

أنا هنا، فابقوا معي.

إذ إنّني معكم،

فلاتَ ساعةَ هجْرَة.

لألفَيْ سنةٍ خَلَتْ، قلتُ لأبنائي: «امضوا واشهدوا»، والآن أقول لكم، أيضاً، «اشهدوا».

فلئن كان يسوغُ الاعتقاد بأنّ الربَّ قد حافظ، رغم كل الاضطهادات والمِحَن، على حضور شهودٍ له في العالم العربيّ، فمن المُؤكّد أنّه كان يريدهم لأداء

رسالة. تلك الرسالة التي كان قد أوكلها إلينا الربُّ، لألفَيْ سنةٍ خَلَتْ، ما تزال مُستمرَّة.

والشاهد يبدأ بمُساءلة نفسه ومحاسبتها. أأنا حقًّا بمستوى المهمَّة التي كلَّفني بها يسوع؟

من المؤسف أنَّ ثقافتنا الروحيَّة شديدة الفقر، وأنَّ الغرب اقتحم نفوسنا قبل ان يقتحم مجتمعَنا بعاداتٍ أحيانًا غريبة عنَّا.

وهذا الواقع هو ينبوع ألمٍ كبير لمن يُفكّر به.

ولكنَّ الربَّ، من خلال الصوفانيَّة، يقول لنا:

«أبنائي، أنا هنا.

«فامكثوا معي».

أوَليس من سياسة إسرائيل تهجير العرب من ديارهم بدءًا من النقطة الأضعف؟

ويا ليت أنَّ لنا أكثر من ميشل صباح واحد، فهو صامدٌ في قلب وضعٍ شديد القلق والاضطراب، وأمله بالربّ كبير.

أوَلا يستجيب هذا البطريرك الشُّجاع، على طريقته، لنداء الصوفانيَّة؟

دعوة الى التطلّع نحو المستقبل

إنَّ الكنيسة التي يتوجَّه إليها يسوع بكلامه، هي كنيسة المستقبل.

الماضي بُعدٌ أساسيّ من أبعادها، ولكن من الخطأ أن نجعل من هذا البُعد كُلِّيَّة الكنيسة.

هذه الأُمور يُلْمِح اليها يسوع على طريقته عندما يقول:

«صلّوا من أَجل الخطأة الذين يغفرون باسمي، والذين ينكرون أُمّي».

أَو عندما يقول:

«قولي لأبنائي بأَنّي أَطلب منهم الوحدة، ولا أُريدها من الذين يُمثّلون عليهم «بأَنّهم يعملون من أجل الوحدة».

أَو عندما يقول:

«من نظر إليَّ أرسم صورتي فيه. فالويل لمن يُمثّل صورتي، وقد باع دمي».

إنَّ هذه العبارات تُفْصِح بعُمْقٍ عن الأَلَم الذي يُسبّبه له رجال الكنيسة، مسؤولوها أكثر من مُؤْمنيها، في الماضي وفي الحاضر.

لا رَيْب أَنَّ الكنيسة من الماضي، ولكنَّها ليست موجودةً من أَجل الماضي. كما إنَّ الله تعالى هو الآتي دومًا.

لقد وُلِدَتْ الكنيسةُ على الصليب، أفتنسى أَنَّها أَيضاً كنيسة القيامة والعنصرة؟

لا ريب أَنّ من واجبي الحفاظ على ما أَعطانيه الربّ عبر التاريخ، ومن واجبي احترام التقليد. ولكن إن نحن سلكنا سلوك اليهود تجاه الشريعة والسبت، فجعلناهما مُساويَيْن لله، وإذا ما ذهبنا مذهبَ بعض الفرّيسيِّين، فادَّعَيْنا أَنَّ الربّ يتعلَّم الشريعة، فإنّنا نضعه دون الشريعة مقامًا، ونرتكب تناقضاً شنيعًا ذا عواقب وبيلة.

إنَّ كلَّ مجتمع ينكفئ على ذاته، ويقتصر على هذا، يكتب بيده قرار ضموره وتلاشيه.

لا يحقُّ للكنيسة أن تبقى منكفئةً على ذاتها، موصَدَةً دون الآخرين. بل عليها أن تنفتح، ولا بُدَّ لها أن تُشْرِع ذاتها وأبوابَها، وإلاّ انتهت الى الموت.

بناءٌ مستقبليّ يتكفّل به الربّ

إنَّه لغايةٌ في الجمال أن يستخدم يسوع، في بعض عباراتٍ من رسائله، صيغة المستقبل، سواء بإيكاله الى المسيحيّين مهمّةً مستقبليّةً، أو بتعَهُّده بإنجاز المهمَّة التي يَطْلُب من المسيحيّين النهوض بها.

وغالبًا ما قال، إمّا مباشرةً، أو بواسطة العذراء:

«أنتم ستُعلِّمون الأجيال».

«ستُعلِّمون» في صيغة المستقبل.

«الأجيال» أي ليس فقط في غضون السنوات القليلة القادمة.

بل لفظة «الأجيال» تعني مُستقْبَلاً طويلَ الأمد،

وعملاً يمتدّ على مدى بعيد.

ويقول الربّ:

«ما أجمل هذا المكان، فيه سأُنشئُ ملكي وسلامي».

«ما أجمل هذا المكان»: ولكن ليس في منزل ميرنا ونقولا أيُّ جمال، والأفراد الذين يقيمون فيه أو يختلفون اليه، لا يتميَّزون بأيِّ جمال.

ولكنَّ الربَّ ينظر من خلال علمه الإلهيّ.

وهو يرى جمالاً فائقًا في هذه البذرة الضئيلة، لأنّه يرى فيها انطلاقة بناءٍ سيتعهّده بنفسه: «سأُنشىء...».

وكأنّه يقول: «مهما غالَيتُم في تقدير ذواتكم، أو أجحفتم في تقديرها، فأنا سأتولّى الأمر».

ويبدو أنَّ الربَّ سيضع في هذه المهمَّة كلَّ ثِقَله: «ملكي وسلامي».

إنّ مَلكوتَ الله، ملكوتُ عَدْلٍ ومحبّة،

ولكن أين العدل؟

وأين المحبّة؟

«ملكي وسلامي».

ولكن أين السَّلام، سلامُ الروح الذي تركه لنا يسوع وديعة؟

ألا نبتعد عنه بإصرار، وهو، في الوقت ذاته، ينادي؟

«ما أجْمَل هذا المكان، قال يسوع في الصوفانيَّة، فيه سانثيء ملكي وسلامي».

والعذراء تقول:

«قال يسوع لبطرس: أنتَ الصخرة، وعليها سأبني كنيستي.

«وأقول أنا الآن: أنتم القلب الذي سيبني فيه يسوع وحدانيَّته».

ما من شكٍّ أنّ بإمكان الله تعالى أن يعمل بمفرده. ولكنَّه تعالى: «لا يُغيِّر ما بقوم حتّى يُغيِّروا ما بأنفسهم».

وهذا يعني أنَّ الأداة البشريَّة من مُستلزمات البناء الإلهيّ.

والبناء الالهي هذا بحاجة الى أدواتٍ تمتلك الجرأة، والمُرونةَ، والفَهْم، والتواضعَ، اللازمة.

إنَّ الربَّ يعتمد علينا،

على جماعة الصوفانيَّة، والجماعات المتعدّدة التي انبثقت من الصوفانيَّة.

ولا بدّ أن يُصلّي من أجلنا العالَم بأسره،

وأن يصلّي من أجل مسيحيّي الشرق العربيّ،

كي نكون، حقًّا، الصخرة التي عليها يريد الربّ إعادة بناء ملكه وسلامه،

وكي نكون، بمرونتنا، وحسن استقبالنا، وتواضعنا، ومحبّتنا،

أدواتٍ طيّعةً وفعّالة بين يدي الربّ،

فنُساهمَ في بناء ملكوت سلامٍ للجميع،

للجميع بلا استثناء.

وأودُّ هنا التنويه بوعدٍ قطعه الربُّ لميرنا:

«سلامي في قلبك سيكون بركةً عليك، وعلى جميع الذين ساهموا معك».

إنّه وعدٌ للمستقبل.

أمّا للوقت الراهن، فيبدو أنَّ يسوع لا يَعِدُ بشيء،

بل يدعو الى الصلاة،

الى الصَّلاة والصَّوْم، فحسبُ.

أمّا للمستقبل فيقول:

«سلامي في قلبك سيكون بركةً عليك، وعلى جميع الذين ساهموا معك».

ووعدُ الربّ هذا لا يمكن أن يتركنا غير مبالين،

بل ينبغي أن يكون لنا النورَ الذي سيساعدنا على مواجهة جميع الصعاب الممكنة، والتي يمكن تخيُّلها،

التي نعرفها، والتي ما زلنا نجهلها، والتي قد تَنْحَدِرُ علينا.

الأمر الجوهريّ هو أن يكون الربّ راضيًا،

على حدّ قوله على لسان العذراء:

«قولي للجميع أن يُكثروا من الصَّلاة، لأنَّهم بحاجةٍ الى الصَّلاة لإرضاء الآب».

صلُّوا لأجلنا لكي نكون، حقًّا، أدواتٍ طيِّعة، ونقوى على عمل شيء.

فنشر البُشْرى يقتضي أُناسًا حاضرين، متأهِّبين،

يقتضي وجود المسيحيّين،

بل وجود العرب المسيحيّين،

بعَدَدٍ وفير،

وفي حالةٍ من القناعة، والمحبَّة، والانفتاح، والطاعة، والتواضع، كي يقوَوْا، حقًّا، بمثال حياتهم، على الشهادة.

والشهادة أن أُحاول جُهْدي، وفي صمت القلب، العمل بما يأمرني به الله تعالى.

كلّكم إخوةٌ في المسيح

لقد طالبت العذراء بالصلاة من أجل السَّلام،

وبديهيّ أنَّ من يُحِبُّ لا يسعه إلاّ أن يُصلّي من أجل السلام،

غير أنّ العذراء قد شدَّدت على طلبها مرَّتَيْن.

وفعلت ذلك، للمرَّة الأُولى، بصراحة، في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩، إذ، بعد أن قالت:

«أولادي، قال يسوع لبطرس: أنت الصخرة، وعليها سأبني كنيستي،

وأقول أنا الآن: أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيّته»، أضافت:

«أريد أن تُخصِّصوا صلواتكم من أجل السلام، من الآن حتّى ذكرى القيامة».

وكانت تلك هي المرَّة الأُولى التي تطلب فيها العذراء، صراحةً:

«أُريد أن تُخصِّصوا صلواتكم».

وكأنّها كانت تقول: «أغفلوا كلَّ شيءٍ آخر، وصلُّوا لأجل السلام». وقد رحنا نبحث عن تفسير لهذا الطلب الصَّريح، الصَّادر عن العذراء للمرَّة الأُولى.

وما هي سوى فترةٍ وجيزة، حتى انقلبت الحرب الأهليّة، في لبنان، مجزرةً بين الإخوة الموارنة، كما لم يحدثْ مثلُ ذلك قطُّ،

لا في لبنان، ولا خارجه.

مرّةً أُخرى طالبت العذراء بالصَّلاة لأجل السلام، وكان ذلك في بلدة براسكات البلجيكيّة، وفي كنيسة القلب الأقدس، أثناء انخطافٍ جرى لميرنا بتاريخ ١٥ آب ١٩٩٠.

وقد اقتصرت، آنذاك، العذراءُ على التلفُّظ بهذه العبارة الوحيدة:

«أبنائي، صلّوا من أجل السلام، وخصوصاً في الشرق، لأنّكم كلّكم إخوةٌ في المسيح».

«كلّكم إخوة في المسيح».

وكأنّي بالعذراء تقول للبلجيكيّين وللغربيّين: «أنتم إخوة إخوانكم العرب».

فميرنا الموجودة هناك عربيّة، ونقولا الموجود هناك عربيٌّ، والأب بولس فاضل عربيٌّ، وهو أيضاً كان هناك.

«كلّكم إخوةٌ في المسيح».

أصحيحٌ أنّ جميع البشر إخوةٌ في المسيح!

أجل، إنّهم لكذلك.

وهذا ما كان قد أكّده القدّيس بولس، وتردّده العذراء.

«كلّكم إخوةٌ في يسوع».

عليّ، إذن، فضلاً عن الصّلاة، أن أعمل على إقرار السّلام.

فإن كنتُ على خلافٍ مع أحد، وأنا أُصلّي من أجل السلام، عليّ أن أبدأ بعقد الصُّلْح مع خصمي،

وإن أنا ظلمتُ أحدًا، فعليَّ إزالة هذا الظُّلم،

كي أكون في سلامٍ معه،

ثمّ مع نفسي،

وبالتّالي، مع الربّ.

نحنُ نعلم أنَّ مَنْطِقَ القُوَّة في العالَم هو منطقُ عُنْف، لا منطقُ حبّ.

ومنطق العنف ليس منطقَ الله.

إنَّ السائد اليوم هو منطق العنف والقوّة، فالأقوى يلتهم الأضعف.

وأسوأُ ما في الأمر أنَّ ذلك يتمّ باسم القانون المفروض أنَّه يُنظِّم العلاقات بين البشر، بحيث تكون علاقات مساواةٍ وعدل، وقانونٍ حقّ. والمُحْزِنُ، اليوم، أنَّ القوى العظمى ترفع شعارات القانون الدَّوْليّ، وباسمه، وباسم المؤسَّسات الدوليَّة المفروض أن تكون حاميةً للشعوب الضعيفة، تسحق الضعفاء والفقراء.

لمَ، وباسم ماذا؟

فلنصغ الى العذراء وهي تقول:

«كلُّكم إخوةٌ في المسيح».

انتشار في العالم

ظاهرةُ الصوفانيَّة هي ظاهرةٌ انتشرتْ وذاعتْ، أوّلاً في دمشق، في الصوفانيَّة ذاتها، ثمَّ في منازل أُخرى.

في دمشق، تجلّت عبرَ تبدُّلٍ فعليّ، على نطاقِ صلاة الناس، ورغبتهم في الصَّلاة، سواء في الصُّوفانيَّة، أو في بيوتهم. وقد غَدت شائعةً رؤيةُ أُسَر أخذتْ تألّف الصَّلاة الجماعيَّة أمام صورة سيِّدة الصُّوفانيَّة. كما غدا من الشَّائع أن تُقيم أُسَرٌ عديدة، في منازلها، زاويةً خاصّة حيث وَضَعتْ صليبًا وصورة للعذراء، وحيث يلتئم جميع أفراد الأُسرة للصَّلاة معًا، كلَّ مساء. مثل تلك الظاهرة كان موجودًا من قبلُ، ولكن ليس على مثل هذا النطاق الواسع، ولا في مثل هذه البساطة التي شهدناها تنطلق من الصُّوفانيَّة.

ثمَّ امتدَّت مَوْجة الصُّوفانيَّة في كلّ اتّجاه، ولا سيّمَا الى حلب. فاعتبارًا من شهر كانون الثاني ١٩٨٨، انسكب الزيت لأوَّل مرَّة، في أحد منازل حلب، ثمّ في منزلٍ آخر، وفي كِلْيهما من صورة سيّدة الصُّوفانيَّة. وفي حلب، أيضاً، استثار الحَدَث الصَّلاة، وفيها، كذلك، جرى تحوُّلٌ فعليّ.

وقد فاضت صورةُ الصوفانيَّة بالزيت، هنا وهنالك، في مُخْتَلف أرجاء العالَم. وقد أحدث انسكاب الزيت في بيروت موجة صلاة نتمنّى أن تستمرّ طويلاً.

وفي بيت لحم، استمرَّ انسكاب الزيت شهرًا كاملاً، فَجَمَعَ حولَ صورة العذراء أعضاء مختلف الطوائف المسيحيَّة والمسلمة، التي كانت تتوافد للصَّلاة. ولدينا، بهذا الشأن، شهادةٌ خطِّيَّة، وقَّعها كاهنان أحدُهما من طائفة الروم الكاثوليك، والآخر من طائفة الروم الأُورثوذكس، ومحام وشقيقه. ولقد اعتبرنا هذه الشهادة بمثابة الوثيقة الأُولى لوحدة الكنيسة، انطلاقًا من الصُّوفانيَّة، ولا سيَّمَا وقد ضمّت توقيعَيْ كاهن أُورثوذكسيّ، وكاهن كاثوليكيّ، جنبًا الى جنب.

تلك الشهادة تروي انسكاب الزيت من صورة سيّدة الصُّوفانيَّة، في بيت لحم، بأُسلوب ذكَّرَنا بأُسلوب القدّيس بولس، والمسيحيِّين الأوائل، وتُؤكِّد أنّ انسكاب الزيت امتدّ شهرًا كاملاً كان، خلاله، الجميع يَفِدون للصَّلاة.

وفي الوقت الراهن، تجري ظاهرةٌ مماثلة في العراق. هذا ما أطلعني عليه النائب البطريركيّ للسريان الأورثوذكس في دمشق، سابقًا، وأُسقف الموصل حاليًّا، المطران اسحق ساكا، في ٨ حزيران ١٩٩١، أثناء زيارته لدمشق. ولقد رضي أن يدوّن، بذلك، شهادةً خطّيّة، على ورقةٍ رسميّة، طُبع عليها اسم بطريركيّة السريان الأورثوذكس بدمشق، وهي مؤرّخة في ١٠ حزيران ١٩٩١. وتقول هذه الشهادة إنّ الزيْت ينسكب، منذ مطلع شهر كانون الثاني ١٩٩١، من صورة سيّدة الصُّوفانيّة، في أحد منازل الموصل.

إشارةٌ من الربّ، بضعةَ أيّام قُبَيْل اندلاع حرب الخليج!.. وأبناء الله، يُقبلون، مُذّاك، على الصلاة، وحتّى اليوم، في منزل مدقع الفقر.

بالإضافة الى ذلك، يوضح الأُسقف في شهادته أنّ في ذلك المنزل شابًّا في الثامنة عشرة من العمر، ينضح جسمه بالزيت بين فينةٍ وفينة، ويتعرّض لحالات يشبّهها الأُسقف، بعض الشيء، بحالات ميرنا. غير أنّ الأُسقف يعترف أنّه اشترك مرّتَيْن أو ثلاث مرّات بالصّلاة مع الجمع، في ذلك المنزل، ولكنّه لا يعرف المزيد عن الأمر. ويُضيف الأُسقف: «سأجهد، لدى عودتي الى الموصل، في الحصول على معلوماتٍ ضافية، سأُوافيكم بها، كي تُغني ملفّكم عن الصوفانيّة».

ما الذي يعدّه الرب في العراق؟

أتكون الصلاة هي الردّ على الزيت؟ على الارجح.

وهذا هو الجوهريّ.

قلبك هو المعوّل

في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٧، بعد أن قال يسوع لميرنا:

«إذهبي وبشّري في العالم أجمع، وقولي بلا خَوْف أن يعملوا من أجل الوحدة»، أضاف: «لا يُعيبُ الإنسانَ ما تثْمرُ يداه، بل ما يُثْمر قلبه».

إنّني لأجد هذه العبارة مدهشة.

مع أنّها في منتهى البساطة والشفافية.

إنّنا كثيرًا ما نجنح الى الحكم على الآخرين، وعلى أنفسنا، بناءً على إنتاجنا المادّيّ. هل لديك مال؟ فالشائع أنّك تساوي بقدر ما يملأ جيبك، أوما تدّخره في المصارف. هل أنت قويّ، مفتول العضلات، وهل تصارع إنسانًا قويًّا؟ فإذا ما تغلّبتَ كنتَ أنت الأفضل. هل لك مركز؟ إذن فأنت ذو قدر. وفي جميع الحالات يتعلّق الأمر بما يملك الإنسان، لا بما هو، مع أنّ الفرق بين المُلْك والوجود قد يكون، أحيانًا، كالفرق بين العَدَم والكلّ.

لقد أَلِفَ العالَم أن يُقيِّم الناسَ وفقًا لما يملكون، لا وفقًا لما هم. ولكن، للأسف، في عهدنا الراهن، يبدو أنّ هذه النزعة في الحكم آخذةٌ في الاتّساع.

بيد أنّ يسوع، هنا، عقبَ قوله لميرنا:

«إذهبي وبشّري في العالم أجمع، وقولي، بلا خَوْف، أن يعملوا من أجل الوحدة» يُتابع ببساطةٍ تامّة:

«لا يُعيب الإنسانَ ما تُثْمر يداه».

ولكأنّه يقول: «لا تخشَيْ إن لم تُحرزي، ظاهريًّا، أيّة نتيجة،

فقد تُكلَّفين بمهمّةٍ جسيمة، وقد تفشلين حسب المعيار البشريّ،

ولكن إن كنت تعملين بكلّ قلبك،

فني نظري، قلبك هو المعوَّل،

قلبكِ هو الذي يعنيني».

وهذا ما يُفسِّر لنا لماذا يُؤْثر الربُّ مباشرة أعماله باستخدام الأصغر شأنًا، الذين لا وَزْنَ لهم في عيون الناس، ولا وَزْنَ لهم في عيون أنفسهم، والذين يَعُدّون ذواتهم عاجزين عن أيّ فعلٍ ذي بال.

وهذا، الى حدٍّ ما، ما كان يقوله الأب شفْريبه: «إنّك لا تعرف شيئًا، ولا تملك شيئًا، ولا تساوي شيئًا، إذن تعالَ إليّ».

وهذا يذكّرني، أيضاً، باسم «العدم الصغير» الذي كانت تطلقه على ذاتها الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب، ذلك الوجه المدهش، تلك الراهبة الفلسطينيّة، التي توفيّت عام ١٨٧٨، والتي كانت حياتها سلسلةً من الخوارق. تلك الأُمِّيّة كانت تتعرّض لانخطافات تنشد أثناءها قصائد باللغة الفرنسيّة، التي كانت تكاد تجهلها، وبلغةٍ فرنسيّة صافية تحاكي لغة أكابر الشعراء. بيد أنّها كانت تعيش في امّحاء تامّ، فأُطلق عليها اسم «العَدَم الصغير» أو «العربيّة الصغيرة».

إذًا، اللاشيء هو، أبدًا، الذي يروق للرّبّ، إن هو قَبِل أن يظلّ عَدَمًا حيالَ الكلّ الذي هو الله.

وهذا ما يبدو أنّ يسوع يقوله لميرنا: «لا تخْشي إن لم تُفضي، ظاهريًّا، الى أيّة نتيجة، فقلبك هو المعوَّل».

وهذا عزاءٌ جمّ لكلّ مؤمن!

فكم مَنْ دأبوا سحابةَ حياتهم؛ وفي أعقاب عشرات السنين من الجهد والنَّصَب، رأوا كلّ ما بنوه ينهار!

تلك كانت حال الأب شفْريبه الذي ابتغى تأسيس جماعة من الكهنة الذين يُولون اهتمامهم الفقراء، ومن الفقراء أفقرهم، أي الفتيان الصغار. وبمشقّةٍ استطاع أن يجمع من حوله أربعة كهنة. وقُبَيْل وفاته، رأى تلك الجماعة الصغيرة تتبخّر؛

فاثنان من الكهنة تخلّيا عنه تخلّيًا تامًّا، والثالث كان متردّدًا، أمّا الرابع فكان يفتقر الى القناعة في شأن رسالته، بحيث رأى الأب شفريه كلّ مشروعه يتطاير أشلاءً. فاستسلم للربّ، وإذ بمشروعه ينبعث وينمو بعد موته.

وهذا يقودنا الى قول يسوع: «إنّ حبّة الحنطة التي تقع في الأرض، إن لم تَمُتْ فإنّها تبقى وحدها، وأمّا إن ماتت فإنّها تأتي بثمرٍ كثير».

اقتحام الله المدهش

بالإجمال، الصُّوفانيّة هي اقتحام الله، اقتحامٌ لم يَسْبِقْ له نظيرٌ في هذا البلد الطيّب.

اقتحامٌ مدهش.

مهما استقربتُ تاريخ الكنيسة، فلستُ أظنُّ أنَّ ثمَّة ظاهرةً مماثلة في كلِّ تاريخ المنطقة. لستُ أظنّ أنّا قد شهدنا، يومًا، ظاهرةً حسّيَّةً على هذا القدْر من العناد، والتنوّع، وعمق المغزى، مع ما واكبها من سمات الصلب، والانخطافات، والرسائل، كتلك التي شاهدناها، وما زلنا نشاهدها في الصُّوفانيّة.

وعلى أيّ حال، أن يؤكّد الله حضوره بهذه الكثافة، وبهذا الإصرار، وبهذه الواقعيّة المحسوسة، وذلك في غروب القرن العشرين، وفي صميم مجتمعٍ يتفاعل فيه تأليه العلم، والإلحاد، والإباحيّة، واللا أخلاقيّة، الى جانب الحاجة الى الله، فذلك حَدَثٌ فذّ في تاريخ كنيسة الشرق.

ففي الصُّوفانيّة كلُّ شيء هو حبٌّ،

وجميع رسائل الصُّوفانيّة هي رسائل حبّ،

ورسائل ثقةٍ وأمل.

إنَّ المرّة الوحيدة التي بدا فيها يسوع ينذرنا، فيما خلا بعض التأنيب الذي كان يوجّهه لنا، كانت يوم قال لنا:

«أنا صلبتُ حبًّا بكم،

وأُريد أن تحملوا وتتحمّلوا صليبكم من أجلي، بطوعٍ ومحبّةٍ وصبر، وتنتظروا قدومي».

إنّها العبارة الوحيدة، وسط كلّ رسائل الصُّوفانيّة الرائعة، حيث يُلمح الربّ الى مجيءٍ قد يمثّل نذيرًا، وإن كنت غير واثقٍ من تفسيري هذا.

وبالمقابل، تدعو عموم رسائل الصُّوفانيّة الى الانطلاق:

«إذهبي وبشّري، وقولي للعالَم أجمع...».

وما تكاد ميرنا تعود الى دمشق، حتى تُؤمر: «إذهبي وبشّري».

«لماذا تخافين وأنا معك»؟

ثلاثَ عَشْرةَ مرّةً، بالضبط، ردَّد يسوع والعذراء: «لا تخافي».

وعشرَ مرّات، على الأقلّ، قال يسوع والعذراء، بوضوحٍ وصراحة: «نحن معكم».

وفي العبارة الأخيرة، من رسالتها الأخيرة، أكّدت العذراء:

«إنّا معك، ومع كلِّ واحدٍ يتمنّى أن يكون العيد واحدًا».

لا مبرّر، إذن، للنقاش: «إذهبي، إنّا معك».

كذلك كانت الرسالة التي أوكلها يسوع الى تلاميذه،

وإذن، فهذا انطلاقٌ جديد للمسيحيّة في المنطقة.

غير أنّ صانع هذا الانطلاق الجديد هو الربّ، لا نحن.

ويبدو أنّ يسوع يخاطبنا برقّة قائلاً:

«أصدقائي

حسبكم مَسْحًا لي، حتّى الآن،

ودعوني أتولّى الأمر بنفسي».

وبما أنّ السلام لا يقوم إلاّ على العدل، فرجاؤُنا أن يكون الملكوت ملكوت عدلٍ تامّ للعالم، حيث يعيش جميع أبناء الله، عيشة أبناء الله، في سلامٍ ومحبّة.

عبثٌ، إذنْ، ونحن نشهدُ أحداثَ الصُّوفانيَّة، أن نلتمس سندًا لدى أيّ إنسانٍ كان، أو أيّ شيءٍ كان. قد نعتمد، أحيانًا، على العلم، أو المال، أو السلطة، أو البشر، ولكنّه اعتماد محدود.

الوحيد الذي علينا أن نعتمد عليه بلا حدود، هو يسوع،

أجل، يسوع.

وبما أنّه وفّر لنا حضورَ أُمّه حضورًا منيعًا، ثابتًا،

فواجبنا أن نتمسّك، بقوّةٍ، بيد العذراء،

إذ إنّنا، معها، نضمن الوصول الى يسوع.

أعلن يسوع، في واحدةٍ من أجمل رسائله وأرقّها:

«هي أمّي التي وُلدتُ منها،

مَنْ أكرمها أكرمني.

من نكرها نكرني،

ومن طلب منها نال، لأنّها أُمّي».

فلا تنشدوا يسوع في منأًى عن أُمّه. إنّه نداءٌ جادّ الى الكنيسة كي تتحرَّر من كلّ ما ليس الله.

نداءٌ ملحاح، من خلال رسائل الصُّوفانيَّة،

نداءٌ خطير من الربّ الى كنيسته.

وعندما أقول «كنيسته»

أعني كلّ كنيسته.

والكنائس الصغيرة هي كنيسته،

فهو يبتغي تأسيس كنيسة واحدة.

لقد حان الوقت كي تتّكل الكنيسة على الربّ وحده، دون سواه.

إنّ الكنيسة، اليومَ، منهكةٌ، وممزّقة الى أبعد مدى، وقد نَزَفَتْ دمًا غزيرًا، بحيث لن تقوى على الظَّفَر بالرّاحة، والقُوَّة، والحيويَّة، إلاّ في يسوع،

وفي يسوع وحدَه.

ويا ليتنا نتبنّى، كلُّنا، كهنةً وعلمانيّين، الصلاة التي لقّنها يسوع لميرنا:

«يا يسوع الحبيب،

هبْ لي أن استريح فيك، فوقَ كلِّ شيء».

فيقيني أنّ نَسْمةَ تحرُّرٍ مُدهشةً ستهبّ علينا وتقودنا الى الوحدة.

الحبّ الذي أُكنّه للكنيسة

الحبّ الذي أُكنُّه للكنيسة،
هو الحبُّ الذي أُكنُّه ليسوع نفسه.
الكنيسة هي أُمّي
لولاها لما عرفتُ يسوع،
ولما عرفتُ مريم،
ولما عرفتُ نفسي،
ولما عرفتُ ذاتي كما هي في عَيْنَي الربّ.
إنَّها العذراء أُمّي التي أعطتْني اللّهَ،
وهي الكنيسة أُمّي التي وهبتْني لله،
ولا سيّما في الكهنوت.
لقد دفعتني الى يَديْ الله، على نحوٍ مُمَيَّز، في الكهنوت.
أعطتني لله، بصورةٍ مميَّزة،
بحيثُ باتَ بوسعي الآنَ أن أهب الآخرين اللّهَ،
وإلاّ لما قيل لي «الأب»، «أبونا»، أبَ الجميع.
وإذًا، أنا منخرط في ما يُحاكي مُثَلَّثًا:
الكنيسة وهبتني الله،
والكنيسة وهبتني لله،
والكنيسة تؤهِّلني لإعطاء الآخرين اللهَ.
إنّه مُثَلَّثٌ متكامل،
يكتمل في الحبّ.

ولكنَّ الحبَّ لا يحول دون صفاء البصيرة.
بل إنّه يضاعفه.
فعلى المحبّ الحقّ أن يكون نيِّر الرُّؤْية.
قد تكون الكنيسة متغضِّنة الوجه،
فهي قد بلَغَتْ من العمر ألفَيْ سنة.
وقد توصف بالشيخوخة،
وقد تُذيقني الآلام،
ولكنّها تظلّ أُمّي.
وأنا أُحبّها لأنَّ الله يحبُّها،
أُحبُّها لأنَّ الله يُحبُّني، بها.
أُحبُّها، لأنَّها هي التي لقَّنتْني الله، وعلَّمْتني أن أُحبَّه،
ولولاها لما كنتُ شيئًا على الإطلاق.
بيد أنّني أرغب، أحيانًا، أن تكون أُمًّا أكثر ممّا هي عليه الآن.
ليس لي فقط،
بل لكلِّ أبنائها،
الأغنياء والفقراء على السواء،
الأذكياء وواهني الذهن،
المثقَّفين والمفتقرين الى الثقافة.
أُريدها للجميع، بكلِّيَّتها.
وهي ليست دائمًا كذلك،
وهذا لا يحول دون حبّي لها.
ولأنّني أُحبُّها أُكاشفها بقولي هذا.

إنَّ ذلك يُؤْلمني.

مثلما يؤْلمها،

ولكنّه أَلَمُ حبٍّ.

إنّه حبٌّ قد يبلغ من الغضَب ذروةً تجرحُني،

وتجرح الآخَرين،

ولكنّه الحبُّ أبدًا.

وأنا لا أستطيع أن أُعلِّل نفسي بالكذب، فأَسلُك أُسلوب المداهنة والصَّمت، إذ يعتريني، إذّاك، الشعورُ بأنّني أخونُ الحبَّ الذي أَدين به لأُمّي، ومن ثمّ للربّ.

إنّها أُمٌّ رأَتْ ابناءَها يُنتزعون منها،

وهي أُمٌّ غالبًا ما دفعت، بدمها، ثمنَ إبقاء بنيها في مأْمَنٍ من أَيّ حَيْفٍ، جسديّ، أو اجتماعيّ، أو روحيّ.

إنَّها أُمٌّ تورطتْ أَحيانًا، لأَسباب إنسانيّة مُخْتلِفة، وبالتالي ارتكبت خطيئة تناقُصِ أبنائِها.

ومع ذلك، فهي أُمّي،

وأنا أُحبُّها،

وأُصرّ على مصارحتها،

لكيلا تفقد، مرّةً أُخرى،

باتّكائها على أُمورٍ إنسانيةٍ محضة،

أبناءً آخرين، مثلما فعلت في السّابق.

وأتمنّى أن تصارحني، هي أيضاً،

لأنّني ابنُها،

أتمنّى أن تتحلّى بالجرأة فتصارحني،
عندما تراني، أنا أيضاً، أحيد عن السِّراط السويّ.
فالحبُّ الذي لا يقوم على الأَمانة والصَّراحة ليس حبًّا.
ومن العَبث نشدانُ الحبِّ الحقّ في العالم،
فالعالَم يبدو لي غيرَ سويّ،
وفيه يتعذَّر العثورُ على الأَمانة،
وإذا فُقِدَت الأَمانة، فأَين يمكن العثورُ عليها،
إن تعذَّرَ العثورُ عليها في الكنيسة؟
وإذًا، فمثلما أنا حريص على مصارحة أُمّي بالحقيقة،
باسم حبّي لها،
وباسم حبّي للربّ،
أودّ، أيضاً، أن تصارحني أُمّي بالحقيقة،
كي نقيم، جميعنا، في الحقيقة،
وبالحقيقة نتمّم عمل الربّ.

إنّ الكنيسة هي كنيسة أمانة، استطاعت عبر أَلْفَي سنة من الثَّبات، والأَلَم، وحتّى من الاضطهاد، أن تحافظ على هذه البقيّة التي يودُّ الربُّ، الآنَ، أن يتّخذها أساسًا، مع كلّ ما هي عليه من ضَآلةٍ ومن أوهانٍ، ومن انقسام، ومن تفتُّت.

سيتّخذ الربّ هذه البقيّة أساسًا لإعادة بناء ملكوته،
ذلكم هو وعدُه،
وهذا الوعد هو، لي، دافع حبٍّ أكبر،
ليسوع ولأُمّي.
لأَنّ أُمّي أَعطتْني أَن أَعيش نعمةَ الصُّوفانيّة،

التي هي نعمةُ حضورِ الرَّبّ.
لقد وهبتْني أن أعيش هذه الانطلاقة الجديدة،
وأن أعيشها في الأمل.
أنا لستُ واثقًا من رؤية أيّ جزءٍ منها يتحقّق،
ولكنّني استطعت أن أعيشها في الأمل،
وأرجو أن أراها، من العالم الآخر، تتحقّق بتؤدة
مع سائر إخوتي في المسيح ههنا،
في موطني، في دمشق، وفي سوريا، وفي لبنان، وفي فلسطين، وفي العراق، وفي شتّى أرجاء العالم،
ففي هذه البقيّة سينفخ الربُّ روحه من جديد، هذه البقيّة التي وهبها، من جديد، أُمّه،
بسخاءٍ جمّ،
وحنانٍ جمّ،
وعلى نحوٍ مذهل،
بحيث أنّ كلّ من يودّ أن يؤدّي للربّ، عن ذلك، صلاةَ شكرٍ مناسبة،
يجد ذاته عاجزًا،
عَجْزًا تامًّا.
إنّني أودُّ أن تقيم كنيستي،
التي هي أُمّي،
في الحقيقة، وفي الحبّ،
بحيث لا تلبث أن تكتشف، في الصُّوفانيّة، يد الله الممدودة،
وقلبه المشرع.

عندما أتاح يسوع للأُخت «مرغريت ماري ألاكوك» أن ترى قلبه، قائلاً: «أُنظري الى هذا القلب الذي أحبّ العالَم حُبًّا جمًّا».

ذاعت صورة ذلك القلب الملتهب.

ويقيني أنّ في الصُّوفانيّة أكثر من الصّورة،

فالربّ لايني يردّد: «إنّي أُحبُّكم».

ولايني يُومىءُ إلينا بإشارات.

لقد ظهر عدّة مرّات للأُخت مرغريت ألاكوك؛ ولكنّها لم تكن سوى فرد، وكان لديها جرأةُ القول، فصُدِّقتْ.

ولئن رفض البعضُ تصديقها، إلاّ أنّ رسالتها قد شقّت طريقَها شيئًا فشيئًا.

أمّا الآن، ففي الصُّوفانيّة يفيض الربُّ حبًّا،

وحنانًا،

و إلحاحًا؛

بحيث يبدو أنّه يودّ مخاطبتنا جميعًا،

وأتمنّى ألاّ تحجم الكنيسة،

التي هي أُمّي،

عن فتح عينَيْها كي ترى يدّ الله، هذه، الممدودة،

وقلبه هذا،

وتشهدَ في هذا القلب الذي أُشرع على الصليب،

قلب الناهض من الموت،

الذي ينفُخُ في الكنيسة روحَه،

مثلما نَفَخه قديمًا في الرسل.

وهكذا سينطلق تجسّدٌ جديدٌ للربّ، إن جاز استخدام مثل هذه العبارة.

إنّ ما يُحزنُني هو أن أرى، في قلب هذه الكنيسة، التي هي أُمّي، من يملكون دائمًا، وكلٌّ على مستواه، القُدْرة على إجهاض عمل الربّ،

وربّما كنتُ واحدًا منهم.

وقد واكبني، فترةً ما، هذا الخوف من القُدْرة البشريّة على إجهاض عمل الربّ.

ويوم تيقّنتُ أنّ الربّ هو الذي كان يعمل في الصُّوفانيّة، وإذ كان لديَّ بعض إلمامٍ بتاريخ الكنيسة، وعلمٌ بما يكُنّه الربُّ من احترامٍ جمٍّ للإنسان،

خشيتُ، حقًّا، أن تتّخذ الكنيسة إجراءات تخنقُ، فعلاً، عملَ الله في الصُّوفانيّة.

وإنّنا لنحمد الله الذي أنقذنا من كارثةٍ كهذه،

وحمانا من الحماقة البشريّة.

فقد ترك السلطاتِ الكنسيّة تعمل في بُطْءٍ يُثير حُزْني،

ولكنّه لم يدعْها تعمل في عُدوانيّةٍ كان من شأنها خنق النِّعمة.

إنّني لا أكفُّ أُصلّي من أجل من يُمسكون بزمام السُّلطة في الكنيسة،

كي يذكروا أنّ فوقهم يسوعًا.

وأنّ فوق علمهم الربّ،

وأنّ فوق جميع مداركهم،

ثمّةَ أمورًا قالتْها العذراء،

نحن نجهلُها تمامًا، ولكنّ الربَّ يُدركها؛

وكي يعلموا أنّ مخطّطَ الله ليس ما يصمّمونه هم،

بل ما يصمّمه الربُّ نفسُه،

وأنّ على خدّام الله أن يتوافقوا وما يقتضيه الربّ منهم،

لامع ما يقتضونه هم من ذواتهم،

أومع الصورة التي يرسمونها لله.
إنّني أُصلّي من أجلهم جميعًا،
وأتمنّى، حقًّا، أن يُقرِّب الربُّ اليوم الذي يُجمع فيه على شكره،
الذين خدموه في الصُّوفانيّة،
والذين ظنّوا أنّهم يخدمونه بمحاربة الصُّوفانيّة،
سواء من بقوا على هذه الفانية، او الذين انتقلوا الى الحياة الآخرة،
وأن يشكروا له جميعُهم اقتحامَه للكنيسة،
في العالم العربيّ،
وفي الحقْبة الرّاهنة،
من أجل بعث حبّه فينا، وفي كلِّ إنسان؛
علّه، بخاصّة، يقينا من أن نكون، أبدًا، أمثال الفرّيسيّين، ووجهاء أورشليم.
فحيالَ مشهد عالمنا المُتوتِّر،
الحائر،
المرتطم بأوضاعٍ متعذّرة الحلّ،
الخاضع لسُلطة المال،
ولسُلطاتٍ أُخرى، منها الظاهر ومنها المستتر،
حيالَ عالَمٍ كهذا،
ولدى سماع رسائل الصُّوفانيّة،
ولدى رؤية حبّ الله المُغْرق في العَظَمة والإلحاح،
لا يسعُنا سوى القفز في المُطْلَق، وإيلاء الربّ ثقتَنا،
وعلى حدّ قول الكتاب،
أن نرجو ضدَّ كلّ رجاء.

ولكن علينا أن نرجو في فرحٍ، وفي الحبّ القادم إلينا،
والراغب في أن يكون رفيق دربنا،
كي ينتشر في العالم أجمع، وفي جميع الأفئدة،
ويخلق لنا أرضاً جديدة.
لقد بات لزامًا علينا أن نلتمس من الربّ إرسال روحه القدّوس لنا،
كي يُبدع العالَم من جديد.
وعلينا أن نصلّي، جميعنا، لهذه الغاية،
وأن نكون منفتحين لاستقبال الربّ الذي يزورنا في الصُّوفانيّة،
وفي مديوغوري، وفي كيبيهو، وفي شتّى أرجاء العالَم.
ومن خلال تلك الزيارات، يُبلّغنا رغبته في إعادة خلق عالَمٍ إنسانيّ،
وبمبادرةٍ منه تعالى؛
فهو، وحده، القادر على ذلك.
«ربَّنا، زدنا إيمانًا».
هكذا قال التلاميذ،
وإنّني، اليوم، أدعوك، باسم جميع إخوتي:
«إني أومن، يا ربّ، ولكن زِدْنا إيمانًا».
آمين

٢٥ / ٣ / ١٩٩٣
عيد البشارة